الكتب
# وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 8 - Issue 90 - July 2006

مجلة شهرية . العدد التسعون . السنة الثامنة . يوليو ٢٠٠٦ . الثمن عشرة جنيهات

سياسة واقتصاد.. حب وكراهية

## حُروب كرة القدم!

هواجس الغرب تجهض حوار الحضارات / سلامة أحمد سلامة

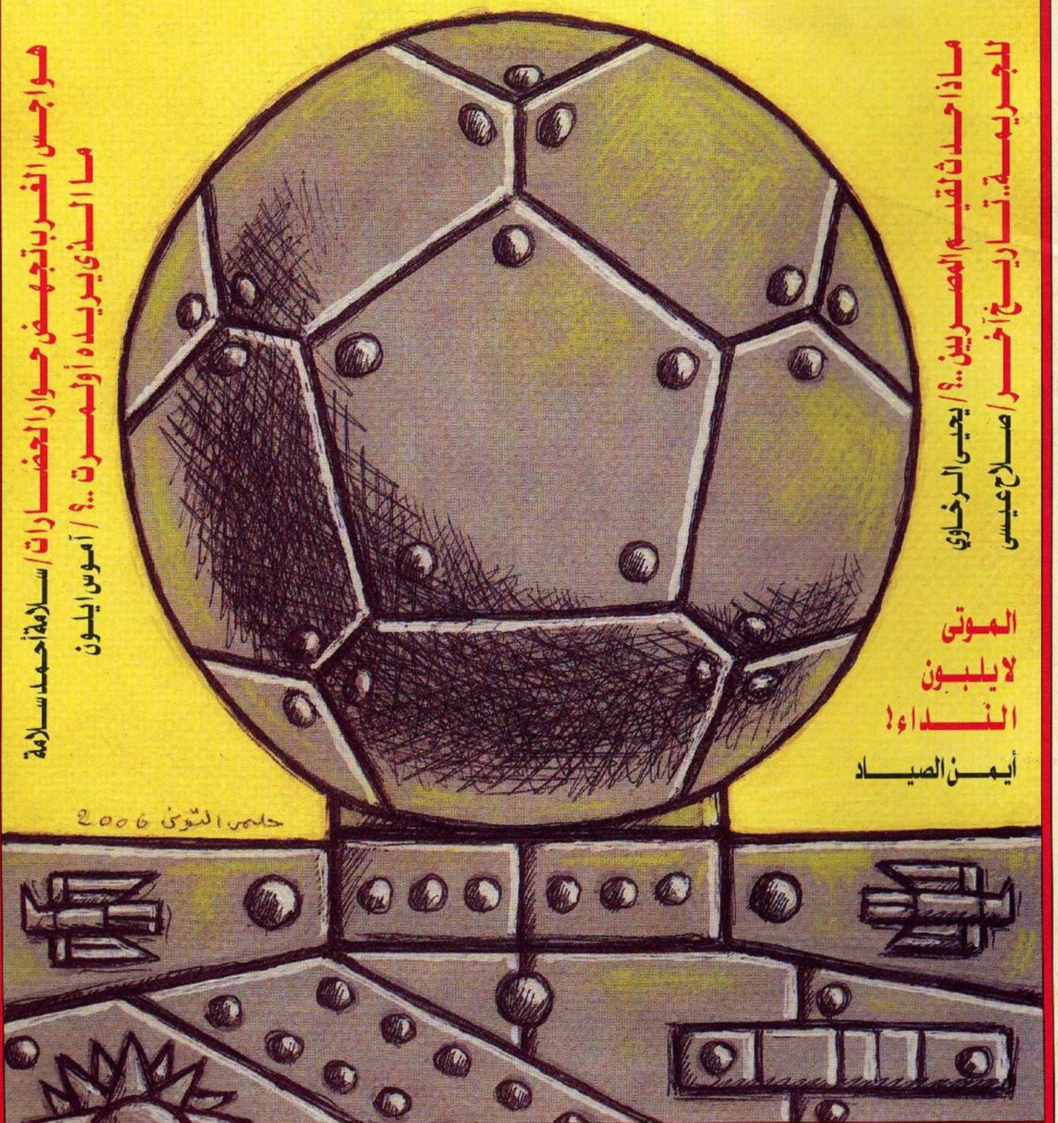
ما الذي يريده أولمرت ...؟ / آموس إيلون

ماذا حدث لقيم المصريين...؟ / يحيى الرخاوي

للجريمة تاريخ آخر / صلاح عيسى

الموتى لا يلبون النداء!

أيمن الصياد



السـنة الثـامنـة
العـدد التسـعون
يـولـيــة ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحـمـد الـزيـــادى

الكتب
# وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبـراهيـم المعـلـم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حـلمـى التـونـى
مدير التحرير
أيمـن الصيـاد




## محتويات العدد :



## كتـاب العـدد :

- أحمد عبدالرحيم.. كاتب مصرى.
- اليزابيث درو.. كاتبة أمريكية.
- امبرتو إيكو.. كاتب وروائى وأستاذ للفلسفة بجامعة بولونيا.
- أموس إيلون.. أستاذ بمركز القانون والأمن - جامعة نيويورك.
- أيمـن الصيـاد.. صحفى.
- تيم باركس.. كاتب وأستاذ للأدب الإنجليزى بجامعة ميلانو.
- جريج جتهارد.. باحث فى برنامج دراسات أوروبا الوسطى والشرقية - جامعة لاسال.
- رجاء بن سلامة.. أستاذة جامعية فى تونس.
- رنا حايك.. صحفية.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- صلاح عيسى.. صحفى.
- محمد خير.. صحفى.
- محمود الذوادى.. أستاذ علم الاجتماع - جامعة تونس.
- معتز خورشيد.. نائب رئيس جامعة القاهرة للدراسات العليا والبحوث.
- موسى نعيم.. رئيس تحرير مجلة Foreign policy.
- وليد الشوبكى.. كاتب متخصص فى العلوم والتكنولوجيا.
- يحيى الرخاوى.. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة

رسوم العدد للفنانين

**محمد حجى - أحمد اللباد - عماد حجاج**




## المراسـلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠١٩٠/ ٣٩٣٠١٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير) e-mail: info@alkotob.com



## الاشـتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد - داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكيا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكيا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكيا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى، ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٤٥٦ - subscription@weghatnazar.com

## ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهما - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

سلامة أحمد سلامة

# هواجس الغرب تجهض حوار الحضارات

** على مدى العقدين الماضيين برزت الدعوة إلى حوار الحضارات أو حوار الثقافات كما يحلو للبعض أن يسميه، كظاهرة ذات وجه إنسانى للتغلب على أسباب الصراع والشقاق ومشاعر الكراهية والعداء، التى تنجم عن تباين الثقافات وتصادم القيم والتقاليد التى تحكم البيئات الاجتماعية المختلفة لشعوب العالم. وبدا وكأن أجندة السياسات العالمية بدأت تفسح الطريق أمام جهد إنسانى خلاق: يعيد وضع الحضارة الإنسانية تحت مظلة اتفاق شامل، لصياغة سلم للقيم تتوافق عليه البشرية، يحافظ على التنوع الثقافى، ويدعم وشائج التفاهم والتسامح، ويتجاوز أسباب الخلافات المصطنعة والجهالات المتفشية. ويعلى قيم الترابط والتواصل والتبادل الثقافى. بما يدحض دعاوى «صراع الحضارات» التى روج لها كثيرون على رأسهم الأمريكى صموبل هنتنجتون.

وطوال هذه السنوات لم تكن تمر مناسبة أو تقع أزمة طارئة أو مفتعلة تعكر صفو العلاقات الدولية، أو يثور لقاء فى منتدى سياسى أو ثقافى أو اقتصادى إلا وتطرح فيه وعلى أجندته دعوة حارة إلى ضرورة استمرار حوار الحضارات على مستويات مختلفة: بين رجال الدين، على مستوى الأديان السماوية الثلاثة تارة، أو على المستوى الثقافى بين الأدباء والمفكرين والإعلاميين تارة أخرى. أو على المستوى السياسى والدبلوماسى لمناقشة التداعيات الدولية الناجمة عن الاختلاف والخلاف المتجذر تاريخيا وإقليميا بين الدول والتكتلات السياسية تارة ثالثة، بهدف البحث عن القواسم المشتركة، وإيجاد الأرضية الكفيلة بحل المنازعات والصراعات الإثنية والعرقية ذات الأبعاد السياسية التاريخية وتجاوز مشاعر الكراهية وعقد النقص والاستعلاء الكامنة فى التعامل بين الشعوب.

***

ولا يوجد إحصاء دقيق لعدد الندوات والمؤتمرات التى عقدت خلال العقد الأخير، تحت أسماء وعناوين مختلفة فى عواصم العالم شرقا وغربا وشمالاً وجنوبا. ولكن الثابت أنها ربما تجاوزت الآلاف، وأنفقت عليها الملايين، واستهلكت آلاف الساعات والصفحات، سواء قبل أو بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ دون أن تفضى إلى تحقيق النتائج المرجوة، بل لعلها استخدمت فى حالات كثيرة لإطفاء الحرائق المشتعلة لبعض الوقت، وللتغطية على أهداف سياسية أبعد مدى وأكثر خطرا مما يظنه الكثيرون؛ دون أن تؤخذ بالجدية الكافية.

فقبل أحداث سبتمبر جاءت الدعوة إلى حوار الحضارات كرد فعل على حالة التوتر التى أعقبت نهاية الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتى وعودة أوروبا الشرقية إلى أحضان الغرب. واستخدمت مقولة الخطر الإسلامى بديلاً عن الخطر السوفيتى، لتجميع القطعان الأوروبية الشاردة تحت راية التحالف الأطلنطى. باعتبار أن الخطر الإسلامى هو الذى يهدد حضارة الغرب وقيمه وإنجازاته، ويعرض النظام العالمى الجديد للانهيار.

وبعد أحداث سبتمبر استولت قضية الإرهاب والحرب على الإرهاب على مجمل الأوضاع العالمية. وجرى فى الغرب إخضاع معظم القضايا والمنازعات الإقليمية لنظريتهم فى الحرب على الإرهاب باعتبارها نسيجة لتنامى الأصوليات الإسلامية المتطرفة التى تمثلها جماعات عنف راديكالية بزعامة بن لادن وأمثاله ممن خرجوا من عباءة مجتمعات إسلامية متخلفة، تحكمها نظم سياسية رجعية، معادية للديمقراطية ولقيم الحضارة الغربية القائمة على الحريات والمساواة وحقوق المرأة. وتحركها بواعث العداء والكراهية لمجتمعات الغرب المتقدمة.. فى مقابل التجاهل الكامل للمظالم السياسية والنزاعات الإقليمية وسياسة الانحياز لإسرائيل وإنكار الحقوق العربية.

وكانت هذه المفاهيم هى التى قدمت المبرر الأخلاقى والسياسى للحرب فى أفغانستان والحرب ضد العراق؛ بحيث وقر فى أذهان قطاعات واسعة من شعوب العالم: أن «الحرب على الإرهاب» هى «حرب على الإرهاب الإسلامى» ليختزل بعد ذلك فى «الحرب على الإسلام». واقترن هذا المناخ بتصريحات متناثرة من رؤساء دول وسياسيين كبار ومثقفين، تؤكد هذا التوجه وتزينه فى عقول العامة. وعلى رأس هؤلاء بعض التصريحات المعروفة التى أدلى بها الرئيس الأمريكى بوش ورئيس وزراء إيطاليا السابق بيرلسكونى.

على أن هذه الموجة ما لبثت أن أخذت تنحسر فى شكلها الظاهرى، نتيجة الانهيار الشديد الذى أصاب العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامى بدرجة باتت تهدد المصالح والعلاقات المتبادلة، وبالأخص فى ضوء النتائج الكارثية لحرب العراق وسقوط الذرائع التى توسلتها واشنطن ولندن فى شن ما أسمته الحرب على الإرهاب.. لتفتح الطريق أمام قضايا أكثر أهمية تتعلق بالمصالح الاستراتيجية والاعتبارات الأمنية، والتحسب لمواجهة حالات الفوضى التى يمكن أن تنجم عن انهيار الأنظمة العربية القائمة أو تعرضها للسقوط تحت تأثير تيارات الإسلام السياسى المتنامية فى العالمين العربى والإسلامى. وضاعفت منها المخاوف المتزايدة بسبب حركات النزوح والهجرات الكثيفة القادمة من أفريقيا ومن دول الجنوب الإسلامية إلى الشواطئ الأوروبية.

***

لقد ظل الحوار بين الحضارات أو الثقافات يفرض نفسه على الساحة الدولية طوال العقدين الماضيين، وانخرطت فيه القوى السياسية والثقافية والإعلامية. ثم جاءت قضية الرسوم المسيئة بمثابة اختبار عملى للعديد من القرارات والتوصيات التى أسفرت عنها الجهود الحوارية، لتثبت إخفاق هذه الجهود. وكانت المواجهة الأخيرة قبل أزمة الرسوم، تلك التى دارت حول النظام العالمى الجديد للمعلومات والاتصالات. حيث كانت المواجهة بين مبادئ سيادة الدولة والانسياب الحر للمعلومات قبل انتشار الإنترنت فى منتصف الثمانينيات. أما المواجهة الأخيرة فتركزت على الدين. وفى المؤتمر المشترك الذى عقده الاتحاد الأوروبى ومنظمة المؤتمر الإسلامى فى اسطنبول عام ٢٠٠٢، ركز على الأبعاد السياسية للحضارة والتقدم والتناغم بين القيم المشتركة. ولكن عندما قدمت منظمة المؤتمر الإسلامى قرارا بشأن مكافحة الإساءة للأديان للجنة الامم المتحدة لحقوق الإنسان فى جنيف فى أبريل ٢٠٠٤ جاءت الأصوات بنسبة الثلثين من بقية العالم، مقابل الثلث من الغرب أى من دول الاتحاد الأوروبى بالدرجة الأولى.

وعندما وقعت أزمة الرسوم المسيئة ظهر عمق الهوة بين الطرفين فى اللقاءات التى تمت فى إطار عملية برشلونة والحوار الأوروبى متوسطى، فبينما أصرت الدول الأوروبية على تأكيد مبدأ الحق فى حرية التعبير كحق مقدس، طالبت الدول العربية المتوسطية بالتأكيد على أن الحوار بين الثقافات يقتضى بنفس الدرجة محاربة العنصرية وكراهية الأجانب وعدم الإساءة للأديان.

وهكذا بدا واضحا أن الحوار من وجهة نظر الغرب لا يعدو أن يكون آلية لتبديد شكوك الجانب الآخر ومخاوفه، دون أن يعنى تغييرا من جانب الغرب، أو تنازلاً عن مواقفه وتحيزاته، حيث يؤمن فى قرارة نفسه بأن قيمه ومبادئه هى التى يجب أن تسود، أو على الأقل أنه يملك الحق - بحكم تفوقه وتقدمه الحضارى - فى فرض الأجندة التى تنظم الحوار وتحدد أولوياته. وتراجعت بذلك فكرة تنوع الثقافات وتعدد الهويات التى ظل الغرب يفاخر بها. فاقتصرت على ما يجرى من حوارات داخل القاعات المغلقة بين النخبة من الجانبين، دون أن تهبط إلى الشارع فى التعامل الحياتى اليومى، أو تنعكس على القوانين والترتيبات التى تصدرها البرلمانات والمجالس التشريعية.

***

ويبدو أن الشغل الشاغل الآن فى أروقة الاتحاد الأوروبى قد أصبح هو

## حوار الحضارات لم يعد يحتل الأولوية التى تعلقت بها الآمال. بل حلت محله استراتيجيات تعطى الأولوية للأمن القومى ومحاربة الإرهاب. وفرض نظم تحد من مخاطر الإخلال بالأوضاع الاجتماعية الأوروبية

تحديد موقف الدول الأعضاء، فجدد الأجانب والمهاجرين. ولأول مرة فى تاريخ أوروبا يتفق وزراء الداخلية فى ١٦ ولاية ألمانية على حزمة من الإجراءات تحدد الاتجاهات العامة لمنح الجنسية للقادمين الجدد من الأجانب الذين يمثلون ٩ بالمائة من مجموع السكان. وطبقا لهذه الإجراءات سوف يتحتم على طالبى الهجرة فى المستقبل حضور عدد معين من الحصص لتلقى دروس «المواطنة». وهى تشتمل على تعلم المبادئ الأساسية للدستور والقيم السائدة فى المجتمع.

واتخذت ألمانيا هذه الخطوة فى نفس الوقت الذى تدور فيه مناقشات مستمرة حول إدماج الأجانب، وبالأخص من الجيليين الثانى والثالث.. اللذين باتا يشكلان أزمة اجتماعية مكبوتة، كما ظهر فى اضطرابات الضواحى فى فرنسا أخيراً، حين تظاهر المئات منهم فى الشوارع معبرين عن حالة من السخط والغضب والإحساس بالاغتراب. وقد كشف ساركوزى وزير الداخلية الفرنسية أخيراً عن قوانينه الجديدة للهجرة طبقا لنظام انتقائى، يشجع القادمين الجدد على تعلم اللغة ومبادئ المواطنة. ولا تمنح الجنسية إلا بعد فترة إقامة قانونية تتراوح بين خمس وعشر سنوات، وبعد إجراء امتحان يجيب فيه الشخص عن عدد من الأسئلة، تحدد موقفه من الجنس، ومن قضايا المرأة، والأصولية الإسلامية، والإرهاب والتعليم.

ومادامت ألمانيا وفرنسا قد انتهجتا هذا الطريق، فإن سائر الدول الأوروبية تعكف الآن على إعادة النظر فى قوانين الهجرة والإقامة. وأصبحت هذه القوانين موضوعا للجدل والمعارك الانتخابية، كما فى النمسا وهولندا وغيرهما، حيث تخوض الأحزاب اليمينية معاركها الانتخابية على خلفية التشدد فى هذه القوانين. ويذهب بعضها إلى تطبيقها بصفة خاصة على الأجانب والمهاجرين القادمين من بلاد إسلامية، على أساس وجود هوة واسعة من الاختلاف الثقافى فى الدين والعادات والتقاليد، وما ظهر - خلال التجربة - من إحجام نسبة كبيرة منهم عن الاندماج فى البيئة الاجتماعية المحيطة بهم.

ولا تأتى هذه الإجراءات والتشريعات - كما هو واضح - من فراغ. ولكنها تأتى من تحولات اجتماعية حادة، تعبر عن نفسها فى صورة ردود فعل عنيفة وصدامات مع الأقليات المهاجرة، التى تنحو إلى التقوقع فيما يشبه «الجيتو» فى الأحياء والأطراف البعيدة من المدن والتجمعات السكانية. تتخذ سمة المشاعر المعادية للأجانب وما يمثلونه من عقائد وعادات غرائبية ولون مختلف للبشرة والملامح والأسماء والطقوس الاجتماعية. ويسود فى التعامل اليومى مع هذه الأقليات «منطق الرفض» وترجسية الاختلافات البسيطة، التى تهدد الأمن وتنتهك الكرامة الفطرية للفرد.

وفى تحليله الرائع فى رواية «الهويات القاتلة» يقدم لنا أمين معلوف. تلك التجربة الإنسانية التى توضح كيف يتحول الجيران بين عشية وضحاها إلى أعداء، يختزلون آدمية بعضهم البعض فى سمة اختلاف واحدة. ومن هنا لم يكن غريباً تكرار حوادث الاعتداء التى وقعت على أشخاص ملونين أثناء سيرهم دون أدنى سبب فى بعض المدن الألمانية، أو إطلاق الرصاص على تجمع من غير البيض فى قلب بروكسل بسبب فتاة من مالى كانت ترعى طفلا أبيض. أو تدبير مذبحة ضد مصلين فى مسجد بتكريت.

غير أن الإحساس بالدونية على الجانب الآخر بين الأقليات المهاجرة عادة ما يتداخل مع المعتقدات، فيستدعى مقاومة للمدركات والعادات والمعلومات التى يتلقاها الشخص فى بيئته الجديدة، وتؤدى هذه المقاومة إلى إصدار أحكام مسبقة تحول دون التعلم والتغيير والاندماج. ويعرف علماء «النفس الاجتماعى» هذه الظاهرة بـ «التنافر المعرفى Coghitive dissonance»، وهى تقوم على آلية بسيطة مؤداها: إذا لم تتمكن من الحصول على ما ترغب فيه، فإنك تميل إلى بخس قيمته حتى يمكنك الاستمرار فى الحياة فى سلام مع نفسك ومع المجتمع.. وهى نفس قصة لافونتين عن الثعلب الذى لم يتمكن من الوصول إلى العنب لأنه كان عالياً، فتركه وهو يقول لنفسه: هذا العنب حصرم لا يؤكل.

وفى مقابل ذلك يعتقد بعض الباحثين أن أوروبا تعانى بدورها من «أزمة هوية» لا تقل فى حدتها وعمقها عن «أزمة الهوية» التى يعانى منها المهاجرون المسلمون فى الغرب.

وفى رأى دودبنسيه مسئول الأمم المتحدة فى شئون العنصرية والخوف من الأجانب، أن سبب إخفاق حوار الحضارات والثقافات يرجع إلى أن أوروبا باتت تخاف من نفسها، وتبدى عزوفا شديداً عن مواجهة واقعها المتعدد الثقافات والأعراق. والتردد فى الاعتراف بحاجة مجتمعاتها إلى دماء جديدة من المهاجرين لمواجهة الانخفاض المستمر فى عدد السكان ونقص الأيدى العاملة، وازدياد معدلات الشيخوخة فى مجتمعات تفقد شبابها وحيويتها تدريجياً.

وبعبارة أخرى هناك صدام لم تتغلب عليه أوروبا حتى الآن بين القوميات التقليدية التى عرفتها الشعوب الأوروبية على مر تاريخها وفجرت كثيرا من المنافسات والأحقاد بين دولها، وبين الهوية الأوروبية الجديدة التى يرمى الاتحاد الأوروبى إلى صياغتها فى سبيكة واحدة تقوم على تنوع الثقافات وتعدد اللغات تحت راية وحدة أوروبية ودستور أوروبى، وعملة أوروبية، وقوانين وتشريعات أوروبية تذوب فيها القوميات. والحاصل أن الشعوب الأوروبية مازالت عاجزة عن الذوبان فى قومية أوروبية واحدة تعترف بالتنوع الثقافى داخلها، وما برحت ترتد على أعقابها إلى قومياتها الأصلية بين حين وحين، مما يفسح الطريق أمام إحياء مشاعر الكراهية والعداء للأجانب وما يقترن بها من عنصرية وتفرقة بين الأديان.

**لا تنبئ الحصيلة المتوفرة من حوار الحضارات حتى الآن عن نتائج إيجابية يمكن أن تفضى إلى ردم الهوة بين الغرب والعالم الإسلامى. ولا تنبئ أيضاً بأن الحوار يمثل آلية ناجعة للتوصل إلى توافق عالمى يحرر العلاقات الدولية من الخلافات والصراعات الناجمة عن اختلاف الثقافات.**

وهناك أسباب قوية تدعو للاعتقاد بأن حوار الحضارات لم يعد يحتل الأولوية التى تعلقت بها الآمال، بل حلت محله استراتيجيات تعطى الأولوية للأمن القومى ومحاربة الإرهاب والتطرف، وضبط الهجرة. وفرض نظم للإقامة والجنسية تحد من مخاطر الإخلال بالأوضاع الاجتماعية والتقاليد الأوروبية التى تفجر أزمات مثل أزمة الرسوم المسيئة أو إساءة معاملة الأجانب والاعتداء عليهم ومحاولة تغيير هويتهم بالقوة.

وتنطوى هذه السياسات بالضرورة على السعى لإدخال أشكال معدلة للإسلام، ذات خلفيات أمنية وسياسية. وزرع نماذج حضارية تستهدف صب التعاليم الإسلامية فى قوالب غربية بحيث أصبح هناك حديث عن الإسلام الفرنسى و الإسلام الألمانى والإسلام الأوروبى. وهو ما يعطى للغرب نوعا من الوصاية والاستعلاء، يحول دون قيام حوار حقيقى على أساس من التكافؤ والندية.

وفى آخر اجتماع عقده خبراء أوروبيون لوضع وثيقة تمثل مرجعا معترفا به فى المسائل الدينية - بعد أزمة الرسوم - كانت الحصيلة النهائية هى الاتفاق على تجنب التصنيفات الخاطئة التى تؤدى إلى الخلط بين الإرهاب والإسلام، وعدم استخدام عبارة «الإرهاب الإسلامى» حتى لا يرتبط الإرهاب بديانة بكاملها، مع التحفظ فى استخدام كلمة «أصولية» وكلمة «الإرهاب الجهادى» الذى يعتبره المسلمون مهيناً.

إن الفشل الذى منى به حوار الحضارات حتى الآن، لا يعنى أن العبء يقع على عاتق الغرب وحده. أو أن العرب والمسلمين لا يتحملون نصيبا مساويا من المسئولية. فالاستعلاء الغربى يقابله على الجانب الآخر تيارات إسلاموية ترتدى ثوب الوصاية على قيم الغرب وممارساته وثقافاته. ولا تكف عن اتهامه بالانحلال والمادية. وتعمد إلى الانزواء والانكفاء على الذات والعزوف عن التفاعل والاندماج مع المجتمعات الغربية التى تقبلتها وأفسحت لها مكانا للعيش والرزق والتعليم لها ولأبنائها، أو اللجوء إلى أساليب العنف والتطرف وتحدى القوانين والتقاليد فى المجتمعات التى استضافتهم. والنتيجة الطبيعية لذلك هى لجوء الحكومات الغربية إلى تشريعات وإجراءات تكفل طردهم وإغلاق أبواب الرزق والعمل أمامهم، وإشعال العداء والكراهية بين الثقافات والشعوب على نحو لا يخسر فيه غير العرب والمسلمين فى نهاية الأمر. ■

# كرة القدم

## من الحرب «العالمية».. إلى الكأس «العالمية»

جيريمي جنتهارد

※※ من منا لا يتذكر المشهد الألماني في أعقاب الحرب العالمية الثانية؛ المدن مدمرة، ولقي عشرات الآلاف من الجنود الألمان حتفهم أو أصيبوا إصابات بالغة. كما أن ملايين أخرى في أنحاء القارة قضي عليهم. وعندما اتضح أن هتلر خسر الحرب، قرر هو وكبار مساعديه جميعا الانتحار. وتقدم الحلفاء من الغرب وزحف السوفييت من الشرق. وسرعان ما نزلوا جميعاً أرض ألمانيا وبدأوا لعبة سياسية معقده خاصة بتقسيم البلد.

كانت الفترة التي أعقبت الحرب مباشرة فترة معاناه شديدة للشعب الألماني. إذ بدأ هتلر أثناء الحرب فرض رقابة على الأسعار حدت من تدفق السلع والواردات إلى شعبه. وفي عام ١٩٤٥ كانت فرنسا وبريطانيا وأمريكا والاتحاد السوفيتي مشغولة في تحديد من الذي ستكون له السيطرة على كل جزء من ألمانيا. ولكن تلك الدول جميعها قررت استمرار العمل بسياسة هتلر الخاصة بفرض رقابة على الأسعار. وخلال بضعة أشهر أضر نقص الطعام وغيره من الواردات الضرورية الألمان ضررا بالغا. وأصبحت العملة الألمانية بلا قيمة تقريبا مما أدى إلى خلق اقتصاد مقايضة، حيث كان الناس يجولون في شوارع المدن والبلدات الصغيرة في الريف باحثين عن ضروراتهم الأساسية. لقد سقطت ألمانيا في هاوية اقتصادية.

في الجزء الغربي من البلاد، الذي كان يتولى إدارته حينذاك الأمريكان، بدا جدال كبير بين الأمريكان والألمان. كان الجميع يعلمون أنه لابد من عمل شيء ما لتخفيف المعاناة. وظهر الديمقراطيون الاشتراكيون من جديد على اليسار، حيث كانوا يريدون من الدولة تقديم العون بأية طريقة يمكنها بها ذلك. ومن ناحية أخرى ظهرت مجموعة من الاقتصاديين الآتين من جامعة فرايبورج. وكانت مدرسة فرايبورج بقيادة فالتر أويكن متأثرة بشدة بميلتون فريدمان وغيره في جامعة شيكاغو الأمريكية الذين كانوا يؤمنون بقدرة الأسواق الحرة. وكان معروفا أن أويكن وأتباعه، ومنهم لودفيج إيرهارد وفيلهم روبكه، وساعدهم ذلك على كسب التأييد وسط الأمريكان الذين كانوا يحكمون ألمانيا فعليا ويرغبون في تشجيع الألمان الذي ليست لهم صلة بالنازي لمساعدتهم على إدارة البلاد. وفي عام ١٩٤٨ أصبح النفوذ الفعلي في يد تلك الجماعة وبدأ التطور الاقتصادي لألمانيا. وبفضل مشروع مارشال، بدأ خروج ألمانيا الغربية من الرماد، بالمعنى الحرفي للكلمة. وبحلول عام ١٩٥٨، أي بعد عقد من الزمان، كان الإنتاج الصناعي قد زاد بمقدار أربعة أضعاف، وارتفع الناتج المحلي الإجمالي لجمهورية ألمانيا الاتحادية بما يزيد على الثلثين. وتشكلت حكومة ألمانية غربية مستقلة عن السيطرة الغربية. وفي لحظة ما خلال ذلك العقد، ظهرت ألمانيا الغربية باعتبارها دولة

يمكن للألمان الغربيين العاديين تحديد متى تشكلت دولتهم على وجه الدقة؛ حيث كان ذلك في الرابع من يوليو من عام ١٩٥٤، وهو اليوم الممطر الذي أقيمت فيه نهائيات كأس العالم لعام ١٩٥٤ في سويسرا. وكانت بطولة كأس العالم تلك الأولى التي يذيعها التليفزيون. وكانت ألمانيا الغربية قد تأهلت لدخول تصفيات كأس العالم وكان يُنظر إليها على أنها جواد خاسر ليس لديه فرصة كبيرة لمنافسة قوى كرة القدم الكبرى في العالم. وفي التصفيات الأولية للبطولة كانت ألمانيا تلعب ضمن مجموعة تضم كوريا الجنوبية وتركيا والمجر. وفي مباراة ألمانيا الغربية الأولى أغضبت الفريق التركي المرجح فوزه بهزيمته بأربعة أهداف مقابل هدف واحد، لتصبح مؤهلة للعب ضد المجر، وهو الفريق الذي كان يسمى «المجريون الساحرون» وكان يعتبر وقتها أعظم فريق شهده العالم، حيث لم يهزم قط لمدة تزيد على الأربع سنوات. وكانت نتيجة المباراة رغم توقعها مفجعة للألمان، إذ تقدم المجريون على فريقهم بثمانية أهداف مقابل ثلاثة. ليأتي ترتيب الفريق الألماني في المركز الثاني ضمن مجموعته، مما سمح له، بالرغم من الهزيمة، بالانتقال إلى الدور التالي من البطولة. وفي البداية فازت ألمانيا بصعوبة على فريق يوجوسلافيا الذي كان فوزه مرجحا، ثم فازت على الفريق النمساوي في الدور قبل النهائي، لتقف مرة أخرى أمام المجريين الجبابرة الذين أحرجوها قبل أيام فقط.

تحدد يوم المباراة النهائية في ظروف جوية سيئة، فقد انهمر المطر من السماء. وفي ألمانيا شاهد آلاف الألمان المباراة في البارات وواجهات المحال التجارية؛ وهي الأماكن الوحيدة التي كان يمكن مشاهدة المباراة فيها في ذلك الوقت، مما ساعد على جعل الحدث مشهدا قوميا. بدأت المباراة، وخلال دقائق بدا وكأن المجريين سوف يهزمون الألمان شر هزيمة، بعد أن أحرزوا هدفين مقابل لا شيء بعد ثماني دقائق من بداية المباراة. ولكن بعد ذلك، وببطء، استعاد الألمان تماسكهم وثقتهم في أنفسهم. وبعد ذلك بست عشرة دقيقة استطاعوا بمعجزة جعل النتيجة التعادل بهدفين لكل منهما. وفي الشوط الثاني سيطر المجريون على المباراة ولكنهم لم يتمكنوا من إدخال الكرة الشبكة، وبينما لم يكن قد تبقى من زمن المباراة سوى خمس دقائق، نجحت ألمانيا الغربية في شن هجمة مضادة انتهت بنجاح حين أحرز هيلموت ران هدفه الثاني في المباراة لتصبح ألمانيا الغربية متقدمة بثلاثة أهداف مقابل هدفين. وعلى الفور شن المجريون هجمة مباغتة سعيا لأن تصبح النتيجة التعادل بثلاثة أهداف لكل من الفريقين. وبدا أنهم أحرزوا ذلك الهدف ولم يكن قد تبقى من زمن المباراة سوى ثوان؛ إلا أن الحكم تجاهل الهدف على أساس أن هناك تسللا. وانتهى الوقت وفازت ألمانيا لأول مرة بكأس العالم في مباراة ظلت تُعرف في البلاد باسم «معجزة برن». ويساوي هذا الانتصار فوز أمريكا المعروف باسم «معجزة على الجليد» الذي يعتبره الكثيرون من مشجعي الرياضة أعظم انتصار في تاريخ الرياضة الأمريكية، حيث هزم فريق الهوكي الأمريكي الذي كانت هزيمته متوقعة السوفييت هزيمة كبيرة في دورة الألعاب الأوليمبية الشتوية في ليك بلاسيد عام ١٩٨٠، على خلفية من التضخم والركود الاقتصادي، وأزمة الرهائن الأمريكيين في إيران، وافتقاد الثقة في توجه البلاد.

آخرج الفوز ملايين الألمان إلى الشوارع للاحتفال، وكانت تلك المرة الأولى التي تشهد فيها البلاد

World Cup: The Complete History
(كرة القدم: تاريخ كأس العالم)
Terry Crouch
London: Aurum Press, 2006.

ترجمة: أحمد محمود

# حرب الكؤوس!

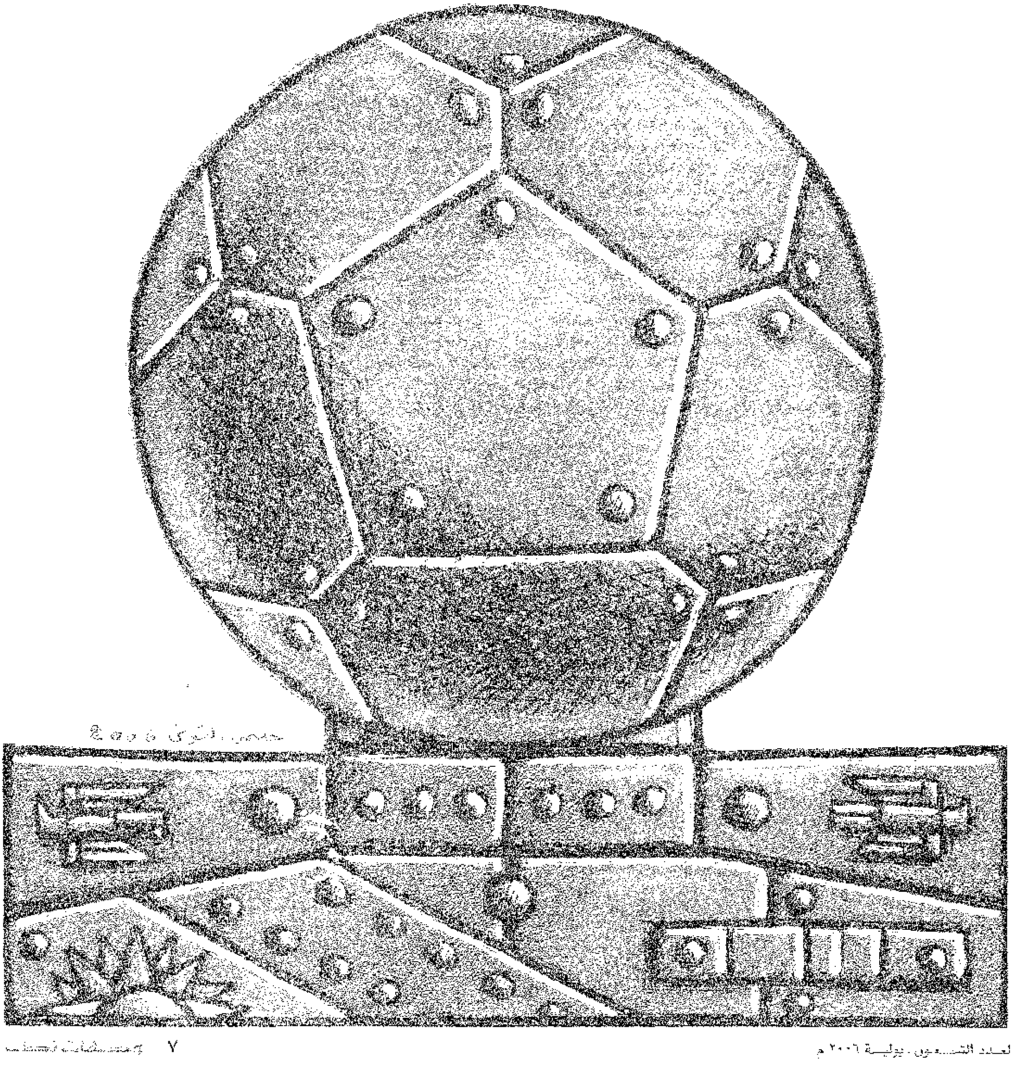
لماذا رفع لاعبو غانا في كأس العالم علم إسرائيل احتفالاً بفوزهم في مبارياتهم الأولى؟ وإلى أي مدى يرتبط ذلك - وإن بشكل غير مباشر - بما وصل إليه حال العرب. أو بما كان من تجاهل مصر لحديقتها الخلفية؟

إلى أي مدى «تعولمت» كرة القدم اقتصادياً؟ وما هي الحقائق الاقتصادية أو السياسية لاتهام المصريين للسعوديين بالاحتكار؟

هل يتجاوز ما شهدته مقصورة استاد القاهرة قبل أسابيع مجرد كونه «شأنا كروياً»، ليصبح مرآة «مجتمعية» وربما «سياسية» لقاهرة السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين؟!

أسئلة يبدو مكانها الطبيعي في باب السياسة أو الاقتصاد، ولكن الواقع أنها تأتي على هامش «رياضي» أو بالأحرى «كروي»، لتعكس مدى التأثير المتبادل بين ما يجري في ساحات الملاعب وبين التطورات المجتمعية: سياسة أو اقتصاد أو ثقافة.

وهنا دراستان تركز إحداهما على الحالة الألمانية منذ الحرب العالمية الثانية، وكيف كانت كرة القدم في سياق تحول ألمانيا الاقتصادي وإعادة اتحادها السياسي. وتستعرض الثانية كيف «جرى الأدرينالين أنهاراً» في مسابقات كأس العالم التي كانت ميداناً ملائماً لتأجيج الأحقاد القومية القديمة، وكيف كان الموقف البريطاني منها في الثلاثينيات من القرن الماضي مثالاً بارزاً «للانعزالية الإنجليزية» التقليدية.



احتفالاً منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية. وكتب عالم السياسة الألماني آرثور هاينريش:

كان معظم اللاعبين ألماناً تقليديين: خدموا بلدهم في الحرب، ونشأوا في المدن الكبيرة وفي بلدات الريف. وبعد المباراة، ساعد الأبطال العائدون في تحويل النقاش في ألمانيا من الحرب إلى كرة القدم.

وهكذا كان انقلاباً غير متوقع: وهو انقلاب كانت لها عواقبه التي تتجاوز عالم الرياضة بكثير، إذ كان إعلاناً لبداية ألمانيا جديدة، والتي استعادت الثقة بالنفس على المستوى القومي. ويلخص يواكيم فيست براعة الأهمية التاريخية للحدث بقوله: «كان الألمان يرونه نوعاً من التحرر من الأشياء كلها التي أرهقتهم بعد الحرب العالمية الثانية. فالرابع من يونيو عام ١٩٥٤ في بعض جوانبه يوم تأسيس الجمهورية الألمانية». لقد كان الانتصار الألماني الغربي في برن مجرد الانتصار الأول ضمن سلسلة طويلة من النجاحات في بطولات كأس العالم التي جرت في بقية القرن العشرين. حيث عكست الملاعب الخضراء بوضوح جديتهم وإتقانهم للقيادة وروح الفريق. وعليه فهم لم يخرجوا أبداً من أي بطولة قبل أن يكونوا قد وصلوا إلى دور الثمانية. فقد وصلوا إلى الدور قبل النهائي مرتين، وإلى المباراة النهائية خمس مرات، فازوا مرتين بالكأس العالمية، إحداهما في عام ١٩٩٠، عام التوحيد. ومواكبة لذلك، فقد استمر النمو الاقتصادي في الوقت ذاته، حين نقلت ألمانيا نفسها من حطام الدولة الحربية الفاشلة إلى أكبر اقتصاد في أوروبا. وبينما لم تكن معدلات النمو مثلما كانت عليه في خمسينيات القرن العشرين، فقد استمرت ألمانيا في رؤية ناتجها المحلي الإجمالي ينمو، وقاعدتها الصناعية تزدهر. وبحلول عام ١٩٩٠ احتل الاقتصاد الألماني الغربي المرتبة الأولى باعتباره الاقتصاد الأكبر في أوروبا، وثالث أكبر اقتصاد في العالم بعد الولايات المتحدة واليابان، وفي حين كانت هناك حاجة إلى معجزة ١٩٥٤ الكروية كي تبرز ألمانيا الغربية اقتصادياً وسياسياً وفي مجال الرياضة. إلا أنه بحلول عام ١٩٩٠ لم يكن هنالك ما هو متوقع غير النجاح.

## الحرب الباردة.. رياضياً

عند انتهاء الحرب العالمية الثانية كان الألمان يخشون العودة إلى نظام السوق الحرة الرأسمالية. وكان كثيرون يتذكرون أيام التضخم المفرط والكساد في أواخر عشرينيات القرن العشرين اللذين أديا إلى ظهور النازيين في الثلاثينيات. ولذلك انجذبت أعداد كبيرة إلى الاشتراكية والنظام الاقتصادي الذي ترعاه الدولة. وكان السوفييت بموجب ترتيبات ما بعد الحرب يسيطرون على ألمانيا الشرقية. ويطبقون فيها النظم الاقتصادية ذاتها التي تم تعميمها في بقية الدول الشرقية. إلا أنه وبحلول منتصف الخمسينيات، كانت ألمانيا الشرقية بها أعلى مستويات المعيشة بين دول الكتلة الشرقية. وبحلول الخمسينيات كذلك، كان بإمكان سكان ألمانيا الشرقية رؤية ما تفوقت عليهم فيه ألمانيا الغربية مما أدى إلى موجة الفرار إلى الغرب. وبقية القصة معروفة.. أقيم سور برلين ونشأت حرب دعاية واسعة النطاق بين الغرب والشرق بينما كانت ألمانيا في الوسط.

امتدت موجات حرب الدعاية إلى عالم الرياضة كذلك، إذ طوال سنوات عديدة كان مسئولو الرياضة الألمان الغربيون يصرون على الأيديولوجيا القائلة بأن الرياضة غير سياسية بطبيعتها، ولابد أن تتسم بالمشاركة الطوعية والهواية (عدم الاحتراف) والعدل والإنصاف، كما أنه مجال يجب أن يظل متحرراً من التأثير والتدخل السياسيين. وعلى العكس من ذلك، لم يسند المسئولون الألمان الشرقيون إلى الرياضة دوراً اجتماعياً منذ البداية فحسب، بل أسندوا إليها دوراً سياسياً كذلك. وأثناء الحرب الباردة والمواجهة بين النظامين، كان للرياضة دور مهم تقوم به، وبالأخص هدف القضاء على زعم ألمانيا الغربية بأنها الممثل الوحيد للأمة الألمانية. وفي الوقت نفسه، كان هنالك هدف دمج جمهورية ألمانيا الديمقراطية في الهيئات الدولية. بل إنه كان هناك أمل في أن السبيل إلى كسب الاعتراف الدولي يمكن الإعداد له على ملاعب الرياضة وأن الرياضة بصورة عامة قد تزيد من تأثير البلد على السياسة الرياضية وكذلك على السياسة العالمية. وحتى بعد أن أصبحت جمهورية ألمانيا الديمقراطية واحدة من الدول الرياضية البارزة في سبعينيات القرن العشرين، ظل الاعتراف السياسي في الخارج والرغبة في تمثيل النظام بشكل بارز وعرض تفوق الاشتراكية عوامل حاسمة في تعزيز الرياضة. وفي الداخل كذلك، كان المأمول هو أن تساعد الانتصارات الرياضية وشعبية أبطال البلاد في تدعيم ارتباط الناس بالنظام.

كانت لدى ألمانيا الشرقية أجهزة حكومية عديدة حاولت تعزيز الألعاب الرياضية في البلاد. وكان الأطفال الذين يبدون قدرات رياضية في الصغر يختارون لدخول المدارس الرياضية التابعة للدولة. وكان الأبطال الرياضيون الألمان الشرقيون، وخاصة النساء، يحققون نتائج جيدة جداً بشكل خاص في الألعاب الفردية كالجمباز والسباحة وألعاب القوى.

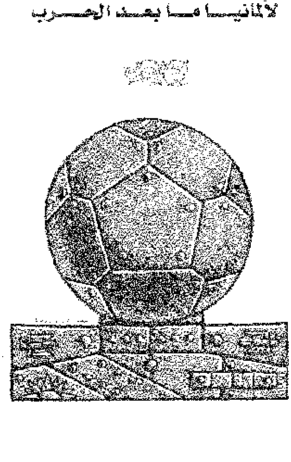
رغم تركيز ألمانيا الشرقية على الألعاب الرياضية باعتبارها أداة من أدوات الدعاية، ومع ما حققته من نجاح، فقد كان لافتاً أن فريقها لكرة القدم لم يتأهل لمسابقات كأس العالم غير مرة واحدة؛ وكان مثيراً ألا يحدث ذلك إلا في عام ١٩٧٤، أي في السنة التي استضافت فيها ألمانيا الغربية ذلك الحدث. وكان ذلك يشبه في صورة من صوره النظام السوفيتي ذاته؛ إذ كان بالإمكان رؤية النجاح في حالات كثيرة، غير أنه ثبت في النهاية أن سيطرة الدولة مسألة اصطناعية.

عندما أعلن عن مجموعات الدور الأول في البطولة عام ١٩٧٤، صُدم الألمان على جانبي السور (في ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية) بوضع الدولتين في المجموعة نفسها، مما يعني أن الفريقين سيلاعب كل منهما الآخر. ومرة أخرى تتدخل سياسة العالم في الحلبة الرياضية. ففي عام ١٩٧٤ شهد العالم أزمة طاقة بعد أن أوقف العرب تصدير النفط إلى الدول الغربية التي ساندت إسرائيل. مما تسبب في حدوث كساد وتضخم في أنحاء العالم. وفي ألمانيا الغربية، انكمش الناتج المحلي الإجمالي خلال عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥، بسبب تلك الأزمة على نحو مباشر. وكان طبيعياً ألا تتأثر ألمانيا الشرقية، شأنها شأن سائر دول الكتلة الشرقية، التي كانت مؤيدة تقليدياً للقضية الفلسطينية.

على هذه الخلفية، التقى الفريقان في ٢٢ يونيو في هامبورج. وكانت كلتا الدولتين مؤهلة للصعود إلى الدور التالي، ولكن هذا لم يمنع حماس المباراة الذي يثير كل جانب من جانبي الدولة المقسمة ضد الآخر. وبكل المقاييس، كانت المباراة أسوأ شكل من أشكال كرة القدم؛ وكانت بإجماع المعلقين الرياضيين «رتيبة فاترة». ومع ذلك كانت النتيجة مروعة. فقد أحرزت ألمانيا الشرقية هدفاً متأخراً لتحقق الفوز بهدف مقابل لا شيء وتهزم فريق ألمانيا الغربية الذي كان مرشحاً للفوز بالبطولة. وكان من الطبيعي أن يثير ذلك غضب الغرب المجنون بالكرة، حيث طالبت وسائل الإعلام بفصل المدرب وبإجراء تغييرات ضخمة في تشكيل الفريق. وعلى أية حال فالذي حصل نهاية المطاف أن خسر فريق ألمانيا الشرقية مباراتيه أمام هولندا والبرازيل، بينما وصلت ألمانيا الغربية إلى النهائيات، لتلتقي مع فريق هولندا؛ وهو فريق كان يلعب بأسلوب معروف في كرة القدم باسم «كرة القدم الشاملة»، وهو نوع من الفوضى على المسطح الأخضر يمكن فيه لكل لاعب أن يلعب في المكان الذي يحلو له من الملعب، وهو على العكس تماماً من الاستراتيجية الألمانية شديدة الصرامة. والتقى الفريقان في مباراة من أشهر مباريات كأس العالم على الإطلاق، ليخرج الألمان، بصرامة نظامهم، منتصرين بهدفين مقابل هدف واحد لهولندا.

كان الفريق الألماني راكداً في مبارياته الأولى بالبطولة، على النحو الذي كان يكافح به الاقتصاد في منتصف السبعينيات؛ ومع ذلك لم يغير الفريق التكتيكات تغييراً جذرياً. كأن يدخل أسلوب الإيقاع السريع الذي تلعب به هولندا مثلاً. بالضبط كما لم تلجأ الحكومة إلى مراقبة الأسعار أو تحديد إمدادات النفط أثناء

**ربما كان اليوم المطير**
**الذي أقيمت فيه نهائيات**
**كأس العالم لعام ١٩٥٤ في سويسرا،**
**هو يوم الميلاد الحقيقي**
**لألمانيا ما بعد الحرب**



أزمة الطاقة. وفي كلتا الحالتين كانت الغلبة لألمانيا الغربية، رغم بعض النكسات.

## وحـــدة مــكســرة

في التاسع من نوفمبر من عام ١٩٨٩ سقط سور برلين، مما أدى إلى زوال الستار الحديدي وإعادة توحيد الدولة التي ظلت مقسمة لأكثر من ٤٠ عاماً. وفي يوليو من عام ١٩٩٠ هزمت ألمانيا الأرجنتين في المباراة النهائية لتحقق بذلك ثالث فوز لها بكأس العالم. ومن الطبيعي أن نتوقع أن تستمر ألمانيا الموحدة في هيمنتها؛ حيث أضيف ١٦ مليون مواطن يمكن أن يختار من بينهم أفضل اللاعبين والرياضيين في مجتمع أولى الألعاب الرياضية اهتماماً كبيراً. وعبر أسطورة الكرة الألمانية فرانس بيكنباور عن هذا الأمل بثقة بعد رفع كأس العالم في عام ١٩٩٠ حين قال: «سوف يكون أمامنا اختيار أوسع للاعبين. فالواقع أننا رقم واحد في العالم! وفي المستقبل. ومعذرة لذلك، لن يستطيع أحد هزيمة ألمانيا في المستقبل».

قد يفترض المرء كذلك أن بلداً كان له ثالث أكبر اقتصاد في العالم وأكبر اقتصاد في أوروبا سوف يتجه إلى النمو بسرعة بمجرد أن يلحق الشرق المقهور بمستويات الغرب. والواقع أن الكثيرين في التيار العام كانوا يعرفون أن ألمانيا الموحدة ستزداد تطوراً كقوة اقتصادية، وربما أمكنها تحدي أمريكا في الهيمنة الاقتصادية الدولية.

ورغم أن ألمانيا الموحدة خسرت في النهائيات في بطولة كأس العالم السابقة التي أقيمت في كوريا الجنوبية في عام ٢٠٠٢، إلا أن فريقين من كبار فرقها، وهما بايرن ميونخ وبروسيا دورتموند، فازا ببطولة دوري أبطال أوروبا. ومن الناحية الاقتصادية مازالت ألمانيا هي الأكبر في أوروبا، فنفوذها يجعل لها تأثيراً على شئون الاتحاد الأوروبي، وحتى على المستوى الدولي، وهو ما اتضح في رأي ألمانيا القوي المعارض لشن أمريكا الحرب على العراق. ومع ذلك تواجه ألمانيا (الآن) مشاكل على الجبهة الاقتصادية كما في الملاعب الخضراء لكرة القدم. والأمر الذي يقلق الألمان أكثر من غيره هو حالة سوق العمل في بلدهم، حيث ارتفع معدل البطالة إلى ١٢ بالمائة، وهو أعلى معدل منذ الحرب العالمية الثانية. وفي كرة القدم، يعاني زعماء كرة القدم الألمان من الاضطراب نتيجة للفضيحة التي تشير إلى أن العديد من حكام ألمانيا تورطوا في تعديل نتائج المباريات، وأدخل الجدل اتحاد كرة القدم الألماني في حالة من التشوش والفوضى.

يمكن الآن ملاحظة انكماش ألمانيا الاقتصادي في قطاع أعمالها التجارية كذلك. فمن بين أكبر ألف شركة في العالم، ليس هناك سوى ٢٨ شركة ألمانية، كما أعلن العديد من الشركات الكبرى إفلاسه أو إجراء إعادة هيكلة مالية في السنوات الأخيرة. والواضح أن الانهيارات الألمانية في الأعمال التجارية بدت آثارها واضحة على كرة القدم كذلك. فمن بين أكبر ٢٠ نادياً في العالم هناك ناديان ألمانيان فقط، كما تعاني الكثير من الأندية الألمانية حالياً من الضائقة المالية، وبعضها على شفا الإفلاس.

## تحـديـات جـديـدة

قيل الكثير عن الطريقة التي يجب بها على ألمانيا وشركاتها وعمالها منافسة الدول الناشئة الواقعة إلى الشرق منها. فدول مثل بولندا وجمهورية التشيك ودول البلطيق قد نمت نمواً كبيراً منذ انتهاء الحرب الباردة، حيث تنخفض التكاليف في تلك الدول وتتمتع نقاباتها العمالية بنفوذ سياسي أقل. كما اكتسب الكثير من تلك الدول ثقلاً سياسياً في الفترات الأخيرة، حيث بات جزءاً من الاتحاد الأوروبي. وانعكست صراعات ألمانيا لمواجهة بيئة أوروبا التنافسية انعكاساً كبيراً على كرة القدم. ففي بطولة أوروبا لعام ٢٠٠٤، آخر بطولة دولية لكرة القدم التي أقيمت في البرتغال ووضعت فرق أوروبا الكبرى في مواجهة بعضها، بدأت ألمانيا باعتبارها المرشحة للفوز بالبطولة. وكانت أولى مباريات ألمانيا ضد المنافس التقليدي هولندا التي تعادلت معها. ولكن الكارثة وقعت في المباراتين التاليتين. إذ تعادلت ألمانيا في البداية مع لاتفيا التي لم يسبق لها إحراز تقدم في أية بطولة كبرى. ثم كانت المباراة الحاسمة، حيث خسرت ألمانيا بهدف مقابل هدفين لجمهورية التشيك. وكان فريقاً قوياً، ولكن ليس له ما لألمانيا من قدرات أو تاريخ.

وربما أمكن تفسير عدم نجاح ألمانيا إلى حد ما بناءً على تكوين فريقها. ففريقها الذي شارك في البطولة الأوروبية لعام ٢٠٠٤ كانت غالبية لاعبيه مطابقة لمظهر الألماني المقبول: ذلك الآري الطويل الأشقر. ولم يكن هناك سوى ثلاثة لاعبين وُلِدوا خارج البلاد: بولنديين وبرازيلي. كما لم يضم الفريق لاعبين ألمان أتراك. وكان ذلك معاكساً لما كانت عليه فرق أوروبا الدولية الكبرى الأخرى. فعلى سبيل المثال، كان فريق فرنسا يضم لاعبين عديدين من أصول باسكية وإفريقية وجزائرية؛ أشهرهم زين الدين زيدان. فقد كان والداه مهاجرين جزائريين فقيرين. كما أن العديد من لاعبي إنجلترا سود. ويميز هذا الاتجاه ألمانيا كذلك في بطولات الدوري الاحترافية. ففي الدوري الممتاز الإنجليزي والدوري الممتاز الإسباني، اللذين يعتبرهما معظم خبراء كرة القدم أكبر بطولتي دوري على مستوى العالم، هناك قوائم طويلة من أعضاء الفرق الذين أتوا فيما يبدو من كل قارة من قارات العالم. والواقع أن الكثيرين من اللاعبين في تلك البطولات من أمريكا الجنوبية أو إفريقيا. ولكن الدوري الألماني مازال يغلب الألمان على قوائم فرقه. ونسبياً يلعب عدد قليل من الأجانب في الدوري الممتاز الألماني؛ ويجد الكثير منهم صعوبة في التكيف مع المفهوم السائد من أن الأولوية دائماً للألمان. وعلى سبيل المثال، لم يحدث قط أن فاز أحد اللاعبين الأفارقة بلقب لاعب العام. والمدهش كذلك هو غياب الألمان الأتراك المقيمين في ألمانيا عن الدوري الممتاز الألماني، رغم جودتهم كلاعبي كرة قدم. إلا أن هذا يعكس الصعوبات التي يواجهها المهاجرون، وخاصة الأتراك، وهم أكبر جماعة من المهاجرين في البلاد، في التكيف مع الحياة في ألمانيا. إذ رغم عثور معظم المهاجرين الأتراك على مكان في المجتمع، فمازال الكثيرون منهم يعيشون حياة منعزلة، وتصل نسبة البطالة بينهم إلى ضعف المتوسط القومي. وتتزايد أعداد الأتراك الألمان الذين ينسحبون إلى «المجتمعات الموازية»؛ وهي مجتمعات لها محالها التجارية وإعلامها وترفيهها، وتربطها صلات قليلة بالمجتمع الألماني.

على الجبهة الاقتصادية عجز الألمان عن الارتقاء بالشطر الشرقي من البلاد إلى مستويات المعيشة الغربية. ويبدو أن الفرق بين الشرق والغرب أحدث كذلك أثراً ملحوظاً على ملعب كرة القدم. فالألمان الشرقيون يقبلون كأعضاء في الفريق القومي الألماني منذ فترة. وتجتذب فرق الأندية بالمدن الكبرى القائمة على أساس تجاري الرعاة المحتملين، وتسيطر على سوق انتقالات اللاعبين، وتحقق نجاحاً على أرض الملعب في ألمانيا الغربية. ولكن الواقع أن نادياً واحداً في الدوري الألماني الممتاز ينتمي إلى مدينة ألمانية شرقية، وقد هبط النادي في نهاية موسم ٢٠٠٤-٢٠٠٥. ويرى الألمان أنه لن يكون هناك مؤشر أقوى من ذلك على أن الفجوة بين الشرق سابقاً والغرب سابقاً مازالت تتسع. والسبب الأرجح لغياب الأندية الألمانية الشرقية عن الدوري الممتاز الألماني بسيط: فالأندية تأتي من مناطق مقهورة اقتصادياً، مما يجعل من الصعب عليها الحصول على الأموال المستخدمة لاجتذاب كبار اللاعبين الذين يمارسون حريتهم الكاملة (بعد أن طغت قوانين السوق الرأسمالية) في البحث عن فرق الدوري في أنحاء أوروبا من خلال شبكة الإنترنت أو سوق الوكالات الحرة.

ومع ذلك يظل هناك أمل بالنسبة لألمانيا وكرة القدم فيها. وكما يقول ألماني مغترب سابق، فإن مشاكل التوحيد تعزز الرؤى المتبادلة الخاصة بالفجوة الاجتماعية، حيث يستاء الغربيون من الشرقيين لعدم إنتاجيتهم، ويشعر الشرقيون بأن الغربيين يتعالون عليهم. ولكن هذه الفجوة يمكن سدها؛

ربما يكون هناك مجال واحد لم يحدث فيه التوحيد مشاكل، وهو الرياضة... فإذا فاز الفريق الألماني بكأس العالم، سوف تصبح ألمانيا أمة واحدة لفترة قصيرة.

**معجزة برن الألمانية ١٩٥٤**
**لا يعادلها غير انتصار فريق الهوكي الأمريكي على السوفييت عام ١٩٨٠، على خلفية من التضخم والركود الاقتصادي، وأزمة الرهائن في إيران**



# معارك بلا سلاح

تيم باركس

> إن أروع ما فى كرة القدم أنها الموقف الوحيد المتبقى الذى يجعلك تشعر حقا أن هناك عدوا، تستطيع أن تكرهه بلا تحفظ

إن مسابقة كأس العالم لكرة القدم التى تعقد كل أربع سنوات هى الآن أهم الأحداث الرياضية العالمية بعد الدورات الأوليمبية. وقد جاءت مسابقة هذا العام التى تستضيفها ألمانيا باثنتين وثلاثين دولة مرت كل منها بالفعل بعملية اختبار قاسية جدا. بل إن دولا مثل الولايات المتحدة، التى لا تعد فيها كرة القدم من بين أكثر الرياضات شعبية، بذلت جهدا هائلا كى تأتى وتلعب. لم يكن الحال هكذا دائما فى الماضى.

رغم أن الفضل الأكبر يرجع للإنجليز فى ابتكار لعبة كرة القدم الحديثة - فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر - ثم نشرها فى جميع أنحاء العالم، غير أنهم قرروا عدم المشاركة فى تأسيس أول اتحاد عالمى لكرة القدم (الفيفا FIFA) عام ١٩٠٤، كما لم يشاركوا فى مسابقات كأس العالم الثلاث الأولى التى نظمت فى الأعوام ١٩٣٠ و١٩٣٤ و١٩٣٨. وفى تاريخه الرسمى، يصف الاتحاد الإنجليزى لكرة القدم ذلك القرار الآن بأنه «مثال بارز للانعزالية البريطانية». وربما يكون من المفيد أكثر أن نعتبر ذلك الرفض دليلا على التوتر بين الآراء المتباينة بشأن دور رياضات الفرق فى المجتمع الحديث و - على مستوى أعمق - بين المواقف المتعارضة تجاه قضية المجتمع والهوية العامة.

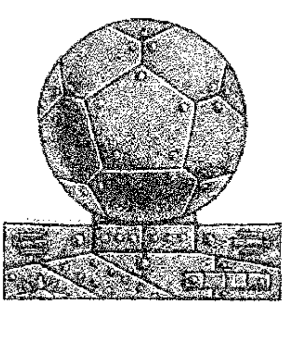
ورغم كل شىء، فقد نظم الإنجليز منذ وقت طويل أول مباراة «دولية» على الإطلاق بينهم وبين سكوتلاندا. وبحلول بداية القرن العشرين كانوا يلعبون بانتظام مع ويلز وأيرلندا أيضا. إن مثل تلك اللقاءات ضمن المملكة المتحدة كانت تؤججها - بالضرورة - المنافسات والأحقاد القديمة. لقد جرى الأدرينالين أنهارا. وقد حدث أنه بعد مرور مائة عام، أن من الضرورى إيقاف المباراة السنوية بين إنجلترا وسكوتلاندا بسبب عنف المشجعين. ولابد أن الاتحاد الإنجليزى لكرة القدم قد سأل نفسه عام ١٩٣٠ عن الجدوى من القيام برحلة عبر المحيط لمدة ثلاثة أسابيع إلى أورجواى للعب ضد فرق مثل البرازيل وتشكوسلوفاكيا.

إن التوجهات الانعزالية التى كانت تحرك الاتحاد الإنجليزى لكرة القدم فى النصف الأول من القرن العشرين - والتى نادرا ما ناقشتها وسائل الإعلام - ما تزال قائمة. ومن الدول الأخرى التى تحفل بتلك التوجهات الانعزالية إيطاليا، التى يبدو غالبا أن حسها الوطنى يعتمد على سلسلة من النزاعات الداخلية القديمة بين ما كان يطلق عليه فى السابق المدن/الدول، أكثر من الاعتماد على أى شعور بفرض نفسها على العالم من حولها. وفى هذا السياق فإن مثل هذه الدول تشبه تلك العائلات التى تشتهر دوما بانغماسها الشديد فى التنازع فيما بينها. وفى حديثه إلى الأمة فى بداية العام الجديد منذ بضع سنوات، تكلم الرئيس الإيطالى «كارلو أزيليو تشامبى Carlo Azeglio Ciampi» عن «إيطاليا أرض المائة مدينة التى تجمع ما بين حب مسقط رأسى وحب وطنى وحب أوروبا». وعلى موقع الإنترنت الخاص بفريق «هيلاس فيرونا Hellas Verona» لكرة القدم والذى يمثل المدينة الصغيرة التى أعيش فيها، أرسل أحد المشجعين رسالة بلغة كرة القدم تحوى قائمة بكل الفرق التى يكرهها بالضرورة أى مشجع لهيلاس، تقول الرسالة: «الوحدة الإيطالية - روما اللعين، وإنتر اللعين، ويوفنتوس اللعين، وميلان اللعين، ونابولى اللعين، وفيسنزا اللعين، وليسى اللعين، هل تحتاجون للمزيد؟».

إن إيطاليا، المرشحة دائما للحصول على كأس العالم، تبدو غالبا فاترة ومترددة تجاه فريقها القومى. وقد أخبرنى أكثر من مشجع فى مباراة كرة قدم محلية لعبت مؤخرا أنهم سوف يشجعون «ضد» الفريق القومى أثناء مباريات كأس العالم: «إن الفريق القومى يتكون من لاعبين من الأندية الكبرى مثل يوفنتوس وروما وإنترميلان. إننا لا نستطيع أن نكرههم طوال العام ثم نساندهم فى الصيف لمجرد أنهم يمثلون إيطاليا».

إن كلمة «كراهية» تتردد فى الأحاديث الخاصة المتعلقة بكرة القدم بطريقة تختلف تماما عما يحدث فى وسائل الإعلام التى تحفل بالمشاعر الطيبة بينما يقترب «عرس كرة القدم» الكبير. وفور الانتهاء من مقابلة لى مع الإذاعة الوطنية حول كتاب وضعته عن إيطاليا والمشجعين، خلع المذيع سماعات الرأس وعلق: «أتدرى، إن أروع ما فى كرة القدم أنها الموقف الوحيد المتبقى الذى يجعلك تشعر حقا أن هناك عدوا، شخصا ما تستطيع أن تكرهه بلا تحفظ. شخصا لا يتوجب عليك أن تتوصل إلى تسوية معه. فحتى مع الإرهابيين أنت تقلق بشأن إمكانية أن تكون مسئولا بطريقة غير مباشرة عن تطرفهم». سألته: «لماذا لم تقل ذلك على الهواء»، فضحك. كان سؤالى بالطبع سؤالا بلاغيا.

ولكن حتى فى كرة القدم فهناك أعداء وأعداء. وفى برنامج «كوستانزو شو Costanzo Show» الشهير، وهو البرنامج الحوارى الإيطالى الأول، أصر اللاعب المخضرم «كاوسيو Causio» أنه على الرغم من حقيقة أن الفريق الإيطالى لا يردد أبدا النشيد الوطنى عند عزفه فى بداية المباريات (بعض اللاعبين اعترفوا بالفعل أنهم لا يعرفون كلمات النشيد)، ورغم قلة حضور المشجعين فى الكثير من مباريات الفريق المحلية، غير



بترتيب مع:
New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحى

انه عندما يحين الوقت فإن الأمة يلتئم شملها. تلك هي الرواية الرسمية، وليس هناك من شك في حقيقة شعور الجمهور الذي لا يشجع كرة القدم بانتظام، ولذلك فمن غير المرجح أن يضع فريقه المحلي في المرتبة الأولى. ولكن أثناء استراحة الإعلانات، علق الممثل الجالس بجانبي على المسرح مع «كاوسيو» قبل إعادة البث على الهواء: «كلا، إن كرة القدم هي الكراهية. عندما يلعب روما مع لازيو (فريق محلي منافس) فأنا أكره فعلا كل من ينتمي للازيو. ولكن هل أستطيع الآن أن أكره غانا؟ أنا لا أشعر بشيء». كانت تلك الدولة الأفريقية الصغيرة هي الخصم الأول لإيطاليا أو الضحية الأولى المفترضة لها في المسابقات الحالية.

لقد بدأت كرة القدم بالضرورة على المستوى المحلي حيث استولت بخصوصية وعنف على عقول العامة كما تفعل الآن في أوروبا وأمريكا الجنوبية. وقد حدث ذلك تماما في الوقت الذي أصبح فيه من الصعب الحفاظ على الهويات المحلية، مع تسارع الثورة الصناعية وتطور الاتصالات. فعلى سبيل المثال، تم تشكيل فريق «هيلاس فيرونا» عام ١٩٠٣، ولكنه لم يتمكن من هزيمة أقرب جيرانه وأمقت منافسيه فيسنزا قبل عام ١٩١٢. وعندما كتب محرر الصحيفة المحلية لفيرونا عن رد فعل الجمهور عندما تم كسر النحس أخيرا، كان من الواضح أنه يشهد للمرة الاولى أسلوبا جديدا للتعبير عن الهوية الجماعية:

«فاز فيرونا! لا شيء نكتبه يمكن أن يعبر عن فرحتنا: إن كان ذلك ممكنا. ليس هنالك من إعلان نقوم به يمكن أن يعادل فصاحة صيحة الجمهور القوية الهادرة في كل مرة يسجل فيها هيلاس هدفا. ثم يبدأ الهتاف ببطء ليحل محله صخب شديد متزايد يتابع بقلق كل حركة متقنة في الملعب. فاز فيرونا. إنه انتصار طالما اشتاق له الجميع».

وقبل عقود قليلة من تلك اللحظة التاريخية، عرف «جيوفاني ماريا دي باردي Giovanni Maria de' Bardi» في كتابه «حديث حول لعبة كرة القدم في فلورنتين Discourse on the Game of Florentine Football» اللعبة بما يلي:

«كرة القدم لعبة شعبية يشارك فيها مجموعتان من الرجال الشباب، يلعبونها على الأقدام ومن دون سلاح، ويتنافسون بسرور لتحريك كرة منتفخة متوسطة الحجم من أحد طرفي الساحة إلى الطرف الآخر وذلك لتحقيق شرف الفوز».

وإذا ما كانت كلمة «هادرة» هي الأكثر إثارة للانتباه في الاقتباس الأول، فإن كلمة «من دون سلاح» هي الكلمة الحاسمة في الاقتباس الثاني. ففي ذلك اليوم من عام ١٩١٢ اكتشف الجمهور - الهادر ومن دون سلاح - في فيرونا وسيلة جديدة للتعبير عن عدائهم القديم تجاه أقرب جيرانهم، الذين لم يعد هناك بالطبع إمكانية للدخول في حرب معهم أو حتى فرض عقوبات تجارية عقيمة. وكان لأهالي فيرونا في ذلك اليوم اليد العليا للمرة الأولى. كان بإمكانهم الاستمتاع ومن دون سلاح على حساب جيرانهم، وكانوا قادرين على السخرية والمرح وممارسة القسوة ضمن إطار يسمح للجميع بالإفلات بدون أذى والاستمرار في حياتهم كما لو أن شيئا لم يحدث.

إن السخرية القاسية تشكل عنصرا رئيسيا في مباريات كرة القدم الإيطالية، وبالفعل فإن هذا النوع من الكرامة المحلية الحصينة - الحاد أحيانا وإن كان ساخرا حتى في أكثر حالات التعبير عنه تطرفا - هو نموذج للتشجيع السائد على المستوى المحلي في جميع أنحاء أوروبا. وفي مباراة حديثة كانت هناك لافتة تقول: «منذ العام ١٢٠٠، وفي كل مرة يذهب فيها أهل فيرونا إلى فيسنزا، ترتجف الأرض». وفي تناقض حاد، وعندما التقى الفريق الأيرلندي بفريق الكاميرون في ستاد نيجاتا باليابان في اليوم الثاني من مباريات كأس العالم الماضي، اضطر المعلق التليفزيوني إلى التعقيب على فتور حماس الجمهور القليل بالإستاد تجاه هذا الحدث الضخم المكثف. كيف بإمكانهم ذلك؟ ما هو النفع الممكن بالنسبة للجمهور الياباني المهذب الجالس بنظام أن تفوز أي من هاتين الدولتين؟ ليس لديهم نزاع مع أي منهما.

لو كان لنا أن نسأل عن أخطر المشاعر التي ظهرت في القرنين الماضيين، فإن إحدى الإجابات المحتملة هي الحنين إلى المجتمع والتوق - في عصر الميكنة والانتقائية - إلى نوع من الإحساس القوي بالهوية الجماعية، والذي يمكنك من تشبيك يديك مع الناس والغناء معهم، وأن تنصهر فرديتك الرائقة في حماقة الهياج الجماعي وتتوحد في قضية مشتركة والتي تتضمن بالطبع عدوا مشتركا.

إن الرغبة في تلاحم المجتمع بأي شكل كانت بلا شك عاملا هاما في ازدهار الاشتراكية والفاشية والشيوعية ومجموعة أخرى من الأصوليات الحديثة الخطيرة. ويمكن اعتبار تشجيع كرة القدم الذي تطور في نفس الفترة في أوروبا وأمريكا الجنوبية محاكاة ساخرة غير ضارة - نسبيا - لتلك الفظائع واسعة النطاق، كما أنها تمنح الشعور بالرضا للانتماء لمجتمع حصين، بل إن أعمال الشغب العرضية بعد المباريات ربما كانت بديلا عن أخطار الحروب الحقيقية. لقد أصبح الاستاد والمباراة هما المسرح الذي تستطيع فيه جماعتان متعارضتان - ربما تمتزجان بسلاسة في أوقات أخرى - التمتع بإثارة العصبية القبلية في ظهيرة أحد أيام الأسبوع وتحت ظروف قيد السيطرة بعناية. إن المشجعين المتطرفين للفريقين المتنافسين يحتلون طرفي الاستاد ويولدون طاقة عاصفة من الأناشيد والحركات العدائية التي تكهرب الجو.

أما في أرض الملعب فإن المهارة الخارقة للاعبين ومكرهم وسرعتهم والأنماط المختلفة لحركاتهم السريعة والتوتر بينما المرء ينتظر وينتظر في قلق بالغ ذلك الهدف الذي لا يأتي أبدا، كل ذلك يخلق سحرا جماعيا يزيد من التحفظ والفتور بين الخصمين، مع تحديد وتيرة الإهانات والفصل بين مشجعي الفريقين. وفي النهاية، ومع كفاءة قوات حفظ الأمن وعدم وقوع أحداث ملتهبة أثناء المباراة، ربما يمكننا جميعا العودة إلى منازلنا بعد إلقاء بضعة أحجار فقط.

كتب الفيلسوف الروماني «إميل سيوران Emil Cioran»: «إن الانتقال الحضاري من اللكمات إلى الإهانات كان ضروريا بلا شك، ولكن الثمن كان غاليا. إن الكلمات لن تكون أبدا كافية. سنشعر دائما بالحنين إلى العنف والدماء». لقد خطر لي دائما أن كرة القدم توفر حلا وسطا غامضا بين الكلمات واللكمات. إن المباراة تكون في أفجع أحوالها عندما تتأرجح دائما على حافة العنف دون أن تقع فيه تماما، وأحيانا - بالطبع - تسوء الأمور.

ولكن مشهد مشجعي الفريقين المتنافسين يوجهون الإهانات لبعضهم البعض - سواء كان ذلك حميدا أم لا - ليس بالتأكيد موضع ترحيب في كأس العالم، فلا شيء يرعب منظمي أكبر الأحداث الرياضية أكثر من تلك المشاعر الشائعة في المباريات المحلية التي تلعب أسبوعيا في

## في عصر الميكنة والانتقائية، هناك حنين إلى المجتمع وإلى الإحساس بالهوية الجماعية



معظم الدول المشاركة. وبجانب الحنين للوطن الذي تطور في القرن التاسع عشر، فإن المجتمع المحلي شديد التلاحم يفرز نموذجا مغايرا للأخوة الإنسانية العالمية، في عالم لن يعبر فيه أي شخص عن كراهيته للغير. في بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر، بينما كانت أندية كرة القدم تتشكل في المدن الصناعية في كافة أنحاء أوروبا. وبعد قراءته «أيام دراسة توم براون Tom Brown's Schooldays» (رواية لتوماس هيوز Thomas Hughes نشرت عام ١٨٥٧)، واقتناعه بأن المفاهيم الإنجليزية للرياضة النبيلة كانت من بين أرقى تعبيرات النفس البشرية، قرر «بيير كوبرتين Pierre Coubertin» (عالم ومؤرخ فرنسي ومؤسس الألعاب الأولمبية الحديثة: ١٨٦٣-١٩٣٧) أن أفضل ما يخدم الجنس البشري هو احتفال رياضي يتم فيه التعبير عن الهوية القومية في شكل مهرجانات وفنون شعبية وبسالة رياضية، مع نسيان كافة العداءات السياسية. وفي عام ١٨٩٦ عقدت أولى الدورات الأولمبية في العصر الحديث. وقد أدرجت كرة القدم بصورة غير رسمية عام ١٩٠٠ ثم بصورة رسمية عام ١٩٠٨. ولمدة طويلة كانت هي الرياضة الأولمبية التي تجتذب عددا من المتفرجين أكبر كثيرا من أية رياضة أخرى.

كان لـ «كوبرتين» أعداؤه، ومن أهمهم القومي ومناصر الملكية «تشارلز موراس Charles Maurras» (شاعر وناقد فرنسي ١٨٦٨-١٩٥٢) الذي كان معاديا للمباريات مخافة أن تؤدي - كما يعتقد - إلى العالمية (Cosmopolitanism). ولكن بعد حضوره للألعاب الأولمبية في أثينا ومشاهدته لسلوك الجماهير والرياضيين، بدر إلى ذهن «موراس» أن مثل تلك المهرجانات الدولية يمكن أن يكون لها في الواقع تأثير معاكس. وقد كتب لاحقا: عندما يتم تجميع أجناس مختلفة ودفعها إلى التفاعل فيما بينها، فإنها تتناحر فيما بينها وتتنافر حتى بينما يعتقدون أنهم يمتزجون. باختصار قد يصبح المسرح العالمي هو المجال للتعبير عن أسوأ صور القومية وليس الأخوة العالمية.

إن تحول «موراس» يطرح سؤالا: ماذا يحدث عندما ينتقل فريق رياضي من المستوى المحلي إلى المستوى القومي، وخاصة في رياضة بدنية عنيفة مثل كرة القدم القادرة على إثارة أعنف المشاعر الجماعية؟ ماذا يحدث عندما تجد الجماهير الغفيرة - ومن بينها الكثير ممن ليسوا مشجعين منتظمين للعبة وليسوا بالتالي على إطلاع واسع بها وبالمشاعر التي تولدها - نفسها وسط معمعة الفوز والخسارة كدولة ضد دولة؟ إن فريق كرة القدم يمثل الأمة - أمة في حرب فعلية - بأسلوب لا يستطيع الرياضي المنفرد أن يحققه. قبل المباراة الحاسمة بين إنجلترا والأرجنتين - عدوها القديم - في كأس العالم الماضي، أعلنت جماعة «السامريون اللندنيون London Samaritans» (جمعية خيرية من بين أنشطتها تلقي الاتصالات من الراغبين في الانتحار وتقدم النصح لهم) أنها مهيأة تماما للتعامل مع البؤس الناتج في حالة خسارة إنجلترا. وبعد فوز اليابان على روسيا - عدو قديم أيضا - رقص أهالي طوكيو في الشوارع، بينما وقعت أعمال شغب خطيرة وسقط قتيل واحد في قلب موسكو حيث أقيمت شاشات عملاقة لعرض المباريات. إن جهاز التليفزيون في المنزل آمن بما يكفي، وفي الاستاد هناك حواجز وقوات شرطة. ولكن حشدا في ميدان عام يشاهد أمته تخسر أمام عدو قديم ولا شيء يحول بينه وبين - على سبيل المثال - مطعم ياباني (أصيب واحد بأضرار جسيمة في موسكو جراء أعمال التخريب) هو بالفعل أمر خطير. إن تلك المباريات تذكرنا بأن العولمة لم تفعل شيئا كي تهذب من المشاعر القومية. وربما كان العكس هو الصحيح.

لقد وصل التوتر بين الرؤى المختلفة للرياضة الدولية - المجتمع الحصين من جهة، والأخوة الإنسانية من جهة أخرى - إلى ذروته في دورة الألعاب الأولمبية ببرلين عام ١٩٣٦. وقد أنشد الجمهور في حفل الافتتاح «ألمانيا فوق الجميع»، ثم أذيعت رسالة مسجلة لـ «كوبرتين» الذي كان يقترب من سن الثمانين في ذلك الوقت، تذكر الجميع بأن «الفوز ليس أهم شيء في الحياة». وقد أعلن الجنرال «باكارو Bacaro» في خطاب افتتاح كأس العالم بروما بعد ذلك بعامين أن الهدف الأساسي للمباريات هو «إثبات أن الرياضة الفاشية تشارك بمستوى رائع للنموذج النابع من إلهام واحد فريد: الدوتشي».

**لقد أصبح الاستاد والمباراة هما المسرح الذى تستطيع فيه جماعتان متعارضتان التمتع بإثارة العصبية القبلية**



ومهما كان يعني - أو لا يعني - ذلك، فالحقيقة أن منافسات كأس العالم التالية لم تعقد ثانية قبل عام ١٩٥٠ في البرازيل بعيدا عن أوروبا التي كانت ما تزال منهكة.

لقد تطور كأس العالم كفرع للألعاب الأولمبية مرددا نفس الفلسفة العالمية المثالية. ولكن قرار إقامة مسابقة منفصلة عن الأولمبياد جاء أساسا نتيجة لخديعة. من المفترض أن فرق كرة القدم الأولمبية هي من الهواة، ولكن من الواضح أن كثيرا من اللاعبين كانوا محترفين. إن إنجلترا التي قبلت بالمشاركة وفازت عامي ١٩٠٨ و١٩١٢، انسحبت عام ١٩٢٠ بسبب تلك القضية. وقد فازت أورجواي عامي ١٩٢٤ و١٩٢٨ بفرق محترفة فعليا. وعندئذ كان رد الفعل الوحيد الممكن للكرامة المجروحة للمتنافسين الآخرين هو الاعتراف بالأمر الواقع ومطالبة الفيفا بإقامة مسابقة للمحترفين. وبذلك فإن الظروف التي نشأ فيها كأس العالم ناقضت المبادئ التي تدعي المسابقة أنها تتمسك بها.

إن انتشار التليفزيون هو الذي حول ميزان القوى - أكثر من أي شيء آخر - لصالح عالمية «كوبرتين»، أي رؤية مهرجانية ثرية للرياضة. ففي خلال سنوات قليلة، أضحت الشبكات التليفزيونية - وليس مشتري التذاكر من المشجعين - هي الممول الرئيسي لكرة القدم. وبازدياد خبرة اللعبة بعيدا عن الاستاد، فإنها تفقد وظائفها المحلية لبناء المجتمع، وتضيع إمكانية التنفيس الجماعي. وعند تلك النقطة فإن السلوكيات الشاذة للمشجعين المتطرفين تصبح مثيرة للقلق. وهم يبدون مثل حشود الثلاثينيات الراقصة المتطرفة بصورة مزعجة. ويجب الآن القضاء تماما على كل ما يهدد الرؤية الإيجابية للعالم ويمكن أن يصل إلى العائلات بالمنازل حيث يجلس الأطفال والجدات حول التليفزيون. يبدو أن مسابقة كأس العالم السابقة التي نظمت في آسيا هي أول حدث رياضي يخلو من الشغب كوضع طبيعي. فكل من طوكيو وسيول تقعان على مسافة آمنة من موسكو ومانشستر وبرلين وبيونس أيرس. ولا يلتقي المشجعون المتنافسون مع بعضهم البعض بأعداد تذكر. كيف كانت ستكون بهجة «كوبرتين» تجاه مراسم الاحتفال المسرفة مع كل ألوان الأبهة الآسيوية

والوجوه الساحرة للراقصات الكوريات الأنيقات.

ومع ذلك، ورغم ترويض الجماهير المشاكسة، على الأقل داخل الاستاد وحوله، ومع حرية كاميرات التليفزيون في التركيز بالكامل على مجريات اللعب، فماذا نرى في أرض الملعب؟ ليس لدى علم بأى لعبة أخرى يتوطن فيها الغش ويتغاضى عنه مثل كرة القدم، حيث الكذب وسوء النية هو القاعدة السائدة في العادة. ويتم الاعتراض على كل قرار حتى عندما يكون ما وقع واضحا كالشمس. ويصر اللاعب أنه لم يركل الكرة خارج حدود الملعب بينما الجميع شاهده يفعل ذلك. ويحتج لاعب اخر بأن الكرة عبرت الخط بينما رأى الجميع أنها لم تعبر. ويقوم مدافع تجاوزه أحد المهاجمين بسرعته القصوى بإمساكه من قميصه وإيقافه ثم ينكر فورا أنه فعل ذلك. ويقوم مهاجم عاجز عن تجاوز المدافع بالاصطدام به والسقوط مدعيا أنه تم دفعه.

بعد دقائق قليلة من بداية مباراة الدنمارك والسنغال في كأس العالم الماضية، تبادل اللاعبون اللكمات، وأثناء مباراة تركيا والبرازيل وبينما اللعب متوقف مؤقتا، قام لاعب تركي غاضب بركل الكرة في البرازيلي ريفالدو الذي تم اختياره كأفضل لاعب في العالم عام ١٩٩٩. وبعد أن اصطدمت الكرة بركبته، سقط ريفالدو على الأرض متظاهرا بتلقى ضربة عنيفة في وجهه. وقام حكم المباراة بطرد اللاعب التركي وحرمانه من المباراة. وفي مقابلة لاحقة، ادعى ريفالدو أن ذلك جزء طبيعي من كرة القدم. وقام المنظمون الذين وعدوا بالتصدي بقوة لأى سلوك مخادع، بتغريم ريفالدو سبعة الاف دولار، وهو مبلغ ربما يمثل أجر يوم واحد لنجم كرة القدم، ولكنهم لم يوقفوه عن اللعب ولو لمباراة واحدة. فمن الأمور الحاسمة لعائدات التليفزيون أن تحقق البرازيل تقدما في المسابقة.

ومما يلفت النظر في كرة القدم أنها بينما تثير في جانب المشجعين مشاعر تشبه إلى حد كبير ما يربطهم بالأصولية الدينية والمثالية السياسية. فعلى المرء ألا ينسى ابدا أنها بالنسبة للمنظمين مجرد تجارة. وقلائل فقط هم الذين يعتقدون أن قرارات الحكام لا تحابي أحيانا الفرق الغنية. وقد وجهت اتهامات بفساد واسع النطاق إلى الفيفا ورئيسه «سيد بلاتر Sed Blatter» على وجه الخصوص. وعندما تم إلغاء هدفين إيطاليين يبدوان صحيحين أثناء المباراة ضد كرواتيا، بدأ كثير من الإيطاليين فورا في التساؤل عما إذا كانت هناك مؤامرة ضدهم. وبعد إقصاء إيطاليا لاحقا على يد كوريا الجنوبية بعد إلغاء هدف إيطالي آخر، لمح بعض كبار الكتاب الرياضيين الإيطاليين وبعض الساسة إلى أن حكم المباراة كان يتلقى تعليماته من الفيفا.

وبعد أبهة ومثالية مراسم الافتتاح، ماذا كان يمكن أن يكون أكثر وضوحا من ذلك المشهد وما يحيط به من شكوك؟ أو ماذا كان يمكن أن يؤجج المشاعر أكثر من ذلك؟ رغم نجاحه المؤكد على ما يبدو، فإن الإطار العام للأخوة الإنسانية يتضمن أيضا سلوكا مشينا من جانب اللاعبين، وارتياب واستياء وتلذذ بمعاناة الآخرين من جانب المشجعين. ومن المفارقة أنه بدلا من أن تؤدى الأحداث المؤسفة والمشاعر السلبية إلى إضعاف اهتمام الناس بكرة القدم، فإنها بالتحديد هي ما يؤدى إلى زيادة ذلك الاهتمام القوى. لقد تمثلت عبقرية الفيفا - بمفهوم العلاقات العامة على الأقل - في تسويق حدث إيجابي خال من العنف ظاهريا، بينما تنقل شاشات التليفزيون المشاعر المتطرفة والشغب العرضي في الشوارع بعيدا على مسافة الاف والاف الأميال.

وفي النهاية، فإن كرة القدم تكون أكثر عقلانية ومتعة في الاستاد ومع هياج الجمهور المحلى، عندما يقف المجتمع هناك وراء فريقه مستعدا للفرح أو المعاناة. وبعد فوز إيطاليا المستحق على الإكوادور في كأس العالم الماضية والذى شاهده الجميع على التليفزيون، كتب أحد المشجعين على موقع فريقه المفضل على الإنترنت:

«فازت إيطاليا بجدارة، ولكن البهجة التى أشعر بها عندما أجلس فى المدرجات وأشاهد فريق فيرونا يلعب، شيء لا يستطيع الفريق القومى أن يمنحه لى حتى لو فاز بكأس العالم. إنها مسابقة يكون فيها للنفاق والولاء اليد العليا. إلى الأمام يا هيلاس!

بالطبع فإن اسم ذلك الفريق المحلى «هيلاس» اقترحه معلم المدرسة على الشباب الذين أنشأوا الفريق قبل مائة عام، وهو الكلمة الإغريقية المرادفة لاسم اليونان. ■

# كتـــاب الــزاويـــة

## من أدب الفرس والترك

### حسين مجيب المصرى

يعد رائد الأدب الإسلامى المقارن فى العالم العربى الراحل الدكتور حسين مجيب المصرى، أحد أهم من تناولوا بالدراسة تاريخ الأدب وتطوره فى إيران وتركيا. وقد كان من أوائل من تنبهوا وعمل على تقديم هذا الأدب إلى القارئ العربى. وهذا الكتاب الذى أصدره المؤلف للمرة الأولى عام ١٩٥٠ اعتمد فيه على مراجع لا تحصى بلغات شرقية عديدة وعقد المقارنات والموازنات بين الأدبين التركى والإيرانى (الفارسى). الأمر الذى اقتضى منه الخوض فى مختلف التيارات الروحية والأدبية والاجتماعية فى إطار تاريخى يجمع شتاتها ويشكل منها نسقًا معرفيًا جديدًا وفريدًا.

ويقول المؤلف فى مقدمته: هذا كتاب ينطوى على فصول قصار تنتظم صدرًا صالحًا من ادب الفرس والترك، وتجلو صورًا من تاريخهم على نحو آمل أن يشوق ويروق. ويجعل المطالعة فى مرغوب كل مطالع يود آن يستفيد ما ليس عنده ويتعلم ما لم يعلم. وقد حرصت الحرص الشديد على آن يكون خطابى فى هذه الصفحات إلى العالم المتخصص والمطلع المتأدب سواء بسواء، فأرضيت الأول ما وسعنى أن أرضيه بمادة درستها حق دراستها، وطلبتها فيما تحصل لدى من مصادرها. كما تحببت إلى الثانى بعرضها عليه فى صورة تدفع الملالة عن نفسه وتثير شوقه إلى المزيد مما يفيد.

وقد أعادت الدار الثقافية للنشر بالقاهرة، نشر هذا الكتاب عام ١٩٩٩. وقد اختارت «وجهات نظر» مقتطفات منه لتقديمها.

# مـــــا الـــــــذى

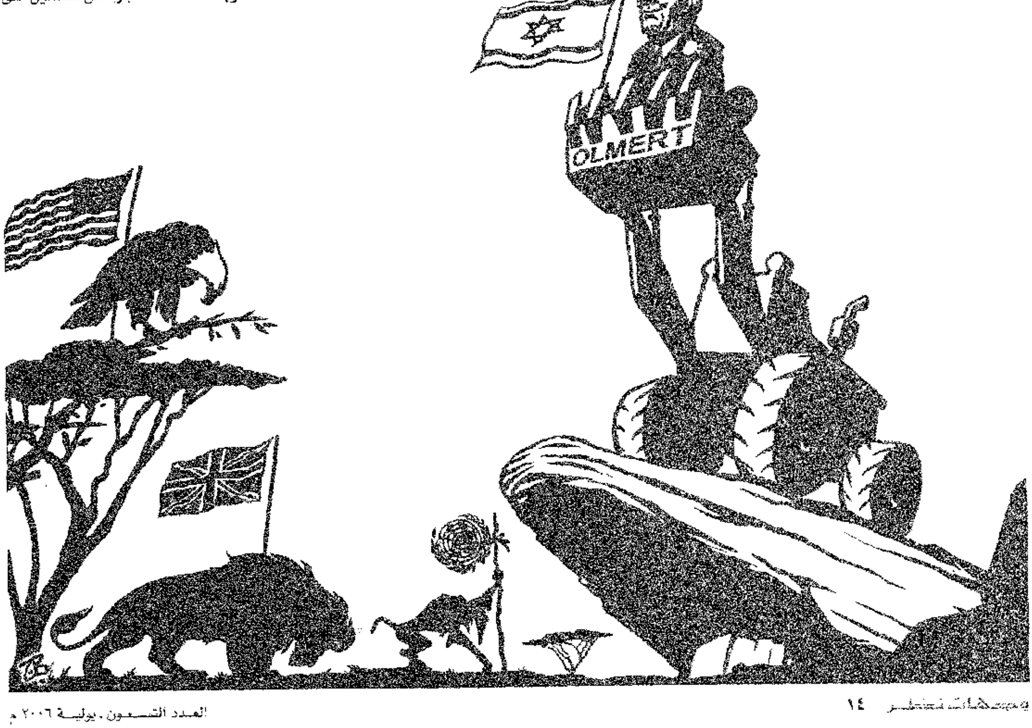
## «جـــدار.. وبــؤر استيطانية وأفرقة عنصرية»

[ ١ ]

﴿﴿ بعد أسابيع من المساومة مع الأحزاب الصغيرة، التى لكل منها مصالحه الخاصة، شكّل أخيراً إيهود أولمرت زعيم حزب كاديما الجديد حكومة إسرائيلية جديدة. وقد خيمت على الحملة الانتخابية ظلال شبح رئيس الوزراء الإسرائيلى أرييل شارون الراقد فى غيبوبة للشهر الثالث بعد إصابته البالغة بسكتة دماغية ونزيف فى المخ، وإن كان لا يزال رسمياً فى منصبه. وتعهد الحمائم والصقور بولائهم الذى لا ينتهى له الميراث الخاص به. أياً ما كان ذلك التراث. فقد كان شارون رجلاً أهوج مثيراً للجدل، ومتناقضاً إلى أقصى حد، ربما كحال الكثير من الرجال المثيرين للاهتمام؛ أما الأغبياء والكسالى فهم فقط الذين تتسم شخصياتهم بالبساطة. وهو لم يكن رجل سلام، كما أسماه الرئيس بوش ذات مرة. بل إنه يعرّف نخمة لا تتماشى مع عصره. ففى عصر القضاء على الاستعمار، وبعد نصف قرن من الحرب الفرنسية الجزائرية، كان مسئولاً على نحو رئيسى عن «مشروع الاستيطان» الضخم فى الأراضى المحتلة. وهو ما يسمى فى كثير من الأحيان بالخطأ التاريخى الكبير لحرب ١٩٦٧. فما زالت المناطق المحتلة تفسد الحياة الإسرائيلية كأنها مرض هائل رهيب. وتبدو أيامها معدودة. وقد كتبت ريبيكا ويست: «إننى أكره جثث الإمبراطوريات. فهى تُنتن نتناً شديدة بحيث لا يمكننى تصديق حتى أنها كانت تتمتع بالصحة والعافية وهى حية.»[٢]

كانت إمبراطورية صغيرة لا شأن لها، حتى قبل أن يصيب السكان الملل. فقد اختار المستعمرون الآخرون النخب المحلية، وتزاوجوا معها، وبنوا الجامعات وشبكات المياه الكبيرة والمرافق العامة الأخرى للمستعمرين؛ أما إسرائيل فقد فعلت القليل من هذا النوع. وكانت التحصينات كلها تقريباً التى طرأت على المناطق منذ عام ١٩٦٧ بتمويل من السعوديين ودول الخليج. ففى عام ٢٠٠١ لم تكن هناك إشارة مرور واحدة فى المناطق المحتلة. وكانت سوقاً حكراً ومصدراً للعمالة الرخيصة؛ وكان لذلك آثاره العكسية فى النهاية، حيث إنه أخّر تحديث التشييد وغيره من الصناعات. ويظل مشروع الاستيطان عقبة رئيسية. بل يقول البعض إنه العقبة الرئيسية. فى سبيل التوصل إلى تسوية تاريخية لإنهاء الحرب التى امتدت مائة عام بين حركتين قوميتين على قطعة الأرض نفسها.

ويصف جيرشوم جورينبرج ببراعة كيفية ظهور تلك الإمبراطورية المصغرة إلى الوجود بعد حرب ١٩٦٧ القصيرة فى كتابه الرائع The Accidental Empire الذى اعتمد على أبحاث أصلية. فالإمبراطورية لم تتأسس فى نوبة من نوبات شرود الذهن، كما قيل (خطأً) فى يوم من الأيام عن الإمبراطورية البريطانية؛ بل كانت نتيجة لقرارات متعمدة لحكومات اليسار واليمين الإسرائيلية، كما يوضح توثيق جورينبرج. فهو يبين فى هذا الكتاب، الذى كان يمكن أن يصبح فصلاً إضافياً معبراً فى كتاب باربرا تكمان The March of Folly، كيف كان هناك بالفعل ثمانمائة مستوطن يعيشون فى الضفة الغربية بعد حرب عام ١٩٦٧ بسبعة أشهر فحسب. فقد كان الدافع المتسلط على تفكير الحكومات الإسرائيلية كافة بعد عام ١٩٦٧ لإقامة «وقائع على الأرض» (الترجمة العبرية لـ faits accomplis) هو كذلك رد فعل انعكاسى أعمى تقريباً ولّدته تجربة الماضى؛ أى ممارسة آباء إسرائيل المؤسسين لإضافة «دونم بعد الآخر» وذكرى قرار التقسيم الذى أصدرته الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٧ التى خصص لإسرائيل على وجه الدقة تلك الأجزاء من فلسطين التى



# إيهود أولمرت؟

## أمـــــوس إيلـــــون

كان يعيش بها يهود كثيرون بالفعل. وبعد حرب عام ١٩٤٨، التي هجر أثناءها حوالي ٦٠٠ ألف فلسطيني البلاد أو طردوا منها، اعترفت معظم الدول بإسرائيل داخل ٧٨ بالمائة من فلسطين فترة الانتداب، وهي منطقة أكبر بكثير مما خصص لها في قرار التقسيم الأصلي.

كما يقول جورينبرج، فقد روجت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة من اليمين ومن اليسار لمشروع الاستيطان، متجاهلة الاحتجاجات الصادرة في أوقات مختلفة عن أقلية من أعضاء مجلس الوزراء وحفنة من المعارضين خارج الحكومة في الأكاديمية والصحافة. وكان المقصود من المشروع في البداية تزويد إسرائيل بحدود آمنة، كما جاء في قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الذي جرت الموافقة عليه بعد حرب عام ١٩٦٧. ولكن سرعان ما أصبح وقف ذلك المشروع غير ممكن. وكانت النتيجة، كما يقول جورينبرج، شيئا لا يقل عن «بوسنة خلقت خلقًا اصطناعيا». وكان أول المروجين له العلمانيون شمعون بيريس، وموشي ديان، وإيجال آلون، الذين قيل عنهم إنهم بعد إعلان موت الإله الأب تزوجوا الوطن الأم، وأطلق على المستعمرات الأولى باستحياء «مخافر أمامية». وسأل ريموند آرون، الذي كان يزور إسرائيل في ذلك الوقت، رئيس الوزراء ليفي أشكول عما إذا كان أمر تمرد العرب كما حدث في الجزائر لا يشغله. ويورد جورينبرج رد أشكول، وهو «لا. فهذه ليست الجزائر. ويمكننا خنق الإرهاب في المناطق المحتلة».

بعد أشكول، روج رؤساء الوزراء الآخرون، ومنهم جولدا مائير وإسحاق رابين، لمشروع الاستيطان؛ إلا أنه لم يكن بينهم من هو أكثر التزامًا وفاعلية على نحو لا يعرف الرحمة مثل شارون، الذي شغل على التوالي مناصب وزير الإسكان، ووزير البنية التحتية (كالطرق)، ووزير الدفاع، وأخيرًا رئيس الوزراء. ومع أن شارون ادعى ذات مرة أنه يحتفظ بكتاب اليستير هورن عن الجزائر The Savage War of Peace على الكومودينو المجاور لسريره، فلابد أنه أساء فهمه بشكل مفجع. فلا يمكن أن يكون هذا الكتاب قد دله على ما يفعله، بل من الممكن أن يكون قد دله على ما لا يفعله. وكان شارون يسمى «البلدوزر الكبير» الذي قمر المستوطنات ووسعها إلى حد بعيد، غير عابئ بالنتائج الإنسانية والسياسية. ومن المفارقة أن تصرعه سكتة دماغية في اللحظة نفسها التي حاول فيها متأخرا جدا، وربما بعد فوات الأوان، أن يفكك، ولو جزئيًا، ما كان قد صنعه في أيام شبابه، وذلك في خضوع منه لموجات الإرهاب.

(«وجهات نظر»: التزامًا بأمانة الترجمة تترك المجلة المصطلحات الواردة بالنص الأصلي كما هي، بغض النظر عن اختلافها مع ما يذهب إليه الكاتب من وصم العمليات الفدائية الفلسطينية بالإرهاب).

وفي الوقت نفسه مازال الإرهاب مستمرًا. فطبقًا لما ذكرته مصادر الجيش الإسرائيلي، جرى اعتراض حوالي سبعين تفجيريًا انتحاريًا حتى الآن خلال العام الحالي، وإن كان أحدهم قد نجح في الوصول إلى هدفه وفجر نفسه في مطعم مزدحم بتل أبيب، وهو لن يكون الأخير. فالجحيم هو الحقيقة التي ترى بعد فوات الأوان، كما قال هوبز. وكان شارون تكتيكيًا رائعًا، ولكنه كان إستراتيجيًا غاية في السوء. فقد شن شارون حربًا مشئومة في لبنان كان يأمل بها القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية هناك كما قضي عليها في الأردن. وأذكر مقابلته لأول مرة بعد حرب عام ١٩٦٧ بوقت قصير مع محرري صحيفة «هاآرتس». كان لا يزال جنرالاً في الجيش في ذلك الوقت، وكان يحظى بإعجاب كبير في حرب سميت بحرب الأيام الستة تيمنًا بأيام الخلق الستة. وحاول شارون إقناع المحررين بأنه لابد لإسرائيل أن تضم المناطق التي استولت عليها؛ وهي شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية ومرتفعات الجولان. وقال إنه إذا كان الفلسطينيون يريدون دولة، فيمكنهم الإطاحة بالملك حسين. فالأردن هو ما ينبغي أن يكون «الدولة الفلسطينية»؛ ذلك أن مئات الآلاف من الفلسطينيين كانوا يعيشون بالفعل هناك على أية حال. وقد أقنع بذلك عددًا قليلاً من الحاضرين، وبما أنه كان في الأربعين من عمره في ذلك الوقت، فقد كان لا يزال أنيقًا ومتورد الوجه وشعره أشقر كث. وهز محرر عجوز خلفي. وكان من أصل ألماني وشهد سقوط جمهورية فايمار، رأسه وقال مخففًا بالألمانية: Ein Kriegsgott! (إله حرب تيوتوني).

[ ٢ ]

لم تكن الحملة الانتخابية الأخيرة زاخرة بالأحداث، بل وكانت مملة. حيث قلت فيها الدراما ولم تكن هناك مناظرات تليفزيونية. وكان الناخبون يعرفون أن أولمرت ليس شارون، إلا أنهم لم يكونوا يعرفون عنه ما يزيد كثيرًا عن ذلك. وفي بلد يصوت فيه حوالي ٨٠ بالمائة، وصل الامتناع عن التصويت إلى أعلى نسبة له في أي وقت، حيث بلغ ٤٠ بالمائة تقريبا؛ وكان يظن أن الممتنعين عن التصويت هم في الغالب من الشباب الذي مل الفراغ، وفساد الساسة الذي تكرر مرارًا في السنوات الأخيرة، والعيوب شديدة الوضوح في النظام الانتخابي النسبي الإسرائيلي. وطبقًا لاستطلاع رأي الناخبين بعد خروجهم من مقار الاقتراع، فقد صوت عدد غير قليل من الشباب، ربما من باب المزاح، للثمانينيين في حزب «المتقاعدين» بقيادة كبير الجواسيس الذي كان مسئولاً عن جوناثان بولارد. وبذلك فاز الحزب بسبعة مقاعد في الكنيست وأصبح كبير الجواسيس السابق عضوًا في مجلس الوزراء. وقد خيبت نتائج الانتخابات آمال الأحزاب جميعها، ماعدا «حزب المتقاعدين». ذلك أنها جميعًا هزمت بطريقة أو بأخرى. كما أن حزب أولمرت «الوسطي» كاديما، الذي أسسه شارون بعد خروجه من الليكود، فاز بأصوات أقل مما كان يأمل في الحصول عليه، حيث حصل على تسعة وعشرين مقعدًا بدلاً من واحد وأربعين مقعدًا كان شارون يأمل في الحصول عليها قبل إصابته بالسكتة الدماغية. واضطر أولمرت إلى الاتجاه للمتدينين وغيرهم من شركاء الائتلاف الذين لهم همومهم الخاصة ولا يشاركونه أهدافه بالضرورة.

وكان إيهود أولمرت حتى وقت قريب شخصية ضئيلة الحجم نسبيًا. فقبل ستة أشهر لم يكن كثيرون يعتبرونه خليفة شارون المحتمل. ولو كان شارون قد أصيب بالسكتة الدماغية قبل ذلك ببضعة أسابيع، لما انقسم حزب الليكود الحاكم إلى حزبين ولأصبح الصقر بنيامين نتنياهو رئيسًا للوزراء. ويبدو مستقبل نتنياهو السياسي الآن موضع شك. فقد أحدث شعاره في الانتخابات «أولمرت سوف يقسم القدس، ونتنياهو سوف يحافظ عليها موحدة» أثرًا عكسيًا. وفقد حزب الليكود الذي يرأسه ثلثي أصوات ناخبيه، حيث ذهب معظمها لكاديما. وفقدت «القدس الذهبية»، وما يسمى بـ«قلب الشعب اليهودي» و«صخرة وجودنا» بعض بريقه، بل يبدو الآن أن هناك تأييدًا لتقسيم القدس أكبر كثيرًا مما كان يفترض فيما مضى.

ولأولمرت حياة عملية متنوعة في السياسة الإسرائيلية لا تكاد توحي بشيء. ولأنه ابن عائلة أيدت إرهابيي الأرجون اليمينيين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، فقد كان في الشهور التالية لحرب عام ١٩٦٧ صقرًا حربيًا شرسًا. وكان عضوًا في العديد من الجماعات اليمينية الصغيرة ويقال إنه صك أحد شعاراتها وهو «الأرض المحررة تظل في يدنا للأبد». وهو نظم يفتقر إلى الرشاقة في لغته العبرية، مثل افتقاره إليها في اللغة الإنجليزية. وفي عام ١٩٧٣ كان أصغر الرجال سنًا الذين انتخبوا في الكنيست. وبصفته عمدة القدس في تسعينيات القرن العشرين، أصبح شخصية قومية ولكنه تسبب في كارثة بعد أن أمر بعثيش بفتح نفق قديم يعود إلى عهد الإمبراطور هيرودس قريب من الأماكن المقدسة الإسلامية على جبل الهيكل القديم. وأدى ذلك إلى معركة غير متوقعة استمرت ثلاثة أيام بين المتظاهرين المسلمين والشرطة، مما أسفر عن موت تسعة وسبعين فلسطينيًا ومئات الجرحى. وفي اليوم الثاني كان لابد من استدعاء الجيش. ومات كذلك أربعة عشر جنديًا إسرائيليًا. فقد كان الفلسطينيون، كدأبهم في كثير من الأحيان، يشكون أن اليهود يوشكون على تدمير المسجد وإعادة بناء الهيكل اليهودي في المكان الذي كان يقوم عليه قبل ألفي عام.

وكانت تلك أسوأ مذبحة من نوعها في القدس الشرقية منذ احتلال إسرائيل لها في حرب عام ١٩٦٧. ومؤخرًا ذكرت زوجة أولمرت، عليزا، وهي فنانة معروفة بتأييدها لحركة السلام الآن الإسرائيلية، أن تلك الحادثة كانت السبب في أكبر أزمة شهدتها حياتهما الزوجية التي امتدت ثلاثين عامًا. ويشارك أبناؤهما أمهم في آرائها السياسية، وقد رفض أحد الأبناء تأدية الخدمة العسكرية في الجيش الإسرائيلي. وقبل الانتخابات الأخيرة قالت هي إنها لم تصوت لزوجها قط. أما هذه المرة فقد صوتت، حيث قالت إن أولمرت طرأ عليه «تغير عميق». وهي آسفة فقط لأن هذا التغير لم يحدث منذ ثلاثين عامًا.

تولى مجلس وزراء أولمرت الجديد مهامه في أوائل مايو. وإسرائيل على الدوام دولة صغيرة ذات مجالس وزراء كبيرة. وقد

---

The Accidental Empire: Israel and the Birth of the Settlements, 1967-1977

(امبراطورية بالمصادفة: إسرائيل ومولد المستعمرات)

Gershom Gorenberg

Times Books, 2006

---

ترجمة: أحمد محمود

# ما الذي يريده أولمرت؟

يكون مجلس الوزراء الجديد الأكبر في تاريخ إسرائيل، بل إن أحد المعلقين يشكو من أنه في حجم مجلس وزراء الصين. وكما هو متوقع، فقد خلا هذا المجلس من أعضاء فلسطينيين إسرائيليين، وما يدعو لمزيد من الدهشة أنه ليس به وزراء من حزب المهاجرين الروس الذي يزعم الآن أنه يمثل مليون إسرائيلي تقريباً. والرجلان القويان في مجلس الوزراء الجديد هما أولمرت ورئيس حزب العمل عامير بيريتس، وهو وزير الدفاع الجديد. وبيريتس، النقابي المقاتل، وافد جديد إلى السياسة القومية. وقد جاء هو وأولمرت من طرفي نقيض، سياسياً واجتماعياً. فبيريتس ابن عائلة من المهاجرين المغاربة نشأ في بلدة جديدة كالحة على حواف قطاع غزة؛ أما أولمرت فابن إحدى عائلات إسرائيل العريقة والميسورة، وهو محام بارز، ومليونير. ولكن رغم ما بينهما من اختلافات، ياقة زرقاء مقابل ياقة بيضاء، وأحد الصقور مقابل أحد الحمائم، والهامش مقابل المركز، فإنه قد يتضح أن أولمرت و بيريتس ثنائي متوافق. كما كتب دانييل بن سيمون مؤخراً في صحيفة «هاآريتس». ومع أن حزب العمل الذي يرأسه بيريتس قد فاز بتسعة عشر مقعداً فحسب، فإن كثيرين يرون في شراكتهما شيئاً يبشر بالأمل؛ غير أن سبب ذلك غير واضح، ربما لأنه بخلاف ذلك لا يبدو أن هناك أي أساس كبير للأمل.

تولى بيريتس قيادة حزب العمل المحتضر بعد فوزه على المرشح الدائم شيمون بيريس البالغ من العمر حالياً اثنين وثمانين عاماً، وهو انتهازي لم يفز قط في انتخابات قومية، وعندما خسر رئاسة الحزب لصالح بيريتس قفز على حزب كاديما كي يكافأ بوظيفة «سمية» في مجلس الوزراء. وعند أداء اليمين ظهر إلى النور طابع السياسة الحزبية الإسرائيلية المحجوب في كثير من الأحيان؛ حين أعلن رسمياً أن بيريس أودع خزانة محاميه اتفاقاً موقعاً مع أولمرت مازال مضمونه سرياً. ونأمل أن يكون لهذا الاتفاق صلة بتحقيق السلام وليس بسلطة بيريس المستقبلية في الحكومة الجديدة.

بيريتس هو أول زعيم عمالي منذ سنوات طويلة ليس جنرالاً سابقاً، وأول زعيم كان من الحمائم طوال حياته السياسية، وأول زعيم لا يدخل الانتخابات ببرنامج «الأمن أولاً» كما فعل أسلافه جميعاً من بن جوريون إلى رابين وباراك وشارون. والواقع أن بيريتس وعد الناخبين بخفض ميزانية الدفاع المتضخمة. وقال بيريتس إنه بدلاً من إنفاق المال على المستوطنات سوف ينفقه على محاربة الفقر، ورفع الحد الأدنى من الأجور، وزيادة معاشات تقاعد كبار السن التي خفضتها حكومة الليكود السابقة بوحشية.

لم يخف بيريتس كراهيته لدستة أو نحو ذلك من الجنرالات المتقاعدين في الدرجات العليا بحزب العمل ولم يأخذ معه منهم إلا واحداً في مجلس الوزراء الجديد. وأوضح بيريتس رأيه بأن مواقف المؤسسة العسكرية الإسرائيلية في السنوات الماضية اتسمت بقدر زائد عن الحد من العدوانية. وقد عارضت، في البداية على الأقل، معظم مبادرات السلام بما في ذلك زيارة السادات للقدس واتفاقية أوسلو.

كانت الأسابيع الأولى لأولمرت وهو يتمتع بكامل سلطاته مشجعة في بعض النواحي. فقد كان الصراع الإسرائيلي الفلسطيني لسنوات مسألة انتقام متبادل، و«رد» وتصفية حسابات. وكان الشعور السائد هو «لا يمكن أن نظل صامتين أو لا نفعل شيئاً. إن لم ننتقم، سوف يشعرون بحرية ويفعلونها مرة أخرى». وقد أوقف أولمرت، في أسابيعه الأولى على الأقل، عملية إدارة الانتقام بشكل انعكاسي. وقاوم الحديث الطائش عن «معاقبة» حكومة حماس الجديدة في غزة على إطلاق صواريخ القسام البدائية محلية الصنع غير الفعالة من غزة في اتجاه إسرائيل. فهي تسقط في حقول مفتوحة ولا تحدث أضراراً كبيرة، إن أحدثت. ونجده خلال الأسابيع القليلة الأولى في منصبه على الأقل يمتنع عن الرد بقذائف مضادة؛ وهو ما قد يكون بتأثير من وزير الدفاع الجديد ذي الاتجاه الحمائمي. ولكنه سرعان ما ارتد إلى الممارسة القديمة وسمح بالاغتيال المستهدف لاثنين من زعماء حماس في قطاع غزة. إلا أنه قاوم المطالبة بمعاقبة إيران على تهديدات الرئيس محمود أحمدي نجاد بمحو إسرائيل من على الخريطة. وهو مازال يأمل في قيام مصر والأردن بأعمال القمع من أجله وفي استمتاعه بالعلاقات المحسنة إلى حد كبير مع الأوروبيين.

في هذا الصدد لم يكن هناك ما يمكن أن يحدث لأولمرت أفضل من فوز حماس في الانتخابات الفلسطينية الأخيرة. فبضربة واحدة حسنت تلك الانتخابات موقف إسرائيل في الخارج. وأولمرت راض بترك الولايات المتحدة والأمم المتحدة والأوروبيون يعاقبون حماس على رفضها المستمر لنبذ العنف، ونزع سلاح الإرهابيين، والاعتراف ليس فقط بإسرائيل وإنما بكل الاتفاقيات الفلسطينية السابقة مع إسرائيل كذلك. وحين كان الرئيس المصري حسني مبارك يتحدث مع التليفزيون الإسرائيلي في أوائل شهر أبريل، طلب من إسرائيل أن تصبر على حماس، قائلاً: «اعطوهم وقتهم. فقد كان هناك وقت رغبت فيه مصر في إلقائكم في البحر... فأين أنتم الآن؟ أفي البحر؟». ولكن مبارك فرض بعد ذلك قيوداً جديدة على الفلسطينيين المسافرين من غزة إلى مصر، ولم يجد وزير خارجيته قط وقتاً لمقابلة وزير الخارجية الفلسطيني الجديد.

وترفض المملكة العربية السعودية والأردن كذلك استقبال وزير خارجية حماس. بل إن البنوك العربية خضعت للضغط الأمريكي والإسرائيلي بعدم تحويلها الأموال للفلسطينيين. ومن جانبه رفض أولمرت في البداية تحويل الجمارك الفلسطينية وغيرها من الرسوم المفروضة على السلع التي يستوردها الفلسطينيون من الخارج وتحتجزها إسرائيل. وفي الحادي عشر من مايو فقط، حين تسبب نقص الأموال لدى الفلسطينيين في نقص المواد الغذائية وازدياد حدة الأزمة الإنسانية في غزة وأماكن أخرى، لان أولمرت وحول بعض الأموال المحجوزة للسلطة الفلسطينية. وفي الوقت نفسه وافقت حكومة أولمرت على قرارات اللجنة الرباعية، التي تضم الولايات المتحدة والأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا، الخاصة بتقديم المزيد من الدعم الإنساني للسلطة الفلسطينية. ومع ذلك مازال أولمرت يتجاهل الرئيس الفلسطيني محمود عباس، الذي ما فتئ يدعو إسرائيل إلى استئناف محادثات السلام. ويقول أولمرت إن عباس الآن ليس الشريك الكفء في عملية السلام. وقد يكون محقاً في ذلك. فغزة والضفة الغربية تبدوان على شفا حرب أهلية بين حماس والفصائل الأخرى. وفي منتصف مايو زعمت مصادر فلسطينية أن أعضاء حماس كانوا يتآمرون على قتل عباس.

إن خطة أولمرت الحالية هي «فك الارتباط» مع الفلسطينيين، حتى وإن اقتضى الحال أن يكون من جانب واحد، بالانسحاب من أجزاء من المناطق المحتلة إلى خطوط غير محددة، ولكن ليس إلى حدود ما قبل ١٩٦٧؛ الأمر الذي مازال الفلسطينيون يصرون عليه. ويعد أولمرت بالحصول على موافقة المستوطنين وموافقة الفلسطينيين على حدود جديدة يحددها الجدار الذي يجري بناؤه في الضفة الغربية. ولكن إذا لم تكن تلك الموافقة متاحة، وهو الأرجح على ما يبدو، فسوف يسعى على أقل تقدير للحصول على موافقة الحكومات الصديقة في أوروبا وكذلك الولايات المتحدة. وكانت تلك الفكرة في الأصل فكرة شارون، وإن كان هناك من يقول إنها صيغت بتأثير من أولمرت.

لا يزال «الانسحاب» كلمة قذرة في إسرائيل، ويتحاشى أولمرت استخدام هذه الكلمة، فهو يفضل الاصطلاحات المحسنة مثل «فك الارتباط» أو «التقارب» أو «هيتكانسوت» التي استعملت كثيراً في



**في خطابه الذي ألقاه في بداية توليه منصب رئيس الوزراء، ظل أولمرت يؤكد على أن لإسرائيل حقوقاً تاريخية لا يمكن التخلي عنها فيما يتعلق بالأرض الواقعة غرب نهر الأردن كلها.**

الفترة الأخيرة. وهي كلمة عبرية تتحدى الترجمة توحي بضم الصفوف داخل صدر العائلة الدافئ. وفي الحملة الأخيرة فاز أولمرت مقابل وعد بهيتكانسوت، بعدد من الأصوات يساوي ما خسره نتانياهو من أصوات لمعارضته إياها. ويتحدث بيريس عن «قطع الصلة بالماضي».

وفي الوقت الراهن هناك ثلاث عقبات جلية تقف في سبيل خطة أولمرت. العقبة الأولى عقبة برلمانية. ففي ظل عدم وجود أغلبية برلمانية صريحة، يتردد أولمرت في الاعتماد فقط على عدد قليل من الأعضاء العرب واليساريين في الكنيست قد يوفر له في أي الأحوال هامشاً ضيقاً جداً؛ وهو مازال يأمل في الحصول على أغلبية لا بأس بها لتمرير خطته الخاصة بـ «التقارب». وهو لهذا السبب بحاجة إلى المتدينين وشركاء التحالف الآخرين الذين لا يؤيدون الخطة، أو يؤيدونها تأييداً جزئياً. والعقدة الثانية عقدة دولية. فأولمرت يخطط لإجلاء حوالي ٧٠ ألف مستوطن خلال عامين أو ثلاثة أعوام من المستوطنات النائية أو المعزولة، تاركاً بقية المستوطنات، أكثر من ٤٠٠ ألف مستوطن، حيثما هي. ولن يكون ذلك بالأمر اليسير، خاصة إذا ظلت العقوبات الاقتصادية المفروضة على الفلسطينيين تقود إلى موجات جديدة من الإرهاب. وقد نقل عن أحد أقرب مساعدي أولمرت قوله إنه لابد من جعل الفلسطينيين يتبعون «الريجيم»... جوعهم، ولكن دون أن تميتهم من الجوع». ومع ذلك فقد سمعت أحد الخبراء الإسرائيليين في الشئون العربية يقول إن تجويعهم وإفلاسهم لن يجعلهم ألطف، بل سيحيلهم أشد تحولاً وخسة. وقال المساعد نفسه إن خطة «التقارب» سوف تضع الدولة الفلسطينية المقترحة في «الفورمالديهايد». كما قال إن الفلسطينيين لن يحصلوا على دولتهم إلا بعد أن يصبحوا فنلنديين.

وطبقاً لخطة أولمرت، فسوف يُعاد توطين المستوطنين الذين سيجلون عن المستوطنات النائية في أماكن أخرى بالضفة الغربية المحتلة، في مكان ما خلف السور الذي يرتفع خمسة أمتار بصفوفه المحصنة من الأسلاك الشائكة، والكشافات، ومناطق الموت، والإنذارات الإلكترونية، والكاميرات الرقمية، وغيرها. وقد يقيم البعض منهم بالقرب من المستوطنات الحالية الكبيرة التي سيكون الجلاء عنها غير واقعي، كما قال جورج دابليو بوش في رسالة إلى شارون أبرزتها وسائل الإعلام.

المشكلة هنا هي أنه لكي تكتسب تلك الحدود الجديدة المشروعية، أي تصبح لها صفة الدوام، لابد من تأكيدها وتعزيزها من جانب الطرف الآخر. فالخطوات الأحادية لا تخلق المشروعية ولا الأمن.

وقد اتضح ذلك منذ بضع سنوات بعد انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان. فقد كان الانسحاب ناجحاً لأن إسرائيل عادت إلى حدود معترف بها دولياً. والحدود الإسرائيلية اللبنانية في الوقت الراهن هادئة على نحو لم يحدث منذ سنوات.

دعت الحكومة المقاولين إلى تقديم العطاءات لبناء منازل جديدة، بجدول زمني سريع، لمن سيجلون عن المستوطنات في مواقعهم الجديدة في أماكن أخرى من الضفة الغربية، حيث سيحميهم الجدار الجديد. وعند اكتمال السور سيكون طوله ٧٥٩ كيلومتراً. وحينذاك سيكون طوله ثلاثة أضعاف طول الحدود الإسرائيلية الأردنية قبل عام ١٩٦٧، حيث يضع الدولة اليهودية داخل غرفة محصنة ضخمة.

العقبة الثالثة هي أن السور الجديد سوف يفصل حوالي ٢٠٠ ألف فلسطيني في القدس الكبرى عن أقاربهم، ومنطقتهم الخلفية، وجامعاتهم، ومؤسساتهم العامة، وأعمالهم، وورشهم، والأملاك التي يملكونها في الضفة الغربية. وسوف يفصل عشرات الآلاف من الفلسطينيين الآخرين على الجانب الآخر من السور عن بيارات البرتقال والزيتون والحقول التي يملكونها.

[ ٣ ]

في خطابه الذي ألقاه في بداية توليه منصب رئيس الوزراء، ظل أولمرت يؤكد على أن لإسرائيل حقوقاً تاريخية لا يمكن التخلي عنها فيما يتعلق بالأرض الواقعة غرب نهر الأردن كلها؛ ومع ذلك فقد أوضح أن إعادة تقسيم البلاد أمر حتمي بسبب ما أسماه كثيراً «القنبلة الديموجرافية الموقوتة». فبحلول عام ٢٠٣٠، وربما قبل ذلك، سوف تكون هناك أغلبية فلسطينية في غرب الأردن. وبدون التقسيم، سوف يكون وجود إسرائيل نفسها كدولة عبرية في خطر. وقال في خطابه إن «انتشار المستوطنات، في الوقت الراهن يهدد وجود الدولة».

وعندما سئل عن سبب عدم ورود احتمال الأغلبية الفلسطينية على ذهنه من قبل، «ألم يكن ذلك واضحاً منذ سنوات؟»، قال إنه كان يتوقع وصول المزيد من المهاجرين اليهود إلى إسرائيل، وخاصة من الاتحاد السوفيتي السابق؛ ولكن لم يصل سوى مليون مهاجر. وهو يريد أن تصبح إسرائيل في النهاية، حسب تعبيره، هو دولة طبيعية، حيث سيكون من «الممتع» أن تعيش دون أن يكون مسلطاً عليك سيف الأغلبية الفلسطينية الأكيدة بحلول عام ٢٠٣٠. ووعد بأنه لن يظل هناك إسرائيليون على الجانب الآخر من السور الكبير. ومن المخطط أن يضم السور القدس الكبرى ومعظم الكتل الاستيطانية الرئيسية في الضفة الغربية. وسوف يمتد بعمق داخل الضفة الغربية حتى معالي أدوميم، المستوطنة التي تضم ٣٢ ألف مستوطن في منتصف الطريق إلى أريحا، وفي الغرب حتى مدينة آرئيل الكبيرة، الواقعة على بعد عشرين كيلومتراً داخل الضفة الغربية. وهذا لن يفصل سكان القدس الفلسطينيين عن عائلاتهم وأعمالهم خارج المدينة فحسب؛ بل سوف يقسم الضفة الغربية في واقع الأمر إلى جيبين على الأقل. كما يريد أولمرت الاحتفاظ بحرية الحركة فيما تبقى من الضفة الغربية ضد الإرهابيين والاحتفاظ بوجود عسكري، في وادي الأردن. ولذلك سوف تقيم إسرائيل منطقة أمنية على طول النهر تمتد لمسافة أطول داخل الضفة الغربية، حيث تشغل مساحة كبيرة من الأرض. وقيل إن الحكومة الأردنية، التي تشك في الفلسطينيين باستمرار، تفضل مثل هذا الوجود.

هناك الآن ما يقرب من نصف مليون مستوطن إسرائيلي في المناطق المحتلة، بما في ذلك القدس، يغريهم بالبناء هناك إما الإيمان بالقومية الدينية، أو الحوافز الضريبية، أو الإسكان الرخيص، أو الثلاثة معاً. وغالبهم يذهب يومياً للعمل داخل إسرائيل نفسها. ويعيش نصف هؤلاء تقريباً في القدس الشرقية سابقاً وأطرافها المباشرة التي ضمت إلى إسرائيل في عام ١٩٦٧ بقرار من الكنيست. وتغطي القدس الكبرى حالياً مساحة ضخمة، وهي اليوم مدينة مختلطة، وموحدة ظاهرياً، تضم الإسرائيليين والفلسطينيين. ومازال الفلسطينيون يقاطعون انتخابات البلدية «الموحدة». والضواحي الإسرائيلية الجديدة، التي بنيت بعد حرب عام ١٩٦٧ في الأحياء العربية داخل خط التقسيم القديم وبعده، نظيفة ومرتبة وتحظى بصيانة جيدة، بل تتسم بالفخامة في بعض الأحيان. ولأن المساكن هناك تلقت دعماً مالياً كبيراً وبنيت على أراض خاصة وعامة نزعت ملكيتها، فقد كانت أسعارها أرخص بمقدار الثلث عما في القدس الغربية التي بحوزة إسرائيل من قبل. وفي المقابل، كان هناك في البداية تشجيع للفلسطينيين على الهجرة، وبعد ذلك منعوا من شراء شقق في الأحياء الإسرائيلية الجديدة. ولا تزال الحكومة البلدية تهمل الأحياء الفلسطينية الخالصة إهمالاً شديداً، والكثير منها في حالة سيئة تثير الحزن. فخلف جبل الزيتون وفي وادي جينوم، وتحت أسوار المدينة القديمة، الأحياء الفلسطينية أقرب شبهاً بعشوائيات القاهرة (الكلام لكاتب المقال)، فجبال القمامة قائمة في الشوارع، وهناك حفر ومطبات في كل مكان، ولا وجود لأرصفة، وليست هناك إضاءة مناسبة للشوارع، وليست هناك متنزهات كتلك التي على الجانب اليهودي، وتمتد المجارير المكشوفة في الشوارع الطينية.

وتصل الآن الضواحي الإسرائيلية على الجانب الفلسطيني من خط التقسيم القديم تقريباً إلى أطراف رام الله في الشمال وبيت لحم في الجنوب، ومازال بعض الناس يتحدثون وكأنه مازال بالإمكان إعادة تقسيم القدس الكبرى تقسيماً مرتباً على طول الخطوط العرقية. فلابد أن هؤلاء كانوا ينظرون إلى الخرائط القديمة وهم يتحدثون، ذلك أن أي إنسان يسير بالسيارة الآن في الضواحي الإسرائيلية الجديدة، المنتشرة على نطاق واسع شمالاً وشرقاً، يلاحظ على الفور أن الكثير منها متصل بضواحي الفلسطينيين اتصالاً لا انفصام له. وتحاط جيوب من الضواحي الإسرائيلية بأحياء سكنية فلسطينية أكبر منها، والعكس صحيح. ومن الصعب تصور الطريقة التي يجري بها تخليص تلك المناطق المتشابكة من بعضها وإعادة تقسيمها.

**يأمل أولمرت في قيام مصر والأردن بأعمال القمع من أجله وفي استمتاعه بالعلاقات الحسنة إلى حد كبير مع الأوروبيين**

كان نائب عمدة القدس السابق ميرون بنفينيستي محقاً حين حذر عند عشرين عاماً من أن مشروع الاستيطان سرعان ما سيصبح من المتعذر إلغاؤه (وقال محذراً: «الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق»). وسخر منه الكثير من الحمائم الإسرائيليين في ذلك الوقت بسبب آرائه المتشائمة. وكتب أبا إيبان كراسة يفند فيها مقولة بنفينيستي نشرها مركز السلام في الشرق الأوسط. ولكن بنفينيستي كان معه حق فيما قاله. فقد حذرت الولايات المتحدة ودول أخرى إسرائيل في وقت مبكر من أن إقامة المستوطنات انتهاك للقانون الدولي. بل انه حتى المستشار القانوني لوزارة الخارجية الإسرائيلية، الذي أصبح فيما بعد أحد قضاة محكمة العدل الدولية في لاهاي، حذر في أوائل خريف ١٩٦٧ من الشيء نفسه. غير أنه كان هنالك تجاهل للتحذيرات.

## [ ٤ ]

أمضيت يومين مؤخراً في زيارة للمستوطنات في الضفة الغربية مع داني روبنشتاين المعلق المخضرم على شئون الضفة الغربية في صحيفة «هاآرتس». ويعيش معظم المستوطنين في ١٩٠ مستوطنة «مصرح بها» بنيت على أرض انتزعت ملكيتها من أصحابها العرب أو على الأرض «العامة» (أي غير المملوكة لأحد). مع أنه من الصعب التمييز بين الأرض الخاصة والعامة في منطقة لم تُدون بها سجلات رسمية لملكية الأراضي. فحكومة الانتداب البريطانية والحكومة الأردنية لم تصل إلى المنطقة قط لتوضيح سندات الملكية والأملاك. وكانت العشائر تحوز الأراضي بناء على التفاهمات غير الرسمية. وكانت الملكية تقوم على حجج ملكية قديمة وعلى ما هو متعارف عليه. وبعد عام ١٩٦٧ فسرت الحكومة الإسرائيلية العسكرية الوضع القانوني لمصلحتها. فقد استولت على مساحات كبيرة من الأراضي لأسباب «أمنية» مزعومة. وانتهى الحال بتلك الأراضي كمستوطنات مدنية إسرائيلية. فالفاتحون المنتصرون يفسرون القانون في كثير من الأحيان لمصلحتهم، كما كان الحال في أمريكا، حيث فقد الهنود أرضهم في أغلب الأحيان بسبب الاختلاف المستمر بين القانون والتطبيق، كما يقول ستيوارت بانر الأستاذ بجامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس.[٢]

كانت المستوطنات الإسرائيلية «المصرح بها» تتلألأ بالفيلات والأكواخ جميلة المنظر والمراكز الاجتماعية التي ينفق عليها بسخاء من أرباح اليانصيب الوطني. وهنالك مراكز تسوق محاطة بأشجار السرو وتتناثر بها المروج الخضراء وحمامات السباحة الخاصة على مرأى من القرى الفلسطينية التي مازال يصلها الماء مرتين في الأسبوع في شاحنات الصهاريج أو محملة على الشاحنات. وعلى الفور يتضح للزائر أن سكان معظم المستعمرات مازالوا مقتنعين بأنهم سوف يبقون هم وذريتهم هنا للأبد. أما في المستوطنات النائية المقرر الجلاء عنها الآن، وفي المستوطنات «غير المرخص بها»، أي المستوطنات الجامحة، فالكلام عنيف، وكثيراً ما سمعت شعار «لقد طردنا الشازيون، ولكنهم لن يستطيعوا طردنا من هنا».

مازال جزء كبير من الضفة الغربية منطقة حربية. والوجود العسكري الإسرائيلي في تلك الأماكن كبير، حيث يطل الكثير من المعاقل الصغيرة المدرعة المستديرة، أو الأبراج المضادة للرصاص، على القرى الفلسطينية الرئيسية؛ وتلك الأبراج بها فتحات للمراقبة أو إطلاق الرصاص، وعليها هوائيات مرتفعة وأعلام إسرائيلية ترفرف على ساريات طويلة. وتقف في الخارج العربات المدرعة على أهبة الاستعداد للتدخل الفوري. وفي داخل السور الكبير نفسه رأيت العديد من الأسوار المنخفضة التي بناها الجيش، وهي الآن موازية للطرق المحلية ويمكن استخدامها لسد سبل الهروب السهلة للسيارات الإرهابية المحتملة.

وفي كل مكان بين القدس والخليل، وبين القدس ونابلس، يقابل المرء عروضا منهنة للأعلام الإسرائيلية ذات الحجم الكبير التي تعد تجليات ساطعة للسيادة وسط سكان معادين؛ ولم أر قط مثل ذلك العدد الكبير من الأعلام في السنوات الماضية. فإنك تشاهدها عند كل علامة طريق، وحول كل مستعمرة، وعلى كل عمود إنارة متيسر، وعلى أسوار الأسلاك الشائكة العالية. وفي كل مكان تقريباً هناك شبكات طرق منفصلة تماماً؛ شبكة للإسرائيليين فقط، والأخرى للفلسطينيين، مع وجود أنفاق وكباري لتمكين الإسرائيليين من الانتقال إلى القدس أو تل أبيب دون مقابلة أي فلسطيني؛ أو حتى رؤيته في الغالب. والشبكة المخصصة للإسرائيليين جديدة تماماً. وطرق المستوطنين ناعمة وعريضة ومضاءة جيداً بالليل. أما الطرق الفلسطينية فهي في الغالب قديمة ومليئة بالحفر والمطبات، وهناك نقاط تفتيش كل عشرين أو ثلاثين كيلومتراً. وفي أوقات الذروة يمكن أن تنتظر السيارات الفلسطينية، التي كثيراً ما تكون بينها سيارات إسعاف، بالساعات عند نقطة التفتيش. وقد صممت أحدث نقاط التفتيش بحيث لا يكون هناك اتصال مباشر بين الفلسطينيين والإسرائيليين الذين يفحصون أوراق الفلسطينيين من خلال فتحات في أبواب فولاذية باستخدام ماسحات ضوئية متصلة بقوائم «المطلوبين».

بالإضافة إلى المائة وتسعين مستوطنة الـ «مصرح بها»، هناك أكثر من مائة مستوطنة «غير مصرح بها»، وإن كانت الدولة الإسرائيلية قد زودت معظمها بالإسكان وربطتها بالطرق الإسفلت وأمدتها بخطوط الكهرباء والماء. ومازال الغموض يلف الطريقة التي جرى بها ذلك. ولابد أن عصبة من الساسة والبيروقراط والمضاربين في العقارات والحكام العسكريين المتعاطفين: الكثير منهم مستوطنون يعيشون على مقربة، قدمت لهم يد العون. والواقع أن الدولة تخصص فرقاً تضم أربعة أو خمسة جنود لحماية كل مستوطنة، سواء أكان مصرحاً بها أم غير مصرح بها. وتحيطها جميعاً بثلاث حلقات من الأسلاك الشائكة العالية، والكشافات القوية، وأجهزة الإنذار الإلكترونية. وبالإضافة إلى ذلك فإن كل شيء في محيط ثلاثمائة أو أربعمائة متر حول كل مستعمرة يعلن «منطقة أمنية خاصة» ويحذر الفلسطينيون من دخولها.

وبعد ذلك هناك مستعمرات أصغر حجماً تسمى المخافر الأمامية. وغالباً ما يسكن تلك المستوطنات شباب يتسمون بالعنف ومسلحون تسليحاً ثقيلاً وكثيراً ما يتحرشون بجيرانهم من المزارعين الفلسطينيين لإجبارهم على الرحيل. وفي حالات كثيرة يتعرض المزارعون للضرب وتُحرق أكواخهم؛ وفي مكان ما زرته في التلال الواقعة جنوب الخليل، أبلغني مزارع فلسطيني أن المستوطنين ألقوا سم فئران في الحظيرة التي يحتفظ فيها بغنمه وماعزه؛ كما أنهم جرفوا الحقل الذي كان يزرع فيه خضرواته وعلف ماشيته. وهنالك تحرش يومي بالأطفال الذي يذهبون إلى المدرسة في قرية قريبة على الأقدام. وعندما كنت هناك أكد لي متطوعون من جماعات حقوق إنسان من السويد وشيكاغو قصة المزارع. وهم يأتون الآن كل صباح لاصطحاب الأطفال إلى المدرسة.

وفي عام ٢٠٠٥ أوردت جماعة «بيتسليم» الإسرائيلية لحقوق الإنسان العديد من مثل هذه الحالات. وقد أُبلغت الشرطة ولكن لم توجه أية تهم. وانتقد بشدة تحقيق رسمي لوزارة العدل السلوك العدواني لهؤلاء المستوطنين ودعا إلى تفكيك المستوطنات والمخافر الأمامية غير المصرح بها؛ ولكن شيئاً لم يتم.

سيكون إقناع ٧٠ ألفاً من سكان المستوطنات النائية أو «غير المصرح بها» بالانتقال إلى أماكن أخرى أمراً صعباً، ولكن الكثيرين يظنون أنه ممكن. وسمعت أن ذلك قد يكلف عشرة أضعاف ما كلفه إجلاء سبعة آلاف مستوطن من غزة، أو ما بين ١٥ و٢٠ مليار دولار. وسوف تكون



## يظل مشروع الاستيطان عقبة رئيسية، بل يقول البعض إنه العقبة الرئيسية، في سبيل التوصل إلى تسوية تاريخية لإنهاء الحرب التي امتدت مائة عام بين حركتين قوميتين على قطعة الأرض نفسها

هناك مظاهرات عاصفة. ولكن لو تم الجلاء فسيكون ذلك قد أصبح ممكناً من الناحية السياسية، الأمر الذي يعود الفضل فيه بشكل كبير إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق الذي يرقد حالياً في غيبوبة في أحد مستشفيات القدس، قبيل إصابته بالسكتة الدماغية. كانت فكرته الخاصة بـ«هيتكانسوت» قد أصبحت جزءاً من إجماع أوسع من أي وقت منذ عام ١٩٦٧. وقيل لي إنه حتى مستوطنة «بيت أريي» الواقعة على تلال السامرة المطلة على السهل الساحلي الإسرائيلي الضيق، سوف تُخلى من المستوطنين. وكانت تلك المستوطنة معروفة منذ سنوات باسم «شرفة شارون» لأنه كان يصطحب الأجانب البارزين إلى هناك ليريهم لماذا لا يمكن لإسرائيل التخلي عن الضفة الغربية. وعندما كان جورج دابليو بوش حاكماً لتكساس اصطحبه شارون إلى هناك في الهليوكوبتر الخاصة به. وزعموا أنه بينما كان بوش يطالع من خلال منظار شارون نحو البحر ونحو الجنوب الغربي ويطالع من خلال الضباب ناطحات سحاب تل أبيب، بينما يستمع إلى مقولة شارون بأنه لا يمكن إزالة المستوطنات، قال لشارون: «إني أتفهم ما تقول. فسيكون ذلك جنوناً محضاً».

بفضل شارون إلى حد ما، لم يتبق الكثير لليمين المتشدد العلماني القديم الذي برز بشدة في أيام مناحم بيجن ومرة أخرى في عام ٢٠٠١ بعد اندلاع الانتفاضة الثانية، حين منح الناخبون ليكود شارون أكبر أغلبية في تاريخه. والليكود القديم، الذي انسلخ عنه شارون قبل بضعة أسابيع من إصابته بالسكتة الدماغية، تضاءل حجمه في الانتخابات الأخيرة وأصبح حزباً هامشياً له أحد عشر نائباً فقط في الكنيست. ويبدو أن الدولة أضحت وسطية.

المؤيدون العلمانيون لإسرائيل الكبرى، الذين كان صوتهم مسموعاً في يوم من الأيام، لا يكاد يسمع لهم أحد صوتاً. والمتظاهرون الذين احتجوا على الجلاء عن غزة قبل بضعة أشهر كانوا جميعهم تقريباً متعصبين متدينين. وكما أشار ديفيد لانداو مؤخراً في «هاآريتس» فإن قوة الدفع الأيديولوجية لإسرائيل الكبرى تكاد تصدر بشكل حصري عن الأصوليين المتدينين في المستوطنات، وهم رجال تسيطر عليهم فكرة وعد الرب لإبراهيم في العصر البرونزي أو الوعد المسيحي؛ أو ربما في كليهما. وهم يرون أن الحدود بين الرؤية النبوئية والسياسة الواقعة الخاصة بالدولة اليهودية الحديثة مازالت غير واضحة مثلما كانت باستمرار منذ عام ١٩٦٧. ولكنهم فازوا بتسعة مقاعد فقط.

وحتى حزب «إسرائيل وطننا»، العلماني شبه الفاشي، الذي لا يسانده سوى المهاجرين الروس المصابين بالخوف من الأجانب بقيادة صديق نيتانياهو الحميم فيكتور ليبرمان، لا يعارض «هيتاكانسوت» أولمرت؛ ولكن بما أنه حتى داخل إسرائيل نفسها يزيد معدل إنجاب الإسرائيليين الفلسطينيين بمقدار الضعف على الإسرائيليين اليهود، فإن ليبرمان يطالب بمبادلة مستوطني الضفة الغربية الذين سيجلون بعدد مساو لهم من المواطنين الإسرائيليين الفلسطينيين الذين سيطردون كذلك.

هل سيرضى فلسطينيو حماس وفتح بما سيقدمه لهم أولمرت؟ إن لديهم شعوراً قوياً بأنهم حتى قبل حرب عام ١٩٦٧ كانوا قد فقدوا ٧٨ بالمائة من فلسطين التاريخية لمصلحة الإسرائيليين. واستعادة الـ٢٢ بالمائة الباقية - وهو ما يعني عملياً الضفة الغربية كلها بما فيها «القدس الشرقية» سابقاً - هو الحد الأدنى المطلق الذي يقولون إنهم يقبلونه. وبعد ذلك هناك مسألة التوقيت، الذي كان باستمرار ذا أهمية حيوية في هذا الصراع، حيث ضاعت فرص كثيرة في الماضي. ففي البداية كان الإسرائيليون مستعدين لتحقيق السلام، بينما لم يكن الفلسطينيون كذلك. وبعد ذلك كان الفلسطينيون مستعدين ولكن الإسرائيليين تأخروا. وفي عام ١٩٦٧ كان الساسة الرئيسيون في الضفة الغربية مستعدين لتحقيق السلام إذا وافقت إسرائيل على إقامة دولة فلسطينية منزوعة السلاح. وكان ذلك قبل ظهور عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. ولكن إسرائيل لم تستمع لذلك. وكان الجنرال ديان يعتقد أنه يمكن لإسرائيل أن تبقى في الضفة الغربية للأبد مادام نظامها الحاكم إنسانياً ويفيد السكان الأصليين اقتصادياً.

وكما يوضح كتاب جورينبرج، فإن سذاجة ديان جعلته يعتقد أن الأسمدة الجديدة وإمدادات المياه المحسنة سوف تغري الفلسطينيين بالموافقة على الحكم الإسرائيلي.[3] وفي عام ١٩٧٨ اعترفت إسرائيل بقيادة مناحم بيجن في اتفاقية السلام مع مصر بـ«الحقوق المشروعة» للفلسطينيين ووافقت على «الحكم الذاتي التام» للفلسطينيين، ولكن بيجن أطال المفاوضات حول هذه القضية مع المصريين، الذين لم يكونوا مهتمين كثيراً بالفلسطينيين بحال من الأحوال، حتى ضجروا منها وعلقوا المحادثات.

الحقيقة أن بيجن كان مقتنعاً بأنه قايض في معاهدة السلام مع مصر شبه جزيرة سيناء بإطلاق يده في الضفة الغربية. وبعد عامين من توقيع اتفاقية السلام، قال لي بطرس بطرس غالي، وكان وقتها نائب وزير الخارجية، في مقابلة أجريتها معه: «إسرائيل تغش. فهي لن تمنح الحكم الذاتي للفلسطينيين». فقلت له: «لماذا تقول تغش؟ فبيجن لم يخف قط ما يشعر به تجاه الضفة الغربية». فرد بطرس غالي: «صحيح. ولكن (عزرا) وايزمان (وزير الدفاع في ذلك الوقت) أكد لنا أن كل ما يريده بيجن في الضفة الغربية مجرد ورقة توت». فقلت له: «غريب، فذلك هو على وجه الدقة ما أبلغه وايزمان لبيجن عن موقفكم من هذه القضية. فقد كان يقول باستمرار لبيجن ألق إليه بورقة توت». فضحك بطرس غالي.

في تلك الأثناء، بدأ بيجن أكبر حملة استيطان في الضفة الغربية وغزة حتى الآن؛ وتولى شارون مسئولية تلك الحملة. وبعد بضع سنوات صرح بيجن لشارون بغزو لبنان ومحاصرة مقر عرفات في بيروت. وأبلغ الرئيس ريجان أن الأمر كان أشبه بالإمساك بهتلر في غرفته الحصينة. وظل التوقيت، أو عدم التوقيت، أمراً بالغ الأهمية. وربما ما كان لاتفاقية أوسلو لعام ١٩٩٣ أن تنهار لو أن عرفات بذل جهداً أكبر لمنع الهجمات الانتحارية ولو لم تسرع إسرائيل برنامج الاستيطان، أو لم يثر شارون العنف الفلسطيني من خلال زيارته المتعجمة لجبل المعبد في عام ٢٠٠٠. وقبل الانتصار الذي حققته حماس في الانتخابات، ربما كان لا يزال هناك اتفاق يمكن تصوره مع محمود عباس، وهو معارض صريح لكل أعمال العنف الفلسطينية، رغم أن شارون كان يصر على أن عباس «ليس شريكاً».

ويشير بعض المراقبين الآن إلى إعلان حماس لـ«التهدئة» في عام ٢٠٠٥، وهو الأمر الذي لا تزال ملتزمة به إلى حد كبير حتى الآن؛ ولكن المنافسين الفلسطينيين - حزب الله والجهاد الإسلامي - مازالوا مستمرين في التفجير. وبعد انتصار حماس يقل احتمال موافقة الفلسطينيين على الاتفاق الذي كان عباس قد رفضه مع خصم لا يعترف به قادة حماس ويرفض هو التحدث معهم. ومما يؤسف له أن الأمر استغرق حوالي أربعين سنة لبدء انسحاب إسرائيل مما كان ينبغي عليها الانسحاب منه في البداية. وفي الوقت نفسه أصبح صراع محلي بحت جزءاً من «صراع الحضارات» الذي يشكل تهديداً كبيراً.

وكانت الولايات المتحدة في الفترة الأخيرة تحث أولمرت على الإبطاء في تنفيذ خطته الخاصة بالعمل من جانب واحد، على الأقل إلى أن يتضح أن الضغط الدولي على حماس لا جدوى منه. فالولايات المتحدة لديها أولويات تختلف عن أولويات إسرائيل. ومن المؤكد أنها سوف ترحب بأي انسحاب إسرائيلي من الأرض المحتلة، غير أن همها الأول في اللحظة الراهنة هو منع انتشار الفوضى في الضفة الغربية وغزة. ومع اتجاه الإرهاب نحو الاستمرار، يظل وضع إسرائيل محفوفاً بالمخاطر، ويصبح وضع الفلسطينيين داخل السور أحلك ظلاماً من أي وقت مضى. ◼

**الحقيقة أن بيجن كان مقتنعاً بأنه قايض في معاهدة السلام مع مصر شبه جزيرة سيناء بإطلاق يده في الضفة الغربية**

هوامش:

(١) A Black lamb and Grey Falcon: Journey Through Yugoslavia (Viking, 1941), p. ٢٨٠.

(٢) انظر Stuart Banner, How The Indians Lost Their Land: Law and Power on the Frontier (Harvard University Press, ٢٠٠٤).

(٣) يذكر زيارة لتوجو في غرب أفريقيا حيث كان لدى الناس ذكريات طيبة عن الحكم الاستعماري الألماني قبل الحرب العالمية الأولى. وقال إنه ينبغي على إسرائيل اتباع نموذج «الاستعمار الخير». وهي لم تتبع ذلك النموذج، لأسباب اقتصادية في الغالب، وحتى إن اتبعته، ما كان ذلك ليحدث فرقاً.

# احتكار السلطة

## إليــــــــــــــزابيث درو

فى الوقت الذى نسمع فيه حديثا حول تعديل دستورى محتمل فى مصر ويدور فيه نقاش - لا نعرف إذا كان التعديل أو «المعَدِّلون» سيأخذونه فى الاعتبار أم لا - حول توازن بات مطلوبًا بين سلطات الدولة، وتأخير بات ملحًا تحديدُه للدور الدستورى للرئيس. تناقش المحافل الفكرية فى الولايات المتحدة الأمريكية (أحد أهم النظم الرئاسية «اطلاقًا» فى عالم اليوم) خطورة تغول «سلطة الرئيس» على ما عداها من سلطات الدولة.

وهنا مقال للكاتبة الأمريكية اليزابيث درو المتخصصة فى نظم الحكم (لها ٢١ كتابًا فى الموضوع) تتناول فيه القضية تفصيلاً فى الدورية المهمة The New York Review of Books.

**المحـــــرر**

[ ١ ]

■ ■ خلال عهد جورج دبليو بوش بلغ البيت الأبيض من السلطة مبلغا غير مسبوق. فقد حاول بانتظام أن يتحدى المؤسسات التى تعارضه ويهيمن عليها أو حتى يهددها وتلك المؤسسات هى: الكونغرس والمحاكم والصحافة. وقد حاول أن يغير توازن القوى بين الفروع الثلاثة للحكومة التى نص عليها الدستور، ولكن أشد انتهاكات البيت الأبيض وأكثرها رسوخا هى تلك التى كانت ضد السلطة التشريعية : لقد ردد بوش تكرارا ومرارا أنه يعتبر نفسه حرا لتنفيذ أى قانون يراه مناسبا وليس كما نص عليه الدستور، ومن خلال السرية والاستهانة بالكونغرس جعلت إدارة بوش الرئاسة أقل عرضة للمساءلة من أى وقت فى التاريخ الأمريكى الحديث. وبسبب تواطؤ الكونغرس نجحت الإدارة فى مساعيها إلى حد بعيد.

لم يلفت هذا الاستحواذ على السلطة اهتماما كبيرا لأن كل شىء تقريبا جرى فى العتمة. ولم تنتبه الصحف حتى أجاز بوش فى ٥ يناير من هذا العام، بعد توقيع لائحة تحتوى على تعديلات ماكين، التى حظرت التعذيب، نصا منفصلا «بيان توقيع» يبيح له تأويل اللائحة كما يرغب. فى الواقع إن بوش كان يصدر مثل بيانات التوقيع هذه منذ بداية إدارته. والدستور يميز بين سلطة الكونغرس وسلطة الرئيس بالنص على أن الكونغرس هو الذى «يضع كل القوانين» والرئيس «يأخذ التدابير لتنفيذ القوانين بدقة» ويدعى بوش أن لديه السلطة لتنفيذ القوانين كما يفسرها، متجاهلا مقاصد الكونغرس.

يقول جروفر نوركويست وهو شخصية قانونية رئيسية فى الحركة المحافظة وقريب من إدارة بوش ويدعم عادة سياساتها: «إذا فسرت مقولة الدستور بأن الرئيس هو القائد الأعلى بمعنى أن الرئيس يمكن أن يفعل ما يشاء وله الحق فى تجاهل القوانين، فليس لديك دستور، وإنما لديك ملك» ويضيف: «إنهم لا يحاولون تغيير القانون بل يقولون إنهم فوق القانون وفى موضوع تصنت وكالة الأمن القومى، فهم ينتهكون القانون، والقليل من أعضاء الكونغرس من يدرك معنى ما يفعله بوش ويرغبون فى الحديث العلنى ضد ذلك. وتتحدث ديان فاينشتاين وهى سيناتور من الحزب الديمقراطى عن ولاية كاليفورنيا، عن «جهد واسع جدا» يبذل «من أجل زيادة سلطة الرئيس. ويقول تشاك هاجيل وهو سيناتور جمهورى من نبراسكا:

«هناك نمط واضح جدا من التأكيد الشديد على سلطة الرئيس والكونغرس متواطئ أساسا فى السماح له بذلك. المفتاح هنا هو أن بوش لديه كونغرس جمهورى. وبطبيعة الحال لو كان هذا عهد كلينتون لكنا نعقد الآن جلسات استماع».

المشاهد المذاعة للرئيس يحيط به نواب مبتسمون وهو يمتدح عملهم الرائع أثناء تسليمهم الأقلام التى استخدمها لتوقيع اللائحة، عادة ما تكون مضللة. فالمسئولون المنتخبون لا علم لهم فى ذلك الوقت بنوايا الرئيس الحقيقية فيما يتعلق بالقانون. وبعد مغادرتهم، فإن بيانات التوقيع - التى لم يصدرها لفظيا فى وقت التوقيع - توضع فى السجل الفدرالى وهو أرشيف للقوانين الأمريكية التى نادرا ما يقرؤها أعضاء الكونغرس وتكون عادة شديدة التخصص وتشير إلى هذه المادة الفرعية وتلك الفقرة مما يجعلها عسيرة على الفهم.

على مدى خمس سنوات كان بوش يصدر سلسلة من بيانات التوقيع ترقى إلى أن تكون محاولة منظمة لاغتصاب السلطة من الفرع التشريعى. ورغم أن رونالد ريغان بدأ يصدر بيانات التوقيع من أجل توطيد مركزه، فقد كان يفعل ذلك أساسا من أجل توجيه أحكام قضائية ما ولم يكن يعارض مواد معينة من اللائحة إلا نادرا. ورغم أن الرؤساء الذين تلوه أصدروا أيضا مثل هذه البيانات، ولكنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه بوش من مطالبات عجيبة، ولا أصدروا مثل هذه البيانات بهذه الكثرة.

وطبقا لمقالة فى بوسطن جلوب، ادعى بوش الحق لتجاهل أكثر من ٧٥٠ قانونا شرع منذ أن أصبح رئيسا. وقد قام من طرف واحد بتجاوز الكونغرس فى قضايا متعددة، رافضا، على سبيل المثال، قبول شرط التنوع فى منح البعثات العلمية الحكومية. وقد تجاوز شروطا عديدة فى لوائح تخصيصات الكونغرس التى شعر أنها تتعدى على سلطته التنفيذية، كما تجاوز التزام الرئاسة بإعلام الكونغرس بكيفية تنفيذه عدداً من القوانين. أكثر من ذلك، رفض أن يفرض قوانين تحمى المبلغين بقضايا الفساد وتوفير حماية ضد التدخل السياسى فى البحوث الممولة

بترتيب مع:
New York Review of Books

ترجمة: بثينة الناصرى

**إذا فسرت مقولة الدستور بأن الرئيس هو القائد الأعلى بمعنى أن الرئيس يمكن أن يفعل ما يشاء وله الحق في تجاهل القوانين، فليس لديك دستور. وإنما لديك ملك**

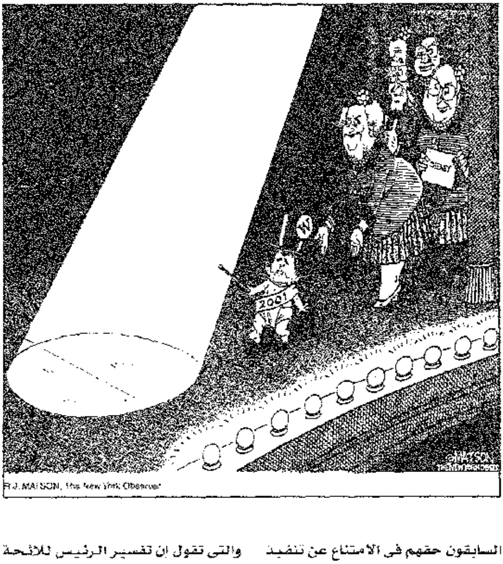
فدراليا. كما استخدم بوش أيضا بيانات توقيع ليضع قيودا شديدة على المفتشين العامين الذين يعينهم الكونغرس للإشراف على النشاطات الفيدرالية بضمنهم موظفون كان من المفروض أن يراقبوا مجريات الاحتلال الأمريكي للعراق ويبلغوا الكونغرس بنتائج مهامهم..

يمكن للرئيس بطبيعة الحال أن يستخدم حق الفيتو ضد تشريع لائحة لا تعجبه وله أن يناقش علنا أسباب معارضته. وهنا يجازف بأن يتجاوز الكونغرس معارضته. بدلا من ذلك اختار بوش أسلوبا سريا يصعب مجابهته. فحتى تاريخ كتابة هذه المقالة، لم يحدث أن استخدم بوش هذا الحق ضد أية لائحة (رغم انه هدد أن يفعل ذلك في حالة لائحة صرف يناقشها الكونغرس الآن). بعض اللوائح التي شرعت قرر بوش أن يوقعها ثم يهملها أو يفسدها، وأخرى تمت المصادقة عليها نتيجة لتوافق بين الكونغرس والبيت الأبيض. وقد ابلغني ارلين سبكتر السناتور الجمهوري من بنسلفانيا ورئيس اللجنة القضائية في الكونغرس: «طبقا للدستور إذا لم تعجب لائحة الرئيس يستطيع أن يمنعها. إنك لا يمكن أن تنتقي التشريع مثلما تنتقي الكريز».

وقد استند بوش إلى خلفيتين في تحدي إرادة الكونغرس أو توسيع سلطاته الرئاسية من طرف واحد: أحدهما استحقاقه السلطة «الكامنة» في منصب القائد الأعلى. والثانية مبدأ غامض يسمى الرئيس المركزي يعطي الرئيس سلطة على الكونغرس والمحاكم. إن مفهوم الرئيس المركزي يتضمن أن سلطة الرئيس يمكن أن تتجاوز المحاكم والكونغرس على أساس تفسير الرئيس للدستور، وهذا يعني عمليا إسقاط قضية ماربوري ضد ماديسون (١٨٠٣) التي رسخت مبدأ المراجعة القضائية والمفهوم الدستوري للمراقبة والتوازن (المراقبة هي حق ومسؤولية كل سلطة في مراقبة السلطات الأخرى والتوازن هي قدرة كل سلطة لاستخدام صلاحياتها للحد من قدرات السلطات الأخرى).

إن مصطلح (حكومة مركزية) له معنيان مختلفان: الأول يشير إلى تحكم الرئيس في الفرع التنفيذي بضمنه الهيئات المفترض أنها مستقلة مثل مفوضية السندات المالية والبورصة SEC وإدارة الغذاء والدواء FDA . الثاني مفهوم أوسع نطاقا وهو الذي يستخدمه بوش ويعطي للرئيس سلطة أعلى من الكونغرس والمحاكم. وقد طبق الرؤساء السابقون حقهم في الامتناع عن تنفيذ اجزاء من لائحة ما بذريعة تعديها على سلطتهم الدستورية، ولكنهم كانوا دقيقين في اعتراضاتهم وفي الأساليب التي يقترحونها لتنفيذ القانون. كلينتون مثلا، عارض مواد في لائحة تؤسس إدارة أمن قومي نووي شبه مستقلة وذلك ماوفر الأسباب للاستغناء عن المدير. كلينتون عارض ذلك على أساس أن تلك المواد تعتبر تجاوزا على امتيازاته الرئاسية. أما بوش فإنه يمارس سلطات واسعة بدون أن يكون دقيقا بمعارضاته أو يفصح عن خططه لتنفيذ القانون. وتأويلاته للقانون كما في «بيانات التوقيع» في تعديل ماكين، غالبا ما تفسر اللائحة لتعني شيئا آخر مختلفا - وفي بعض الأحيان تقريبا العكس - لما يفهمه أي شخص.

إن مفهوم الرئيس المركزي الذي شاع في دوائر محافظة لعدة سنوات كانت قد دعت إليه بشكل رئيسي الجمعية الفدرالية وهي جماعة من المحامين المحافظين الذين قادوا حملة أيضا لترشيح قضاة محافظين. وقد أخذت الفكرة بالاعتبار والجدية في وزارة العدل في إدارة ريغان. أحد أهم المتحمسين لها كان صامويل اليتو وكان حينها محاميا في وزارة العدل. وفي جلسة المصادقة على ترشيحه قال اليتو إن المذكرة التي كتبها والتي تقول إن تفسير الرئيس للائحة «يجب أن يعتبر بأهمية تفسير الكونغرس لها» كانت «نظرية». ولكن لم يطالب أي رئيس قبل بوش بشكل واضح بأن يكون مفهوم الرئيس المركزي أساسا لرفض لائحة ما.



R.J. MATSON, The New York Observer

كانت النظرية من ابتداع جون يو، وهو محام متوسط المستوى ولكنه شديد التأثير في وزارة العدل بين ٢٠٠١ و٢٠٠٣ وكانت وجهة نظره أن «الرئيس يملك السلطة للقيام بكل مايريده. (وقد كتب كذلك تلك المذكرة سيئة السمعة التي يدافع فيها عن التعذيب)[١] وبصفته مستشار البيت الأبيض فإن البيرتو جونزاليز وهو المدعي العام الآن يؤيد علنيا نظرية الرئيس المركزي.

وتستند النظرية على قسم الرئاسة وفيه طبقا للدستور يتعهد الرئيس المنتخب حديثا أن «ينفذ بإخلاص مهام الرئيس» وكذلك في جزء من المادة ٢ التي تنص على أن الرئيس «يتخذ التدابير لتنفيذ القوانين بإخلاص» وقد قدمت الإدارة تفسيرات غير مسبوقة لكلا النصين، زاعمة انهما يعطيان الرئيس سلطة مستقلة لا تخضع لمراقبة فروع الحكومة الأخرى (السلطتين التشريعية والقضائية) لتقرير ما يعنيه القانون. وتغفل هذه النظرية حقيقة أن المشرعين كانوا يحذرون خاصة من سلطة الرئيس.

وقد وصف عدد من الباحثين الدستوريين الذين تحدثت معهم نظرية الإدارة حول الرئيس المركزي باعتبارها لا شيء اكثر من ورقة توت مناسبة لتوسيع سلطة الرئاسة.

[ ٢ ]

وقد استمرت مزاعم بوش حول سلطته الاستثنائية كقائد أعلى بشكل أساسي بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. كان قادرا على استغلال الخوف الذي أثارته الهجمات في قلوب الشعب الذي بدأ يتطلع إلى رئيس يحميه. ويتذكر السيناتور جاك ريد وهو ديمقراطي من رود ايلاندز بأن كل فرد كان يتطلع للرئاسة وليس لأعضاء الكونغرس البالغ عددهم ٥٣٥، من اجل حمايتهم من هجمات اخرى قاصمة وقد تناسوا قلة ثقتهم المعتادة بالحكومة. وهكذا فقد اكتسبت الإدارة سلطة عظيمة كان يجب التعامل معها بحكمة ولكن ذلك لم يحدث.

وفي ظل صلاحية سلطاته كقائد أعلى ادعى بوش حقه في إبقاء حوالي خمسمائة «مقاتل عدو» في معسكر غوانتنامو، حيث لم توجه تهم ارتكاب جرائم إلا إلى عشرة منهم. ومعظمهم كانوا قد سلموا للأمريكان من قبل افغان من صائدي المكافآت الذين دفعت لهم الولايات المتحدة لتسليم العرب. وقد استغل بوش أيضا نفس السلطة في التعامل مع العديد من اللوائح التي اقرها الكونغرس وأكثرها بروزا هي معالجة تعديل ماكين الذي يحظر «معاملة أسرى الحروب «معاملة قاسية وغير إنسانية ومهينة» وفي بيان توقيع هذا التعديل قال بوش:

«سوف يفسر الفرع التنفيذي (مادة التعذيب) بشكل يتفق مع سلطة الرئيس الدستورية للإشراف على الفرع التنفيذي المركزي وباعتباره قائدا أعلى وكما يتفق مع التقييدات الدستورية للسلطة القضائية...»

وقد أصبحت هذه الوصفة العامة جزءا نمطيا في بيانات بوش عند التوقيع رغم أنه لم ينتبه لذلك إلا القلة. وما قاله بوش عن لائحة التعذيب كان فاضحا طالما أن تاليه تشيني وهو حلقة وصله مع الكونغرس قد حاول أن يتفاوض مع مجلس الشيوخ على مادة تخفف من تعديل ماكين ولكنه فشل. وقد اقرها مجلس الشيوخ بنسبة أصوات ٩٠ إلى ٩ وصادق

عليها مجلس النواب بنسبة ٣٠٨ إلى ١٢٢. لقد كانت معركة علنية أخذت حظها من الانتشار وخسر فيها الرئيس.

فى أواخر فبراير، بعد وقت قصير من بيان توقيع بوش على تعديل ماكين، أصدرت (مشروع الدستور) وهى منظمة غير ربحية تمثل الحزبيين ومقرها فى واشنطن بيان احتجاج وقعه مسئولو حكومة سابقون من كلا الحزبيين ومحافظون بارزون وباحثون، ينص على «أن الموقعين يشعرون بقلق عميق من خطر سلطات رئاسية دائمية وغير مراقبة ومايرافقها من فشل الكونغرس فى ممارسة مسئوليته كفرع منفصل ومستقل فى الحكومة»، وعارضوا تأكيد بوش بأنه «قد لا يمكن تقييده بقوانين يقرها الكونغرس مثل تعديل ماكين وبأنه يستطيع إغفال «التزامات بمعاهدات وقوانين قائمة منذ زمن طويل تحظر تعذيب السجناء». ويختتم «إننا نتفق على أننا نواجه أزمة دستورية»[2]

ومثال فاضح آخر على استخدام بيانات التوقيع حدث حين قال بوش فى مارس، تفسيرا للائحة إعادة المصادقة على قانون الوطنية، بأنه سوف يهمل الالتزام بأن يبلغ الرئيس الكونغرس بالخطوات المتخذة لتنفيذ القانون، وهذا يعنى إنكارا لضرورة أن يكون من حق الكونغرس مساءلة الرئيس.

وقد أصدر باتريك ليهى الديمقراطى البارز فى لجنة مجلس الشيوخ القضائية بيانا احتجاجيا غاضبا وصف فيه استخدام بوش لبيانات التوقيع بأنها: «لا تعدو أن تكون جهدا متطرفا لإعادة تشكيل الفصل الدستورى للسلطات وتفادى المساءلة ومسؤولية تطبيق القانون». وأضاف ليهى «إن بيانات الرئيس عند التوقيع ليست القانون ونحن (الكونغرس) يجب ألا نسمح أن تكون الكلمة الأخيرة لهم».

وقد ذهب بوش إلى مدى ابعد فى مطالبته العجيبة بالسلطة المطلقة فى ١٧ ديسمبر ٢٠٠٥ حين أقر، كما كُشف فى نيويورك تايمز فى اليوم السابق، بأن الحكومة كانت تدير عمليات تنصت على هواتف داخلية بدون إذن قضائى. وقد ادعى بأن لديه الصلاحية للأمر بمثل هذا التنصت «من أجل إنقاذ حياة الناس» بغض النظر عما يتضمنه القانون السارى.

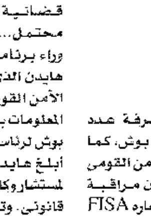
وقد استند فى زعمه هذا على حجتين متناقضتين: الأولى، قال إن التنصت بدون إذن قضائى مصادق عليه فى قرار شرع بعد ثلاثة أيام من أحداث ١١ سبتمبر، ينص على أن للرئيس «أن يستخدم كل القوة الضرورية والمناسبة» لمقاتلة القاعدة. ولكن الإدارة تجادل أيضا بأنها لا تحتاج إلى تفويض استنادا إلى السلطات المكتسبة فى منصب القائد الأعلى. وقد كتب الزعيم السابق للأغلبية فى مجلس الشيوخ توم داشل يقول إن الإدارة قد طالبت بإصدار قرار باستخدام قوة أوسع شمولية مما اقره الكونغرس. وفى «اللحظة الأخيرة سعى البيت الأبيض للحصول على قرار يتضمن إجراءات «داخل الولايات المتحدة» ولكن الكونغرس رفض ذلك.

تكمن مشكلة مطالبة الرئيس بسلطات استثنائية كقائد أعلى فى أن «الحرب على الإرهاب» حرب مفتوحة بلا نهاية واضحة وهذا يؤدى إلى أن تكون صلاحيات الرئيس كما يفسرها بوش من أجل أن يفعل ما يريد لإدارة تلك الحرب بلا نهاية أيضا. فى حين أن هناك قيودا غير محددة حول المدى الذى يمكن أن يذهب إليه المشرعون لتوجيه الرئيس حول كيفية إدارة الحرب، ومن الواضح انهم لا يستطيعون أن يقولوا له كيف يستخدم قواته القتالية. ولكن خلال حرب فيتنام استغل الكونغرس سلطاته المالية وصوت على قطع التمويل. ولم تجادل إدارة نكسون بأن الكونغرس لا سلطة له للقيام بذلك.

## [ ٣ ]

ليس هناك وسيلة لمعرفة عدد القوانين التى أعاد تفسيرها بوش، كما فعل فى حالة برنامج وكالة الأمن القومى للتنصت. وقد شرع قانون مراقبة الاستخبارات الأجنبية واختصاره FISA والذى أقر فى ١٩٧٨ بعد أن رفضت المحكمة العليا التصنت الداخلى الذى قام به ريتشارد نكسون باعتباره غير قانونى، وينص القانون المذكور على ما يسميه «الوسائل الحصرية» التى يمكن للإدارة بواسطتها أن تمارس المراقبة على الأمريكيين. وقد أسس هذا القانون محكمة سرية خاصة يمكن أن تمنح الحكومة الإذن لمراقبة المواطنين الأمريكيين بعد إظهار سبب محتمل. وأحد مبررات الإدارة لإطلاق برنامج التصنت خارج قانون FISA هو أن التصنت على الإرهابيين المحتملين يستوجب السرعة ولكن قانون FISA يعطى الرئيس ثلاثة أيام لإدارة التصنت فى حالات الطوارئ وخمسة عشر يوما إذا كان هناك إعلان للحرب. ويشكو جونزالز من أن القانون بطىء حيث إنه يتطلب توقيع المدعى العام على حالات التصنت الطارئة وعلى أن تكون ضمن متطلبات قانون FISA (حين نقلت هذه الشكوى إلى سناتور جمهورى قال «إذن ما هى المشكلة؟») ولكن قانون FISA قد عدل مرتين منذ تشريعه ولم تسال الإدارة بشكل واضح ومحدد من الكونغرس لإعادة النظر فى القانون للأخذ بالاعتبار الظروف المستجدة.

ويبدو أن برنامج تنصت الإدارة ينتهك التعديل الرابع الذى يضمن «حق الشعب فى الأمان فى أشخاصهم ومنازلهم ووثائقهم وحاجاتهم ضد التفتيش والاعتقال والاستحواذ غير المبرر وألا تنتهك حرياتهم وألا تصدر أذونات قضائية إلا فى حالة وجود سبب محتمل....»[3] ويقال إن القوة الدافعة وراء برنامج بوش كان الجنرال مايكل هايدن الذى كان فى حينها رئيسا لوكالة الأمن القومى التى كان من مهامها جمع المعلومات باسم الأمن القومى وهو مرشح بوش لرئاسة وكالة المخابرات المركزية. فقد أبلغ هايدن البيت الأبيض انه طبقا لمستشار وكالة الأمن القومى فإن البرنامج قانونى. وتدعى الحكومة أنه إذا أجرى عضو من القاعدة أو جماعة «مساندة» للقاعدة اتصالات هاتفية أو تخاطبوا عن طريق البريد الإلكترونى مع شخص فى الولايات المتحدة، أو إذا شخص فى الولايات المتحدة بادر بالمحادثات فإن الحكومة التى قد تكون أصلا تتنصت على الإرهابى المشتبه به، تستطيع الآن أن تتنصت على المواطن الأمريكى كذلك. وهذا يثير التساؤل ما إذا كانت اتصالات هذا المواطن الأخرى ستخضع أيضا للمراقبة.



فى مؤتمر صحفى عقده فى البيت الأبيض جونزالز وهايدن فى ١٩ يناير من هذا العام، أكد جونزالز على «أن يكون طرف الاتصال من خارج الولايات المتحدة، وأصر على أن تكون هناك (أسس معقولة) للاستنتاج أن أحد طرفى الاتصال مرتبط بالقاعدة أو مساند لها»، وهو معيار شديد الإبهام. الإدارة هى التى تتخذ الآن هذا القرار وليس محاكم قانون مراقبة الاستخبارات الأجنبيةFISA . اكثر من هذا أبلغ جونزالز لجنة تابعة للكونغرس أنه لا يستطيع أن يغفل أن الرئيس له سلطة التنصت على المكالمات الداخلية. وحين سئل: لماذا لم تطلب الإدارة مصادقة الكونغرس للتفويض بالتنصت (بدون إذن) على المكالمات الداخلية فى حالات الإرهاب، أجاب جونزالز: لقد كانت لنا مناقشات مع الكونغرس فى السابق - أعضاء محددين من الكونغرس - حول إمكانية تعديل قانون FISA ليسمح لنا التعامل بشكل مناسب مع هذا النوع من الخطر، وقد نصحونا بأن هذا سيكون صعبا إذا لم يكن مستحيلا «بتعبير آخر مادام قيل لهم إن الكونغرس على الأكثر لن يوافق على إجراء عمليات تنصت بدون إذن، مضت الإدارة قدما بالانفراد باتخاذ قرار التنصت.

أما رد فعل إدارة بوش على كشف برنامج التنصت فقد كان مهاجمة التسريبات. وفى تصريحه الذى اعترف فيه بهذا البرنامج قال بوش «إن مجرد مناقشتنا لهذا البرنامج تساعد العدو». وفى محاولة لتقييد مراقبة الكونغرس للرئيس حاولت الإدارة أن تحدّ من عدد أعضاء الكونغرس الذين يمكن اطلاعهم على مثل هذه القضايا. فطبقا لتوجيه رئاسى صدر سرا بعد ١١ سبتمبر، لا يناقش المسئولون المعلومات بالغة السرية إلا مع رئيسى لجنة الاستخبارات فى مجلس الشيوخ والمجلس التشريعى وهما جمهوريان ومع الديمقراطى الأعلى رتبة فى هذه اللجنة التى أقيمت للإشراف على نشاطات الاستخبارات بعد فضائح وكالة المخابرات المركزية فى منتصف السبعينيات - إضافة إلى اكبر الجمهوريين والديمقراطيين فى كل قسم من اللجنة (العدد الكلى ثمانية أشخاص) وليس مع كامل أعضائها.

وحسب القواعد الجديدة، لم يكن يسمح لأعضاء هذه المجموعة الصغيرة بمناقشة البرنامج مع أعضاء آخرين من لجنة الاستخبارات أو مع موظفى مكاتبهم. وللإدارة أن تقرر أى المواضيع الاستخباراتية يمكن مناقشتها مع كامل أعضاء اللجنة. مشكلة ترتيبات البيت الأبيض المفروضة هذه، هى انه مثلما

**تستند النظرية على قسَم الرئاسة وفيه يتعهد الرئيس المنتخب أن «ينفذ بإخلاص مهام الرئيس» وكذلك عليه أن «يتخذ التدابير لتنفيذ القوانين بإخلاص» وقد قدمت الإدارة تفسيرات غير مسبوقة لكلا النصين**

يصبح أعضاء لجان الكونغرس الأخرى على علاقات حميمة مع الهيئات الحكومية التى يفترض أن يراقبوها، فإن مسئولى لجنة الاستخبارات - باستثناء السناتور الديمقراطى جى روكفلر من ويست فرجينيا - معروفون بأنهم على صلة قوية بالوكالات الاستخباراتية. فى يوليو ٢٠٠٣ أرسل روكفلر رسالة خطية إلى تشينى يقول فيها إن تقييدات كشف المعلومات «تثير قضايا عويصة تتعلق بالمراقبة».

وقد كتب روكفلر أيضا إن برنامج التصنت يستدعى إلى الأذهان «برنامج الوعى المعلوماتى الشامل» الخاص بالبنتاغون والذى كان يرأسه جون بويندكستر والذى صوت الكونغرس على إلغائه. وكتب يقول إن التماثل «يزيد من قلقى بخصوص الاتجاه الذى تتجه إليه الإدارة فيما يتعلق بالأمن والتكنولوجيا والمراقبة» (وقد أذاع روكفلر تصريحه هذا بعد كشف صحيفة التايمز) وفى بداية هذا العام هدد كل من تشاك هاجيل واولمبيا سنو وهما جمهوريان من ولاية مين، للتصويت مع الديمقراطيين للمطالبة بتحقيق عن برنامج التصنت مالم يبلغ كامل أعضاء اللجنة بالمعلومات. فى أوائل مارس وعشية التصويت على القضية، استدعى تشينى إلى اجتماع مع بعض أعضاء اللجنة الجمهوريين فى غرفة رقم اس ٢٠٧ وهى الغرفة الأشد حصانة فى الكابتول. وقد قام الجمهوريون بضمنهم سنو بانتقاد تشينى بشدة لمحاولات الإدارة منع أعضاء اللجنة من الحصول على المعلومات حول البرنامج.

وكان على تشينى أن يبلغ البيت الأبيض بأن خطته فى منع أعضاء اللجنة ماعدا رؤسائها من الحصول على المعلومات لم يعد ممكنا، ولكن بالعمل مع بات روبرتس رئيس لجنة مجلس الشيوخ للاستخبارات وبيل فرست زعيم الأغلبية فى مجلس الشيوخ استطاعت الإدارة أن تحد من عدد أعضاء اللجنة الإضافيين الذين وافقت على إيجازهم بالمعلومات السرية بحيث اصبحوا أربعة جمهوريين وثلاثة ديمقراطيين، وهذا أيضا يترك معظم أعضاء اللجنة ناهيك عن المسئولين المنتخبين الآخرين، فى الظلام. فى عشية جلسة المصادقة على ترشيح هايدن، وافق روبرتس بعد أن جوبه بثورة علنية من أعضاء اللجنة من الحزبين، على إجازة كل أعضاء اللجنة حول برنامج المراقبة. كانت هذه أيضا طريقة لتفادى أن يقوم أعضاء اللجنة الذين لم تتم إجازتهم عن البرنامج بطرح أسئلة محرجة فى الجلسة العلنية. (و كان هذا سبب الأسئلة الفاترة التى وجهت لهايدن فى جلسة المصادقة العلنية) رغم الإجازة فإن سنو قالت فى الجلسة العلنية «لم تتم حقا استشارة الكونغرس أو إعلامه بالأسلوب الذى نستطيع به حقا أداء مهمتنا فى الإشراف باعتبارنا فروعا متساوية فى الحكومة - ناهيك عن إيمانى بأن القانون يتطلب ذلك أيضا».

فى مارس، بعد أن رفضت لجنة الاستخبارات فى مجلس الشيوخ أن تعقد جلسات استماع حول القضية، عقد ارلين سبكتر وهو جمهورى من بنسلفانيا جلسات استماع أمام اللجنة القضائية لمدة اربعة أيام ولكن سبكتر انتهى إلى أن شهادة جونزالز كانت أكثر إبهاما من أن تكون ذات فائدة. وفى أواخر أبريل هدد بأن يقطع تمويل وكالة الأمن القومى لبرنامج التنصت إذا لم تكشف الإدارة معلومات إضافية عنه. وحين سئل لماذا لم يطلب من جونزالز أن يمثل أمام لجنته مرة أخرى قال سبكتر «لأنه لن يقول لنا شيئا». وقد انهت الإدارة، حسب تعليمات البيت الأبيض كما يبدو، تحقيقا تجريه وزارة العدل حول برنامج التنصت.

أثار ترشيح بوش لهايدن لرئاسة السى أى أى ضجة - اكبر بدون شك مما كان يتوقع البيت الأبيض - حول دوره فى برنامج التنصت ودفاعه العلنى المستميت عنه ولكن البيت الأبيض ادعى انه يرحب بالمعركة. ثم انطلقت ضجة أخرى بعد أن كشفت صحيفة يو اس توداى US Today بأن وكالة الأمن القومى تقوم بتجميع سجلات الهاتف لعشرات الملايين من الأمريكيين من شركات الهواتف الكبرى. وفى تصريح للصحافة قال بوش إن وكالة الأمن القومى لم تكن تستمع للمكالمات ولكن كانت تتتبع نمط الاتصالات التى تكشف عنها. ولكن سيكون من اليسير على وكالة الأمن القومى أو أية وكالة أخرى أن تربط الأرقام بأسماء المتصلين. وفى كل الأحوال فان البرنامج غير قانونى تماما (ينوى سبكتر إقامة جلسات استماع) وقد ادت هذه الكشوفات ببعض المشرعين إلى التساؤل عما إذا كانت هناك إجراءات أخرى لم تصل إلى علمهم تقوم بها الإدارة باسم الأمن القومى.



إن من شأن معركة كبيرة فى الكونغرس حول برنامج التنصت أن تتناسب إلى حد كبير مع استراتيجية كارل روف، التى اعلنها فى أوائل هذه السنة فى اجتماع للجنة القومية الجمهورية والتى ستجعل من مسألة الأمن القومى قضية محورية فى انتخابات ٢٠٠٦ كما فعل فى ٢٠٠٢. قال روف: «الجمهوريون ينظرون للعالم بنظرة ما بعد ١١ /٩ والديمقراطيون ينظرون للعالم بنظرة ما قبل ٩/١١» وبسبب ولع الإدارة بالعناوين والأسماء الدعائية (مثل القانون الوطنى) فإنها تسمى برنامج التنصت بدون إذن قضائى: «برنامج مراقبة الإرهابيين» وتلصق بمعارضيه تهمة ممانعتهم للتنصت على الإرهابيين. ولكن ليست هذه هى القضية: معظم نقاد كابتول هيل يرون ببساطة ضرورة خضوع برامج التنصت للقانون. يقول هاجيل «لا يمكن أن يتخذ أحد فروع الحكومة قرارات حول من ينبغى أن تنتهك حقوقه. هذا هو أساس وجود ثلاثة سلطات متساوية فى الحكومة».

## [ ٤ ]

أما بالنسبة للسلطة القضائية فإن إدارة بوش حاولت، مثل الإدارات السابقة، تعيين قضاة يتفقون مع وجهات نظر الرئيس. ولكن بوش كان ناجحا بشكل مثير للانتباه فى وضع محافظين متطرفين على المنصة وربما يكون لديه الآن أربعة أصوات فى المحكمة العليا لصالح نظرية (الرئيس المركزى) وصلاحياته التى تتجاوز السلطتين التشريعية والقضائية. وقد أمرت إدارته المحكمة العليا عدة مرات بعدم قبول قضايا المحتجزين. وكذلك بواسطة تعييناته وبممارسة الضغوط استطاع بوش أن يكسب الوكالات المستقلة (EPA ، SEC ، FDA وغيرها) إلى وجهات نظره السياسية - وفى حالته مخالفته للقانون - أكثر من أى رئيس قبله (!) فى حين أن جوهر هذه الوكالات هو أن تكون مستقلة عن الرئيس والكونغرس.

وكان هناك أصلا حكمان قضائيان فدراليان يتهمان وكالة حماية البيئة EPA بمخالفة قانون البيئة الفدرالى.

أما بالنسبة للصحافة فإن مسئولى وزارة العدل قد هددوا بالملاحقة القضائية ليس فقط للمسئولين الذين يسربون المعلومات السرية وإنما أى شخص آخر يستلم معلومات سرية سواء أذاعها أو لم يفعل. وقد اقترح جونزالز بأنه يمكن ملاحقة الصحفيين بتهمة كشف معلومات سرية (مثلا مراسلى نيويورك تايمز لكشفهم برنامج التنصت بدون إذن). فى ١٦ مايو نشرت شبكة أى بى سى للأخبار على موقعها على الإنترنت بأن الإف بى أى (مكتب التحقيقات الفدرالية) قد ساعد مجهودات الحكومة للحصول على سجلات هواتف المراسلين فى تحقيق التسريبات. وقد وجد العديد من الصحفيين والمحررين فى ملاحقة الإدارة لاثنين من لوبى الأيباك (لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية) - لاستلامهم مثل هذه المعلومات (وإرسالها إلى إسرائيل) تذيرا جادا وأنه فى أوائل مارس طالبت الإف بى آى بوثائق الصحفى التحقيقى الراحل جاك أندرسون.

ويدرك معظم المراقبين المطلعين أن تشينى ورئيس هيئة موظفيه ومستشاره سابقا ديفد ادنجتون، هما المسؤولان الرئيسيان للتفسيرات الواسعة لسلطات الرئيس إضافة إلى السرية غير المسبوقة التى تدير بها الإدارة الشئون العامة. وطبقا لصحيفة نيويورك تايمز، انه بعد ١١ سبتمبر دفع تشينى وادنجتون باتجاه التنصت على المكالمات الداخلية. وقد أخبرنى إحدى جماعات الضغط الجمهوريين أن وجهة نظر الإدارة حول مختلف القضايا بسيطة «نريد أن تجرى الأمور حسبما نريد ولا نريد إزعاج أنفسنا بالحديث عنها للآخرين».

ويرى بعض المراقبين الجمهوريين أن تشينى يعيش فى الماضى ويتصرف كرد فعل لما كان يراه تجاوزا من الكونغرس (يضمن ذلك قانون FISA ) على سلطات الرئيس خلال عمله فى إدارة فورد وكعضو أقلية فى كونغرس ديمقراطى. ورغم الشائعات بوجود فتور فى علاقته مع بوش حاليا، فإن تشينى يظل أقوى نائب رئيس فى التاريخ الأمريكى بأذرع مثل الأخطبوط تمتد إلى أركان كثيرة فى الحكومة. وقد عين جماعته فى كل وكالة أمن قومى - وزارة الدفاع والخارجية إضافة إلى وكالة

**تكمن مشكلة مطالبة الرئيس**
**بسلطات استثنائية كقائد أعلى فى أن**
**«الحرب على الإرهاب» حرب مفتوحة بلا نهاية**
**واضحة وهذا يؤدى إلى أن تكون صلاحيات**
**الرئيس بلا نهاية أيضا**

المخابرات المركزية ومجلس الأمن القومي (وحتى مؤخرا حين أخذت إجازة أمومة، كانت ابنته اليزابيث نائب مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى، وهو منصب لا يتطلب مصادقة مجلس الشيوخ وقد رأى المسئولون في الكابيتول هيل أنها مؤثرة أيضا في منصب المسئولة عن مكتب الشرق الأوسط في وزارة الخارجية). تشيني نصب بورتر جوس في وكالة المخابرات المركزية مع أوامر باجتثاث الناس الذين يسربون معلومات تحرج الإدارة. من الصعب مع ذلك معرفة الكثير عما يفعله تشيني لأن مكتبه يعمل بسرية تامة بحيث إن صديقا صحفيا يسمي مكتبه «الحفرة السوداء».

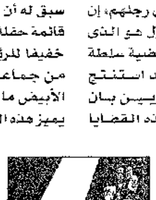
وقد وجد تشيني في بوش مستمعا جيدا. وكانت نظرة بوش الخيالية للرئاسة واضحة من سلوكه. فهو يتخذ موقفا عدوانيا إزاء من يتحداه. وقد قال لبوب وودوارد «لا أحتاج أن أوضح لماذا أقول أشياء. هذا هو الشيء الممتع في الرئاسة. ربما يحتاج بعضهم أن يوضح لي أسباب قوله شيئا ما ولكنني لا أشعر أنني مدين لأحد بتوضيح». وتعليقه «أنا الذي يقرر» حول عدم إقالة رامسفيلد، هو في الواقع تعبير استخدمه مرارا.

لماذا كان أعضاء الكونغرس خانعين إلى هذه الدرجة في وجه التجاوز المستمر على سلطاتهم الدستورية من قبل الرئيس؟ كشفت المحادثات التي أجريتها مع أشخاص مقربين من الكونغرس عن عدة أسباب. معظم أعضاء الكونغرس لا يفكرون بمضمون الدستور. فانشغالهم الرئيسي هو كيف يحصلون على تبرعات من أجل إعادة انتخابهم. وأحاديثهم في دوائرهم الانتخابية تتركز على القضايا العملية التي تشغل ذهن الناخب: أسعار البنزين والوصفات الطبية والتعليم الجامعي، أو حول تزايد معارضة الناخبين للحرب على العراق.

ويدرك الجمهوريون أن انحدار شعبية الرئيس قد تضرهم في انتخابات الخريف ولكنهم يشيرون إلى أنه يجيد جمع التبرعات ولهذا فهم يحتاجون عونه. أكثر من ذلك، إن الجمهوريين أكثر ولاء واحتراما لرأس الحزب ولا يمكن تصور أن ينتقد الجمهوريون بوش في العلن كما كان يفعل الديمقراطيون مع جيمي كارتر أو بيل كلينتون. فالجمهوريون أكثر انضباطا حول إعلان (نقاط الحديث) الخاصة بالحزب على الملأ. وجمع التبرعات للجمهوريين تجري من الرأس وليس كما هي الحال لدى الديمقراطيين. وهناك دائما ذلك التهديد المبطن بتوقف تدفق المال لحملاتهم الانتخابية، في حالة عدم ولاء الجمهوريين للرئيس.

ويمكن للخصم الجمهوري أن يتحدى صاحب المنصب في الانتخابات الأولية للحزب حيث لا يصوت الكثير من الناس وهنا قد أظهر أرلين سبكتر شجاعة غير عادية. فبالكاد نجا من تحد محافظ في الانتخابات الأولية عام ٢٠٠٤ (رغم أن بوش سانده) ثم كان عليه أن يحارب محاولة محافظة لتنحيته من رئاسة اللجنة القضائية لمجلس الشيوخ بسبب آرائه المؤيدة لحقوق الإجهاض. ونجا بتعهده ألا يسمح لآرائه أن تتدخل في الترشيحات القضائية أمام اللجنة. وقد قال لي سبكتر: «ما يقلقني أكثر من أي شيء هو تقييد سلطة الكونغرس الدستورية وهو ما لم يقاومه الكونغرس».

إن انحدار شعبية بوش يمكن أن يدفع أحيانا الجمهوريين لمحاولة الظهور بالاستقلالية عنه - كما في قضية العقد الذي منح لشركة دبي لإدارة الموانئ الأمريكية. فبعد كل حديث الإدارة عن الأمن كانت هذه الترتيبات تبدو مناقضة بشكل صارخ في قلب الأرض الأمريكية وقد سارع أعضاء في الكونغرس لقتل الصفقة. ولكن المشرعين الجمهوريين اقتنعوا أيضا وكما عبر عن ذلك أحدهم قائلا «يجب علينا أن نأخذ صف الرئيس لأننا إذا بدأنا في الانشقاق عنه أو القول إنه يستغل سلطاته فكلنا سوف نغرق معه». وكان كارل روف يجادل مؤخرا أعضاء الكونغرس الجمهوريين في هذا الاتجاه. في النهاية قالت لي إحدى جماعات الضغط الجمهوريين «يشعر السياسيون الجمهوريون أن بوش ما يزال رجلهم» إن التحزب الشرس في كابتول هو الذي يعطل مناقشات جادة حول قضية سلطة الرئيس اللامحدودة: وقد استنتج العديد من الجمهوريين بأن الديمقراطيين يستغلون هذه القضايا لأغراض حزبية وأنهم تخندقوا ضدهم. في ١١ مايو وأثناء غداء أسبوعي معتاد لحوالي عشرين من السيناتورات المحافظين ندد السيناتور روبرتس بالنقد الموجه ضد برامج بوش للمراقبة وجمع



البيانات باعتبارها «خطيرة» و«مهينة» للرئيس واتهم الديمقراطيين بالتعامل مع الأمن القومي كقضية سياسية.

ويمكن القول إن أعضاء الكونغرس ذوي الحمية تجاه مؤسستهم والقادرين على النظر لما هو أبعد من همومهم الضيقة والذين كان يمكن أن يعارضوا تجاوزات بوش على الفرع التشريعي - لم يعد لهم وجود.

منذ زمن التصويت على حرب العراق، كان الكثير من الديمقراطيين يخشون أن يتهموا بالوقوف في «الجانب الخاطئ» من قضايا «الأمن القومي» حتى تلك التي تطبخ بشكل فج من قبل البيت الأبيض. ويتطلب الأمر رد فعل شعبيا قويا كما في موضوع التعذيب، حتى يستطيع الكونغرس أن يتخذ إجراء ضد أفعال الرئيس. وقد قال لي سيناتور جمهوري «هناك شعور في الكونغرس أن الجمهور لا يهتم بالموضوع وأنه يرغب في التخلي عن حرياته من أجل هزيمة الإرهابيين». وبعض المقترحات التي قدمت في الكابيتول هيل لتشريع التنصت الذي تقوم به وكالة الأمن القومي لا ترقى إلى أن تكون قوانين.

في مركز الصراع الراهن حول الدستور هناك رئيس يحيط نفسه بذوي الولاء الثابت وهو لا يهتم بالتعقيدات ويكره أن يناقش ولا يتسامح مع المعارضين داخل الإدارة وخارجها. (وقد اسقط اسم جمهوري بارز من واشنطن سبق له أن جمع مبالغ كثيرة لبوش، من قائمة حفلة الكريسماس بعد أن وجه نقدا خفيفا للرئيس) وقد وصف لي جمهوري من جماعات الضغط المقربة للبيت الأبيض ما يسميه (ديانة بوش) «أهم ما يميز هذه الجماعة الولاء، وتعريف الولاء يمتد إلى صنع السياسة وتنفيذها وإلى الهيئات التشريعية» ويقول الرجل إن النتيجة هي أن الناس في الهيئات بضمنها التشريعية «أصبحوا مثل الروبوت يفعلون ما يؤمرون به. وليس هناك حوار».

**استثمرت مزاعم بوش حول سلطته الاستثنائية كقائد أعلى بشكل أساسي بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. كان قادرا على استغلال الخوف الذي أثارته الهجمات في قلوب الشعب الذي بدأ يتطلع إلى رئيس يحميه**

لم يؤد الضعف السياسي الراهن للرئيس إلى أن يتراجع البيت الأبيض عن مطالباته بسلطات رئاسية فوق العادة. يقول فين ويبر من اللوبي الجمهوري «أعتقد أنهم يمون بدقة حقيقة أن موقفهم السياسي ضعيف ولكن هذا لا يعني أن مؤسسة الرئاسة قد دمرت»، والأشخاص الذين لديهم رؤى سياسية يائسة مثل جروفر نوركويست وديان فاينشتاين يشعرون بالقلق من معنى استحواذ بوش على السلطة على المدى البعيد. يقول نوركويست: «هذه كل السلطات التي لا نود أن نراها بيدي هيلاري كلينتون» وتقول فاينشتاين: «اعتقد أن هذا الأمر جد خطير لأن رؤساء آخرين سوف يأتون وهذه ستكون سابقة لهم» وتقول: «لذلك، من المهم جدا أن يتشبث الكونغرس ويصدر قرارات حول ماهية سياساتنا بخصوص التعذيب والاستعانة بدول أخرى للتعذيب وقضايا المحتجزين والتنصت لئلا يطالب بوش بالحق لوضع هذه السياسات، أو أن تصبح سياساته ذاتها سابقة للرؤساء القادمين».

وكتب جيمس ماديسون في الوثيقة الفدرالية رقم ٤٧:

إن تجميع كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية في نفس الأيادي سواء لشخص أو قلة أو كثرة قد تكون هي نفس التعريف للطغيان.

إن تجميع سلطات فوق العادة في ظل إدارة بوش، في «نفس الأيادي» أمر لا يمكن إنكاره الآن. لأول مرة منذ أكثر من ثلاثين سنة وإلى مدى أكثر اتساعا من آنذاك، نجد الشكل الدستوري لحكومتنا في خطر محدق. ■

---

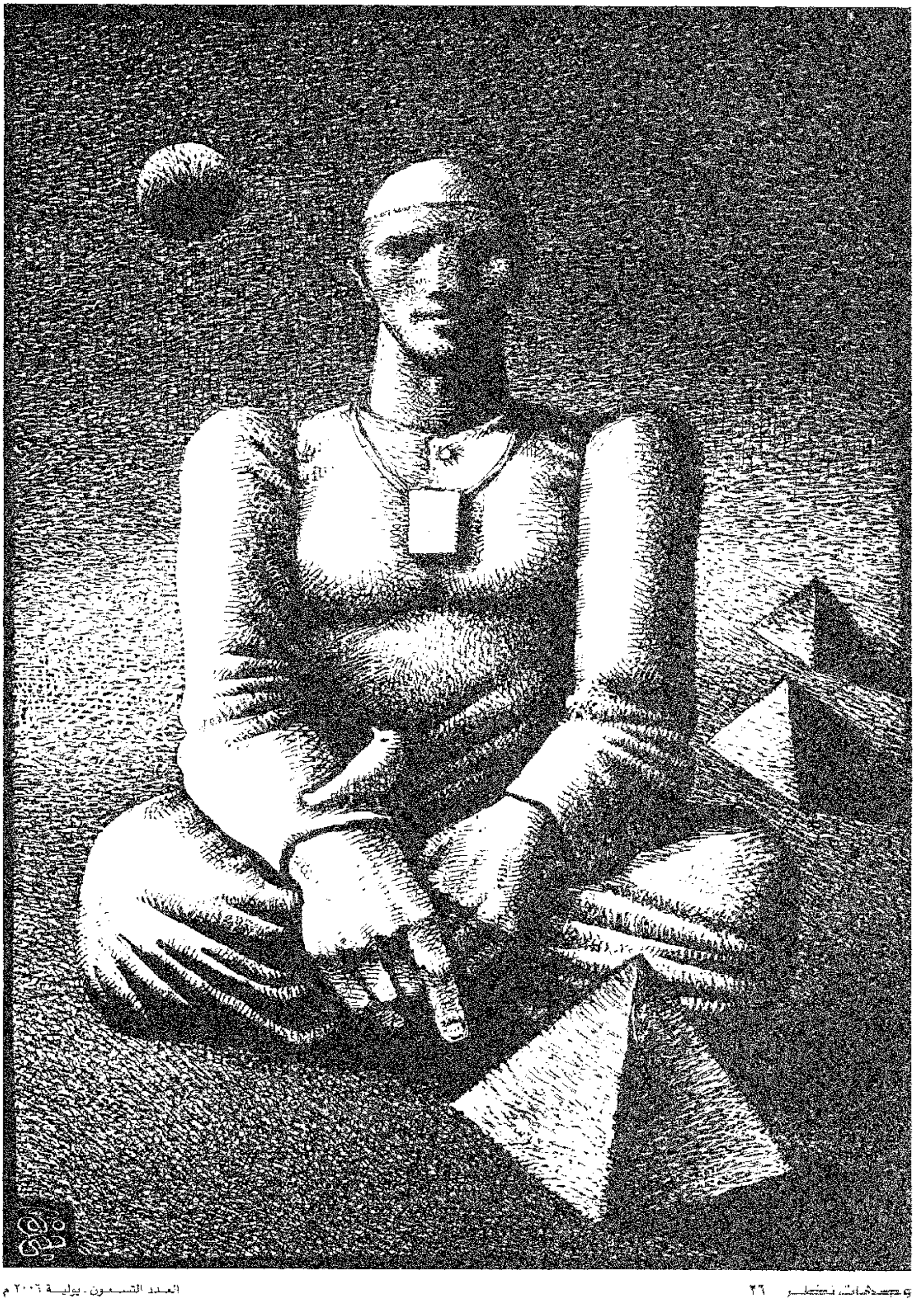
**هـــوامـــش:**

(١) انظر نقد ديفد كول لكتاب جون يو «سلطة الحرب والسلم: الدستور والشئون الخارجية بعد ٩/١١» (قسم النشر في جامعة شيكاغو ٢٠٠٥) في مجلة نيويورك ريفيو، ١٧ نوفمبر ٢٠٠٥.

(٢) من بين الموقعين كان ديفد كين رئيس الاتحاد المحافظ الأمريكي وإبراهام سوفاير من معهد هوفر ومستشار قانوني سابق لوزارة خارجية ريغان وريتشارد ابيشتاين باحث قانوني محافظ في جامعة شيكاغو وبروس فاين من وزارة العدل في عهد ريغان وناشط قانوني محافظ ووليام سيشنز مدير الإف بي آي تحت إدارة جورج بوش الأب. انظر www.constitutionproject.org.

(٣) للاطلاع على نقاشات دستورية أخرى ضد برنامج التنصت انظر «حول تجسس وكالة الأمن القومي: رسالة إلى الكونغرس» وقعها ديفد كول وآخرون. مجلة نيويورك ريفيو، ٩ فبراير ٢٠٠٦ وانظر أيضا رسالة ثانية في www.law.duke.edu/publiclaw.pdf

(٤) انظر مقالة مارسيا انجيل حول فشل إدارة الغذاء والدواء FDA «صيدليتك الخطرة» في نيويورك ريفيو ٨ يونيو ٢٠٠٥.



يحيى الرخاوي

# ماذا حدث للقيم المصريين؟

※ السيدة أجنبية أوربية غربية تعيش فى مصر من سنوات، جاءت تطلب مشورتى فى أمر من أمور بناتها. تدرج الحديث إلى تفاصيل تاريخ تكوين أسرتها ومسار معاشها، ولماذا فضلت، فأقنعت زوجها المصرى، أن تقيم الأسرة بقية حياتها فى مصر دون بلدها المتقدم. وصلتنى إجاباتها تقرر بأمانة أنها وجدت فى ناس مصر (الحاليين جدا) شيئا مختلفا هو أقرب إلى ما تريد، شيئا لا هى سمته، ولا أنا حاولت أن أتمادى فى السؤال عنه حتى لا أحبطها أو أحبطنى.

الحديث عن الشخصية المصرية بشكل يمكن تعميمه يكاد يكون مستحيلا حتى من خلال نتائج الأبحاث التى تصدرها مراكز الابحاث عندنا، وذلك لأسباب لا داعى لذكرها. من باب أولى ينبغى الحذر من الاعتماد على الانطباعات الشخصية وخاصة حين نعمم من خلالها أحكاما دامغة. مهنتى تضعنى فى مأزق آخر: فمع أنها أتاحت لى معايشة عدد هائل من ناسنا من كل بقعة من بقاع مصر، فإن معايشتى لهذا الكم من المصريين عبر هذا العدد من السنين: مقصورة - أغلبها - على المرضى وذويهم. هناك زعم يقول إن المرضى (وذويهم) لا يصح أن يكونوا المرجع الذى نقيس به، أو نرسم من خلاله، خريطة الأسوياء. وجه هذا النقد لسيجموند فرويد حين عمم ما حصل عليه، من عيادته وتحليلاته، على الشخص العادى. هذا اعتراض خاطئ حيث المسألة غير ذلك، المريض يتعرى فنرى فيه أنفسنا التى لا نجرؤ أن نراها إلا من خلاله، اختلاف مسار المرضى إلى السلب والهزيمة بعد ذلك هو المرفوض تعميمه.

أعترف ابتداء أن ما سوف أطرحه فى هذه المداخلة هو انطباعات قابلة للقبول والرفض، غير صالحة للتعميم، وهى أساسا، وربما تماما، من واقع خبرتى الإكلينيكية خلال نصف قرن إلا عاما واحدا، (١٩٥٧-٢٠٠٦) كما أنها بالضرورة غير مقصورة على المصريين فى نهاية النهاية.

## المأزق صعب، والأزمة عامة

أزمة القيم عبر العالم تفرض نفسها بشكل لحوح ومنذر، ربما يرجع ذلك إلى أمرين: أولا: مأزق انتصار قطب أوحد فى آخر جولة عالمية من جولات الحرب الباردة. وثانيا: تزايد إمكانيات التواصل بين سائر البشر بقدر أكبر وأسرع من أن تحول دونه أية وصاية أو رقابة. هذا بالإضافة إلى أن ثم تداخلا مشوشا بين «القيم» و«الأخلاق».

بعد انتهاء الحرب الباردة لم يتسلم القطب المنتصر قيادة العالم عسكريا واقتصاديا فحسب، وإنما وجد نفسه داعية (حتى النبوة) لمعتقداته (ايديولوجيته) الخاصة، وبالتالى تصور أنها الأرقى، والأبقى، ما دام هو الأقوى والأكثر ثراء والأنشط إعلاما وتسويقا. انتشرت لذلك قيمه الخاصة نتيجة لما يسمى «تأثير الهالة». أغلب هذه القيم سبق اختبارها وفشلت من قبل، ومع ذلك فقد عادت تطل من خلال نجاح لا يعزى إليها بقدر ما يعزى إلى غباء منافسيها. من تلك القيم مثلا: قيمة الاستهلاك، وقيمة الرفاهية، وأغلب ما يسمى قيم السوق، ثم تفرعت قيم أخطر وأدنى مثل قيمة الحق فى تصنيف الناس إلى أخيار وأشرار، بل إن قيمة الديمقراطية نفسها كما تسوق لنا، وكثير من القيم التى تدرج تحت ما يسمى بحقوق الإنسان، تحتاج إلى مراجعة طول الوقت.

فى نفس الوقت اهتزت حتى تشوهت قيم كانت دائما أكثر إنسانية وأكثر نفعا على مسار التطور، مثل قيمة العدل وقيمة الدفاع عن النفس، فقد تم إدخال تعديلات عليها حتى أصبحت تفيد عكسها: فثم عدل انتقائى، وعدل استثنائى، وعدل خصوصى (بانقماس). قيمة «الدفاع عن النفس» أطلقوا عليها أسماء حركية لتصبح صالحة للاستعمال فى قتل آلاف الأبرياء دون حساب، (أسماء مثل الهجوم الاستباقى، أو مكافحة الإرهاب أو التطهير العرقى للجنس الحامل جينات الشر اكتسابا. أغلب هذه التحولات ليست تابعة من مصر، وفى نفس الوقت هى غير بعيدة عن مصر.

حين طلب منى أن أرصد «التحولات التى جدت على الشخصية المصرية» ترددت طويلا حتى كدت أتراجع تماما. مع احترامى لكل الكتابات المجتهدة التى حاولت أن ترصد ما جرى للمصريين خلال عشرين عاما أو خمسين عاما. لابد من التنبيه - على الرغم من جودتها - أنها تحمل قدرا من السيرة الذاتية عممها أصحابها حتى تصبح هى المرجع لما ذهبوا إليه. لا ولم أرفض هذا المنحى من حيث المبدأ، لكننى نبهت إلى خطورة التعميم، ثم تصورت أن أية مداخلة جادة لابد أن تتعدى المرحلة الوصفية إلى ما يلوح من بدائل لنا وتغيرنا. ولو كانت آمالا أو وعودا، أو حتى شطحا.

إن أية ممارسة سلبية فى أى مكان فى العالم هى خطر على سائر البشر، كما أن كل اجتهاد أو إبداع إيجابى فى أى مكان فى العالم هو خير عام. موقف بوش من تقسيم الناس إلى خيرين وأشرار، ثم قتل الأبرياء استباقا، هو خطر على الجنس البشرى كله بما فى ذلك شعبه الذى انتخبه. كذلك ما يحدث من إسرائيل -- فيها وفينا - هو خطر عليها وعلى جيرانها بقدر ما هو خطر على البشرية، فى حين أن موقف النقاد المبدعين الأمريكيين والألمان والإنجليز من سلطاتهم الظالمة فى كل مجال (العلم والاقتصاد والسياسة)، هو قيمة تعود بالخير على الجنس البشرى كافة دون استثناء.

ما أقدمه فى هذه المداخلة ليس إلا فروضا ناقصة، ربما غير قابلة حتى للتحقيق، إلا أنه يمكن أن نلتقط منها ما لا يتحمل الانتظار. ففائدة الفرض العامل قد تسبق إثباته بدهور، وهل بقيت الأحياء التى نجت من الانقراض إلا بفروض لم يثبتها إلا حقيقة بقائها؟

## تقسيم هادف يتجاوز الوصف:

لتحقيق هدف هذه المداخلة سوف أقدم أمثلة لمجموعات من القيم قيد النظر، ربما يتيح ذلك فرصة للنظر فيما يمكن أن يترتب على إقرار أو رفض ما تيسر منها مما يحتاج إلى إضافات وتفاصيل وحوار ومراجعة:

المجموعة الأولى: ترصد التحول الذى حدث ويحدث فى منظومة القيم، ليس فقط بإحلال قيم سلبية محل قيم ايجابية، ولكن بتحويل كثير من منظومة «الرذائل» إلى قيم جديدة نكاد نفخر بها، وذلك من خلال التكرار والتعميم، والتعود، حتى كادت تصبح نموذجا لما ينبغى أن نعلمه لأولادنا حتى يتمكنوا أن يواصلوا الحياة بمقاييس النجاح الجديد، بشكل أو بآخر.

المجموعة الثانية: تشمل سلسلة من المبادئ والمواقف التى تجمدت فى موقعها نتيجة لحسن سمعتها، وكثرة ترديدها معه أنه انتهى عمرها الافتراضى برغم أدائها واجبها فى حينها.

أما المجموعة الثالثة فهى ما لن أتناوله فى هذه المداخلة بأية تفاصيل، مع أنها هى التى يمكن أن تبين ما أردت أن أعنيه ويمكن أن نتحول إليه نحن (البشر ما أمكن ذلك!).

## المجموعة الأولى:

### قيم الفخر بالسلبى

### أولا: قيم الغش

تدرجت فى مجتمعنا ممارسات الغش متسحبة، ثم معلنة: فردية ثم جماعية، حتى أصبحت صنعة متقنة لها مدارسها وأساتذتها: بل وكتبها وبرامجها، يتباهى من يفعلها ويحكى عنها، حتى كادت تصبح موضع حقد من يعجز عن ممارستها. يبدأ الغش منذ الرضاعة، حين ترضع الأم رضيعها لبنا انتهت مدة صلاحيته أو اختلفت محتوياته، وقد غشها بائعه أو صانعه بتزوير التاريخ أو تنويت أو تزوير مكوناته. قد تعلم الأم أو لا تعلم ذلك، ومع ذلك تصل رسائل الغش إلى نسيج الثقافة دون حاجة إلى إخطار صريح. يتواصل الغش حين يذهب الأطفال للمدارس تحت



عنوان التعليم، وهم لا يذهبون إلا ليتناولوا الوجبة المجانية أو المخفضة، ثم يتأكد الغش الصريح بإقرار الأسرة له كقيمة تزهو بها على غيرها، حين تفخر الأم أمام ابنها وصاحبه (خصوصا إذا كانت مدرسة أو ناظرة مدرسة أو زوجة رئيس مجلس المدينة) على أهل زميل ابنها لأنهم لم يتمكنوا أن يغششوا ابنهم بنفس القدر الذى نجح به زوجها، كل حسب مركز أبيه، ثم تتأكد قيمة الغش الجماعي بمكبرات الصوت خارج سرادقات الامتحانات، وبإملاء المراقبين الإجابات للطلبة (الغلابة)... الخ، وصلتني أرقام مرعبة عبر العالم أرجو ألا يتوقف القارئ عندها مرتاحا وهو يقول «مثلنا مثل غيرنا»، فيضيف إلى الرذيلة رذيلة أخرى. إن انتشار قيمة سلبية حتى عبر العالم لا يعطيها شرعية، من أول الغش حتى الحرب، مرورا بشطارة احتكار السوق. من هذه الأرقام إحصائية لمركز النزاهة الأكاديمية فى جامعة ديوك على ٥٠ ألف طالب جامعي و١٨ ألف طالب ثانوى أمريكى اعترف أكثر من ٧٠٪ بأنهم مارسوا غشا فى الامتحانات. كما أقر التقرير أن نسب الغش ارتفعت أربع مرات خلال السنوات الست الماضية، (ثم أرقام أخرى متاحة من الهند وكوريا الجنوبية وبكين) ولكن يبدو أن هناك أنواعا من الغش تسير جنبا إلى جنب مع الإنتاج، وأنواعا أخرى تدعم البلادة والكسل والتزوير إلى مالا نهاية، نحن أقرب إلى النوع الأخير: يتخرج الغشاش عندنا بعد ذلك أو لا يتخرج، فتقابله هو هو فى سوق المال، أو على كرسي الجامعة، أو فى مجلس الشعب أو فى مراكز أعلى فأعلى!

تقع تحت بند الغش بعض الإجراءات التى تقوم بها الدولة خداعا للمواطنين حين توهمهم بأمور لصالحهم وتعمل عكسها تماما، كأن تنقص من وزن رغيف الخبز وهى تعلن عدم زيادة سعره بالصوت الحيانى، وهكذا. أما التهرب من الضرائب - غشا : فهو القاعدة.

نختم التذكرة بما وصلت إليه هذه القيمة من رسوخ بحضورها الدائم والمتكرر فى تزوير الانتخابات. المداخلة الحالية لا تتوقف عند الاهتمام بالموقف القانونى لإثبات التزوير أو تجريمه. إن التزوير كقيمة لا يقتصر على اللعب الصريح فى كشوف الانتخاب، بل إنه يمتد إلى فكرة الخداع بأية صورة، مثل أن تخدع الناخب، بأمانة شديدة! حتى ينتخب سيادتكم مرشحا مستقلا ضد مرشح الحزب الوطنى (مثلا)!!!! فيصدقك وينتخبك، فتنجح، ثم تأخذ صوته دون استئذانه وتنضم للحزب الوطنى، تحت زعم أنك هكذا سوف تتمكن من أن تخدمه وتسهل مصالحه. ثم خداع أخفى لا يعلمه إلا الله والراسخون فى الغش (لا شعوريا ؟ ربما). وذلك حين ترشح نفسك إخوانيا (مثلا)، وتتصرف بما يجعل الناخب يعتقد (لا شعوريا أيضا) أنه بانتخابك سيدخل الجنة، مع أنك واثق (شعوريا) أنك لا تملك مفاتيحها، أو حتى لو كنت تخدع نفسك أنك تملكها (لاشعوريا)، فأنت شخصيا لا تضمن دخولها لا بترشيح نفسك، ولا بانتخابه إياك، بل قد يكون فى هذا وذاك توجها للناحية الأخرى.

## ثانيا : مجموعة القيم البدائية (القبيلة - القرية)

حين نتحسر على الماضى جداً، ننسى أننا بذلك نتمنى لو أن الزمن كان قد توقف، وكأن الحل هو أن نحاول إرجاع الساعة. للماضى نبضه وجمالياته وعطاؤه، لكن علينا ألا ننسى أنه ماض، لا يمكن - إلا فى ظروف استثنائية، ولفترات محدودة - أن يكون هو الأفضل، من منا يريد أن يرجع قردا، أو حتى أن يحب بنفس الطريقة التى أحب بها كثير عزة، ولا أقول ابن الملوح أو يعيش تحت حكم المماليك. هذا النحى للإعلاء من قيم الماضى دون تحفظ له آثاره السلبية على حركية منظومة القيم من ناحية، وعلى ما آلت إليه هذه القيم الأقدم التى تحور استعمالها حتى أصبحت رذائل برغم تاريخها وسمعتها.

قيم القبيلة تدعم أخلاق الشللية والوساطة. وهى تنتهى بنصرة أخيك ظالما أو مظلوما، مرورا بـ«أنا وأخويا على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب». أثر هذه القيم على القيم الأخرى مثل العدل وحتى الديمقراطية هو أثر سلبى خطير: كثير من الانتخابات التى تفخر بأنها ديمقراطية جدا مبنية على هذه القيم أولا، وأحيانا: أولا وأخيرا. خطر حضور هذه القيم بثقلها السلبى لا يقتصر على أنها تخل بقيم أنفع وأرقى، ولكن لأنها موضع فخر معلن من كل من يمارسها، برغم كونها خطايا مؤثمة فى كل الأديان. المصيبة أنها تمتد إلى القبيلة الدينية إن صح التعبير، فالذى يجمع أهل دين ما إلى بعضهم البعض ليس بالضرورة الاتفاق الحقيقى فى المعتقد، وإنما هذا الشعور بالأمان الذى يمثله الانتماء إلى القبيلة الدينية التى تنتمى إلى نفس المعتقد. ثم إن كثيرا مما يسمى «أخلاق القرية» ليس إلا تجليات بعض هذه الرذائل التى تسوق على أنها فضائل.

الانتخابات بوجه عام تحكمها هذه القيم أكثر من أية قيمة سياسية أو اقتصادية أو برنامج مستقبلى محدد، لا يستثنى من هذا الاتجاه أى من التجمعات الإثنية والدينية والعنصرية فى لبنان والعراق وأيرلندا وحتى الولايات المتحدة. تكمن هذه القيم وتعلن بدءاً بالوعود الشخصية التى يعدها المرشح لأهل دائرته فى مصر مثلا. حتى مهارة المرشح عندما ينجح فى الحصول على توقيعات الوزير المختص، يتم تقييم «شعبية» المرشح وكفاءته بمدى دائرة اتصالاته القادرة على تحقيق تسهيلات خاصة لأفراد القبيلة. تتبدى مهارته فى أصرح صورة وهو يصطحب العشرات من أهل دائرته إلى القومسيون الطبى العام للحصول على تراخيص العلاج على حساب الدولة، دون سائر المرضى.

الأخلاق الشللية تمتد إلى دوائر أصغر فأصغر حتى تصل إلى ما يسمى «الصالونات الثقافية» الخاصة والعامة، وبرغم ما يدور فيها من بعض التفريغ للاحتقان السياسى، وأيضا بعض النقد الثقافى، فإنها أصبحت مجالا لنوع من التعاون الانتقائى على حساب من هو خارج دائرتهما.

قيمة الشللية لها طيف ممتد من أول تعيين الوزراء حتى الترشيح للجوائز حتى نيلها، (دون تعميم) مرورا بعشرات التشكيلات والتحيزات، وكلها - مع أنها رذائل - هى موضع للفخر والتباهى.

## ثالثا: مجموعة قيم الشطارة

أين تقع «الشطارة» الآن على متدرج منظومة القيم عندنا؟ هل هى أقرب إلى الفضيلة أم إلى الرذيلة؟ الرد الماسخ سوف يقول لك إن ذلك يرتبط بنتيجتها، وفيم تستعمل، من مَن إلى أين. هذا الرد يبدو ردا صحيحا طيبا حذرا، فلماذا وصفته حالا وابتداء بأنه رد ماسخ؟ لأنه رد هروبى غالبا، ذلك أن المتابع لتطور لغة عامة الناس فى الشارع يعرف أن الشطار لم يعودوا أبناء «على الزيبق» المصرى، ولا حتى أولاد أولاد عمومة أرسين لوبين، وإنما أصبح تعبير الشطارة مقصوراً على من يمشى حاله، ويعرف طريقه، ويكتشف نقاط الدخول إلى المحظور دون أن يضع فى المحظور. أنواع الشطارة الرذيلة التى يتباهى بها أغلب الناس، والتى سادت مؤخرا، كثيرة ومتعددة، ولا مجال لتفصيلها (انظر حولك).

**تدرجت فى مجتمعنا ممارسات الغش متسحبة، ثم معلنة، فردية ثم جماعية، حتى أصبحت صنعة متقنة لها مدارسها وأساتذتها، بل وكتبها وبرامجها، يتباهى من يفعلها ويحكى عنها**



## رابعا: مجموعة قيم

### «الشكل» للشكل

أن تفخر بأنك وليت منصب كذا أو حصلت على جائزة كيت. هذا حقك، لكن أن يصل الأمر إلى أن يصبح الكرسي نفسه قيمة نهائية بغض النظر عما يسمح لك أن تقوم به، أو يفرض عليك أن تؤديه، وأن تكون الجائزة في ذاتها هي قيمة قصوى غير قابلة للنقد أو للتمحيص، حتى من نائليها، حين يصير الأمر كذلك فنحن نمسخ الإنجاز الجيد إلى عكسه. إذ تحل الوسيلة محل الغاية تماما ودائما، مما يفرغ الشكل من محتواه. هذا التوجه يصبح أكثر خطرا كلما اقتربنا من مناطق شاع عنها ما يدعو للاحترام حتى التقديس. خذ مثلا مجال البحث العلمي: يتطلب هذا النشاط «المحترم» شروطا بذاتها، وشكلا متفقا عليه، ومواصفات محكمة، حتى يسمى البحث بحثا علميا!! كذلك، لكن الوفاء بأغلب هذه الشروط الشكلية لا يعني بالضرورة أن المحتوى يستأهل صفة البحث العلمي أصلا.

الذي حدث للأسف في هذا المجال، وفي مصر خاصة، أن مهارة الحبكة والشكل والتراسل المستوفي شروط النشر، قد أخذت كلها مسارا مستقلا بذاتها، حتى وصل الأمر إلى أن يكون هم من يقوم بالبحث (ولا أقول هم الباحث) هو أن يتعلم تلك المهارات أولا وأخيرا، ليصبح ناتج عمله محبوك المنظر حتى لو تجاوز كل القيم الأخرى. هذه المهارة الشكلية أصبحت تحتاج إلى خبرة منظمة معقدة معا، الأمر الذي استتبعه ظهور مدارس، ومراكز، وتسعيرة، إما لتعليمها، أو للقيام بها نيابة عن صاحبها، وكله بثمنه. زاد هذا التوجه مؤخرا بما أتاحه الإنترنت من برامج، ومصادر، وأدبيات كاملة ومختصرة، مدفوعة أو مجانا. وهكذا ينتهي الأمر إلى إفراغ البحث من مصداقيته وجدواه بغض النظر عن أين نشر ومتى، المهم – في سياق هدف هذه المداخلة – هو بيان أن من يقوم بمثل ذلك لا يخطر على باله أنه يفرغ وجوده نفسه من فحواه، كما أنه يفرغ المتصب من دلالته، والنشر من فائدته، وهو لا يتذكر عادة أن حسابه قبل وبعد البحث، وقبل وبعد النشر، هو على الله، ولو ألقى معاذيره. بل إن بعض من أتقن هذه الصنعة قد يتبرع بتعليمه الأصغر طرق التوفيق (والتلفيق) والتنسيق كذبا وخداعا، وهو يرى أن في ذلك ثوابا يثاب عليه لأنه ساعد هذا الصغير في بحثه، وخفف عنه مشقة الجدية والمعاناة في طلب العلم.

## خامسا: مجموعة قيم اللاعمل

المفروض أن الانسان «عامل بطبعه» وإلا فلماذا الحياة، وكيف؟ لكن ما آل إليه حالنا هو أن العمل كاد يصبح استثناء عند بعضنا (ما أمكن ذلك) يشمل ذلك تقديس الكسل، والتفنن في تجنب العمل، الاكتفاء «بالذهاب إلى العمل دون عمل» كاد يصبح هو القاعدة، وكأنه إجماع على العصيان المدني. الجهد الذي يبذله من يمارس هذه القيمة لينجح في أن يتحايل على الوقت حتى يملأه باللاشيء، يبلغ – في تصوري أحيانا – قدرا أكبر مما لو كان قد عمل فعلا، حتى أني أشفق على مثل هذا الشخص أنه حرم نفسه من متعة العمل، ولذة الكسل معا. تشكيلات اللاعمل والفخر بها تتضاعف حين يكون الشخص على ميسرة تسمح له بالاستيقاظ بعد العصر، والاستمرار في الوضع ساكنا حتى الفجر.

كل هذا ليس مربط الفرس كما يقولون، ما يهم هنا هو التنبيه بأن هذه القيمة أصبحت موضع فخر في كثير من الأحيان، يدعمها وصف من يعمل بأنه «كرودية» أو غبي، أو على أحسن الظروف «يستأهل».

## المجموعة الثانية:

### القيم الثوابت (بغير وجه حق)

مع حركية تغير منظومة القيم، نرصد في الشخصية المصرية (ربما عند الأكبر فالأصغر) تمسكا ببعض القيم التي يعتبر التمسك بها، كما هي، دون النظر في السياق التاريخي الذي أفرزها، ولا إلى ضرورة تطورها. هذا أمر يحتاج إلى إعادة نظر مهما كانت الصدمة أو النتيجة.

كثير مما شاع على أنه قيمة إيجابية في وقت معين في سياق معين، لم يعد كذلك بل لعل بعضه انقلب إلى أن يكون رذيلة. (عكس الحال في المجموعة الأولى التي انقلبت فيها الرذائل فضائل!) الشخصية المصرية – التي لا ينقصها الإعاقة، وهي تتعثر خطاها إذ تتمسك بما رسخ من هذه القيم حتى تثبتها تثبيتا لا يتناسب مع انتهاء عمرها الافتراضي، وانتهاء الظروف التي نشأت فيها. النتيجة هي أن هذه القيمة التي كانت لها مكانتها المتميزة تصبح ثقلا مربوطا في أقدام أي تطور، ومن ذلك:

#### ١ - قيمة «الثبات على المبدأ»

حكاية يحيا الثبات على المبدأ هذه تبدو فضيلة (قيمة) تصل إلى أن يهتف بها المتظاهرون، ويعاير من يخالفها بأنه متقلب، أو غير وفي، أو حتى خائن لعهده، مع أن الأصل في حركية النمو فردا ومجتمعا هو أن يكون «المبدأ» غير ثابت يتحرك ويتحور مع تطور الزمن وتغير الأحداث. وبالتالي فالثبات عليه هو تثبيت له دون مبرر موضوعي. إن الدعوة لعدم الثبات على المبدأ هي دعوة للإبداع، وما نهي عنه بألا نتبع مبدأ «هكذا وجدنا آباءنا»، هو أمر مفتوح يسري على كل شيء. كل مبدأ لا يستحق التقدير إلا أن يتجدد، خاصة بعد أن يكون قد حقق أهدافه المرحلية.

الشخصية المصرية تتمادي في هذه الوقفة عند الثبات على المبدأ وهي تؤكد أن الذي تعرفه أحسن من الذي لا تعرفه (اللي تعرفه أحسن من اللي ما تعرفوش)، وهي تخشى المفاجآت حتى من أي قادم (يا قاعدين يكفيكوا شر الجايين) هذه الأمثال القديمة ما زالت حية فاعلة حتى تبدو لي الحركة التي يقوم بها ناسنا في بعض الأحيان ليست إلا حركة في المحل (محلك سر) بشكل أو بآخر. هذا الجمود الذي يصف الشخصية المصريه بشكل غالب، قد يسمى أحيانا هدوءا أو تعقلا أو صبرا، لكنه في أغلب الأحيان دليل على فقر الإبداع إن لم يكن فقده. المبادئ الرائعة رائعة، لكنها تزداد روعة حين تكون قادرة على توليد ما هو أروع منها.

#### ٢ - قيمة «الطيبة» (والبراءة)

المشهور عن المصري العادي أنه طيب، هذا المشهور كادت تعريه بقسوة أغنية مصريه بسيطة مشهورة أيضا (بدرجة أقل) يرددها بعض الشباب في بعض الرحلات (زمان على الأقل)، الأغنية تبدأ بأن يقول البعض (أو أحدهم) «فلان ده طيب» فترد المجموعة: «دا لا هو طيب ولا حاجة داهيل وعبيط» (بل إنها تضيف ولا مؤاخذة: «وريالته نازلة على صدره أربع قراريط»). تقترن الطيبة أحيانا بصفات قد تتداخل مع ما نسميه «البراءة»، سواء براءة الأطفال أو ما نطلق عليه «على نياته». كل هذه الصفات لها مكانها في سياقها، لا أكثر ولا أقل. التساؤل هو: هل ما زالت الشخصية المصرية جديرة بأن توصف بالطيبة سواء بالمعنى الإيجابي أو السلبي؟ الجواب عندي أن نعم، هي توصف بالطيبة بالمعنى الإيجابي والسلبي معا، وإن كانت الطيبة الإيجابية قد تراجعت قليلا أو كثيرا، فإن الطيبة السلبية قد أخذت أشكال اللامبالاة والاستسلام

**قيمة الثللية لها طيف ممتد من أول تعيين الوزراء حتى الترشيح للجوائز حتى نيلها، (دون تعميم) مرورا بعشرات التشكيلات والتحيزات، وكلها – مع أنها رذائل – هي موضع للفخر والتباهي**



والانسحاب والأنامالية وفقد الطموح والعجز، الأمر الذى ينبغى أن نتداركه بالبدء فى التفرقة بين الطيبة الإيجابية والسذاجة السلبية، دون التوقف عند الفخر بأن «المصرى طيب» وخلاص.

**٣ - قيمة التوافق (جدا)**

أن تكون مثل الاخرين. هذا هو اسهل الحلول لتعيش فى مصر، وهو حل يلقى قبولا من الانسان المصرى حيث يقبع فى داخله أمران: الأول يبدو إيجابيا (وهو لا شعورى غالبا) تحت زعم أنه واثق من جذوره التاريخية التى تميزه، وأن هذا التشكل الظاهر لن يمس شخصيته الأصلية بتغيير جوهرى. والأمر الثانى هو احتمال أن المصرى تابع مطيع كسول بطبعه، يخاف التغيير، أو ينتظره من خارجه، وهو لا يقدم عليه إلا مع موجة غالبة، أو موجة تعد بأن تكون غالبة. سواء كانت هذه الموجة تسير فى اتجاه سلبى أم إيجابى، سلفى أم ثورى. حقيقى أم زائف.

الذى يحتاج المراجعة هو: متى يكون التكيف مع الأغلبية قيمة إيجابية، ومتى يكون قيمة سلبية، وبالعكس: متى تكون المخالفة إلى العكس المطلق تأكيدا للذات؟ ومتى تكون نفيا للذات؟

الإبداع. هو المخرج الحقيقى من هذا المأزق، وليس الخلف. هذا بالذات هو ما نفتقر إليه فى مصر وباطراد حيث مازالت قيمة الإبداع الحقيقى، وخاصة إبداع الذات. باهتة وتزداد ضمورا فى كل مجال.

**٤ - قيمة الانتماء إلى الحق (الخاص)**

من حق كل واحد منا (من المصريين والناس عامة) أن يتصور ويأمل فى أن يكون على حق: لا أحد يقبل. ناهيك عن أن يختار أن يكون على باطل. كلما كنت على رأس مجموعة من الناس. أو رأس سلطة ما، كان الحق معك أكثر!!. يصح ذلك إذا كنت على رأس الدولة، أو على رأس الجامعة، أو على رأس الشركة، أو على رأس العائلة إلخ. فى مصر، غالبا ما يكون الحق الذى عليه الرئيس (أو الأغلبية) هو الحق الأوحد. أحيانا يكون الاعتراف الصورى بأنى لست على حق يدور فى طريق ملتف راجع يؤدى فى النهاية إلى التمسك بذات الموقف (الذى هو الحق الحقيقى!)، وليس دافعاً إلى احتمال التراجع البناء.

الانتماء إلى الحق والحقيقة لا يكون فضيلة إلا بالتوجه إلى احتمالات مفتوحة، ونحن المصريين، أصبحنا أبعد ما نكون عن ذلك.

**٥ - قيمة التسامح وقبول الآخر**

ما أسهل أن تزعم أن المصرى متسامح، بل ومتسامح جدا، مستشهدا بكيف عاش المصريون معا على اختلاف مذاهبهم وأديانهم قرون عددا، وما أصدق أن تثبت ذلك عبر التاريخ من واقع ندرة التطهير العرقى المرصود، والحروب الأهلية الممتدة، ثم قد تستشهد بعد ذلك إلى عهد قريب، وربما حالا، بتشاهد تبادل المصالح، وطيب المعاشرة، وحسن الجيرة، وحرارة الأحضان.... الخ.

العمق الآخر لمسألة التسامح يحتاج إلى مراجعة، خاصة فى الآونة الأخيرة. انت تصبح متسامحا حقيقيا إذا تبينت حقيقة ماهية الآخر وتفاصيل رأى ومعتقد هذا الآخر بجدية ومسئولية، أولا: لتراه كما هو لعلك تفهمه، تفهم الرأى وتفهم الآخر فى آن، وثانيا: لتأخذ منه ما تعدل به رأيك ومعتقدك باحترام متبادل. انا لا أزعم أن هذا العمق هو موجود عند غيرنا من الذين يزعمون «قبول الآخر» الخطأ الشائع عبر العالم دون استثناء العالم المتحضر جدا، هو القبول الانتقائى الاختزالى لمن نسمية آخر. يتطلب قبول الآخر بالمقاييس الحديثة أن تجهل، أو تتجاهل، أنه «آخر» بكل أبعاده وأغواره، أى أن تغمض عينيك على حقيقة وعمق الاختلاف. يظهر ذلك -مثلا- من خلال الفخر المعلن - ثم الدعوة الملاحقة- بإلغاء خانة الدين من الأوراق الرسمية. هذا الاجراء فى ذاته يبين كيف تعجز عن أن تقبل الآخر إلا بإخفاء بعضه. قبول الآخر الحقيقى يتطلب عكس ذلك تماما. موقف التعصب لا ينشأ من قراءة اسم مواطنك (أو أى شخص) وأمامه ديانته. إن الفخر بقبول الآخر لا يكون فخرا جديرا بالاحترام بمجرد حذف جزء من هذا الآخر (الحل التعامى)، ثم التفويت لكثير من تفاصيل موقفه (تأخذ على قدر عقله). ماذا يتبقى بعد ذلك من الآخر حتى تقبله بعد أن حذفت من وعيك ومعلوماتك غوره الدينى الحقيقى.

**٦ - قيمة التضحية**

يقال ان المصرى يتسم بقدرته على التضحية من أجل الاخرين، وبعض ذلك صحيح. خاصة بالنسبة للأم المصرية. المبالغة فى هذه القيمة دون تحفظ يغفل أن التضحية قد تعنى من عمق ما إلغاء الذات. والذات لا تلغى أصلا إلا أن تلتهم الاخر فتخفيه، أو أن تختبئ فى الاخر لتعوقه. من هنا جاء التحذير من اعتبار هذه القيمة فضيلة على إطلاقها. هذا لا يعنى أننا نحذر من التضحية أو ننكر فضلها. لكن علينا أن نبحث فى الثمن المعلن والخفى الذى يختفى فى ثنياتها للمضحى والمضحى من أجله على حد سواء.

**٧ - قيمة «فض الاشتباك»: بين الناس، وقيصر، والله**

كثيرون هم الذين يعيشون ويرددون قيمة أن «الدين لله والوطن للجميع» فرحين مزهوين طول الوقت، وهم -عادة- من أطيب الناس وأذكاهم وأكثرهم وطنية، ومع ذلك فلا مضر من مراجعة الشعار بجدية جديدة. ظهر هذا الشعار فى موقف تاريخى معين (لعله كان ثورة ١٩١٩) فى مواجهة محتل يلعب لعبة «فرق تسد»، وربما يكون هذا الشعار قد أدى واجبه فى حينه، لكن أن يظل هكذا راسخا فى وعى ناسنا طول هذا الوقت وكأنه الحل الأمثل، فهذا ما يحتاج إلى مراجعة. المتدين الحقيقى يعرف أن الأمر كله لله، (حتى بنص الآية الكريمة)، وحين يكون الأمر كله لله، يكون الوطن لله، والجميع لله، وليس معنى أن الوطن لله، هو أن دينا معينا سوف يحتكر الوطن، ويسجله فى الشهر العقارى، ليصبح أهل هذا الدين هم أولياء أمر إدارة الوطن لحساب الله. أما أن الوطن للجميع فهذا تحصيل حاصل، وتأكيد هذه القيمة لا يضيف ما يضمن تطبيق ما تريده من إرساء العدل واحترام بعضنا البعض.

من نفس المنطلق، وبنفس الدعوة للتأمل، يمكن أن نتوقف أمام قيمة أخرى تبدو دعوة لفض الاشتباك أيضا وذلك فى استعمالنا الهروبى: لمبدأ أن ندع «ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»، الآية وردت فى سياق آخر، الحقيقة أن قيصر ليس له شىء يختص به دون الله رضى أم لم يرض وما لله هو كل شىء لمن أراد أن يمتد فى الناس والزمن والتاريخ إلى ما يعد به تطوره. كل ما فى الأمر ان الله سبحانه لم يعين وكلاء عنه دون سائر البشر، الله سبحانه وتعالى هو رب كل الأديان، واللاأديان، أما قيصر فليس له شىء، حتى لو استحوذ على كل شىء.

## المجموعة الثالثة:

**قيم التطور والوعى بالوعى**

«فروض» حركية القيم الجديدة/ القديمة.

لا يمكن الإحاطة بإيجابية حركية القيم فى مقابل ثبات بعضها، وتشويه بعضها، وعكس بعضها، دون العروج إلى النظر فى مسيرة التطور واحتمالات مسارد. الذين يخافون من قوانين التطور ينظرون إليه من زاوية داروينية مسطحة، أو دينية منغلقة. حركة التطور الدائمة لا تعنى أن تحل قوانين التنافس محل قوانين الجدل والتكيف، ولا أن تحل الحركة للحركة محل القيم الثوابت

**الجمود الذى يصف الشخصية المصرية بشكل غالب، قد يسمى أحيانا هدوءا أو تعقلا أو صبرا، لكنه فى أغلب الأحيان دليل على فقر الإبداع إن لم يكن فقده**

(مرحليا). حركية التطور نابضة ودائمة وممتدة إلى مطلق الكون المفتوح النهاية، إلى وجه الله.

الدراسات الأحدث، حتى للداروينية المتطورة تنبه إلى أن ثمة قيمًا تطورية ليست تنافسية بالضرورة، بل هي عكس ذلك. هذه القيم شاركت في بقاء النوع من جهة والتوازن الحيوي للأنواع من جهة أخرى، خذ مثلا ما ثبت من أن قيمة «الغيرية» altruism لم تكن مقصورة على رعاية الأم صغارها، بل امتدت إلى أفراد النوع، وإلى التوازن الحيوي للأنواع كافة.

## تصحيح مسار القيم بالوعي بإيجابية برامج التطور لتنميتها

يحتاج هذا الجزء إلى مداخلة مستقلة لاحقة تسمح ببعض التفاصيل، فاكتفي بتقديم بعض العناصر والعناوين الأساسية وكذلك ملامح الفروض، حتى نتمكن من عودة ضرورية.

أولا: مارست الأحياء -على مر الزمن- قيما بقائية، هي التي حافظت على استمرارها، لكن دون وعي بها.

ثانيا: عقول ما قبل الإنسان هي البرامج البقائية التي تحولت إلى مستويات الوعي الكامنة لدى البشر الآن.

ثالثا: حين تميز الإنسان بما يسمى «الوعي بالوعي». وأيضا بما يسمى العقل الإرادي التخطيطي، أدرك ماهية هذه القيم، ثم أصبحت لديه القدرة على التدخل في مسارها.

رابعا: لم يكن هذا التدخل إيجابيا طول الوقت، وخاصة في الآونة الأخيرة.

خامسا: بداية تصحيح المسار تبدأ من النظر في البرامج البقائية التي حافظت على الحياة والأحياء، وكيف أن مسيرة الإنسان الأحدث لم تستوعبها بالقدر الكافي، حتى انتهت إلى تقزيم بعضها (أو أغلبها) وتشويه بعضها، وعكس بعضها (انظر قبلا).

سادسا: إن هذه القيم البقائية الأقدم، برغم أنها ليست إلا برامج بيولوجية راسخة، فإنها حين تتجلى في وعي الإنسان حاليا، تصبح واعدة وداقعة بمسيرة التطور إلى ما هو أرقى فأرقى، إلى ما لا نعرف إلا توجهًا (للغيب).

سابعا: إن تشكيلات الإبداع بكل تجلياته هي أهم معالم هذا المسار الواعد، كما أن الإيمان بالإبداع الذاتي هو جماع كل ذلك.

ثامنا: إن بعض ملامح هذه القيم الأقدم قد تظهر متفرقة في تشكيلات بدائية أو نكوصية أو حيوانية تدهورية أو مرضية، وهي لا تكون إيجابية إلا إذا تخطلت كل ذلك إلى التناغم والتجاوز بإعادة التشكيل في اتجاه تناغم الوعي الفائق عند البشر مع الوعي الكوني توجها إلى المطلق ابتغاء وجه الله إبداعاً وتناغما.

تاسعا: تبدو اللغة الرمزية الحالية أعجز عن إطلاق أسماء أو صفات معينة على هذه القيم الواعدة (انظر بعد).

عاشرا: إن التوجه الأحدث لنقد «الفكر الغربي، الذي يقوم به علماء أغلبهم منهم أنفسهم، يتواصل في إرساء قواعد وأسس جديدة لتصحيح المسار ومن ذلك العلم المعرفي وعلوم التواشج والتركيبية وعلوم اللغة الأحدث وغيرها، مما يعد باكتشاف وإحياء وتطوير منظومات قيم جديدة قابلة للتحقق على أرض الواقع بنظم جديدة وعلاقات جديدة خليقة بموقع الإنسان على قمة هرم التطور الذي نعرفه.

## الخـــــلاصــــــة

إن القيم الواعدة بتوجه حركية التطور إلى مسارها ليست مترادفات لمنظومات الأخلاق الفوقية، ولا لمواثيق حقوق الإنسان، أو مواد القانون المكتوبة، وإنما هي القيم التي تبدأ من إيجابيات التاريخ ولا تنتهي عند غيب المطلق، وهي لا تقاس إلا بناتجها التطوري للنوع كافة.

اعتبارا لكل ما سبق من صعوبة تسمية هذه القيم دون تفصيل، كنت أفضل أن أتجنب تقديم عينات لما خطر لي من قيم واعدة في هذا الاتجاه، ومع ذلك، فقد وجدت أن ذلك قد يكون نوعا من الهرب بشكل أو بآخر، فآثرت أن أختم هذه المقدمة بأسماء بعض العينات التي قد تثير التأمل، وتسمح بالعودة مثل: قيمة (فضيلة) الحيرة الطازجة، قيمة الدهشة المخاطرة، قيمة الحس النقي، قيمة الاتقان المتفتح، قيمة الوعي الممتلئ، قيمة الجهل المعرفي، قيمة المعرفة الفعل، قيمة الجمال الحركي، قيمة الغموض المضيء، قيمة الإنصات النشط، قيمة التلقي المبدع، قيمة التأجيل المسئول، قيمة الاقتحام الحر، قيمة الحوار الجسدي الجنسي المعرفي، قيمة العمل البدني، قيمة الإيمان الإنارة.

ولنا عودة. (ما أمكن ذلك). ■

# كتـــاب الـزاويــة

## من أدب الفرس والترك

### روح حيـــرى

«ألقوا أسماعكم! لقد نفخ الروس في الصور، وألقوا بالكم! فإن للطبول دويًا يصم الأسماع. وارفعوا الصوت بالنواح والعويل، فقد رفع المتحاربون الصوت بالتكبير والتهليل. ولتتحطم هذه القيود، فإن الموت يأتي الأسود، ها هو ذا جيش لو رأيتموه ورأيتم النجوم، لتحيرتم، إليه تنسبون الكثرة أم إليها. يا أسدًا كالحمار أو يا حمارًا له هيئة الأسود، إن الدب لا يعلم أيهما أقل في الظفر معه بنصيب الأسد الحمار أم الأسد! هيهات هيهات، لن تتحقق الوعود الكاذبة، إنما نحن مسوقون إلى أبواب الجحيم. أنا من نصحت لكم، فلم تستمعوا من نصحي، أنا من وعظتكم فهزأتم بي وجعلتم كلماتي دبر آذانكم، لقد بدا الدب من وراء الجبل، ورآه حبيبي فحن حنينه وذاب شوقًا إليه، ثم مضى ليلقي بنفسه بين ذراعيه، فكان اللقاء لقاء حبيبين. ويلاه لقد أصبح الشرق من نصيب الدب، والغرب من نصيب الأسد!».

هذا بعض من قصيدة للشاعر الإيراني محمد الباقر، وقد نظمها عام ١٨٨٢ أثناء مقامه ببلاد الإنجليز فسماها (الشميسة اللندنية)، وهي طويلة مفرطة الطول، يتجاوز عدد أبياتها الثلاثمائة والستين، وإذا ما قطعنا النظر عن قيمتها الفنية، ألفيناها وثيقة تاريخية على جانب من الأهمية، فقد صور صاحبها حال إيران في عهد الشاه ناصر الدين، وبين كيف تسلط الأجانب عليها تسلطًا تتأذى به نفس الحر، ولا يرتضيه من عمّر قلبه بحب وطنه.

# الكلى البشرية.. والنفايات.. وفن

**موسى نعيم**

※※ كان الرجل الألماني يبلغ من العمر ثلاثين عاما فقط، وكان من الواضح أن الفشل الكلوي الذي أخذ يجريه لمدة أربعة أعوام يسلبه حيويته ونشاطه. وبالرغم من أنه كان في حاجة لإجراء زراعة، إلا أن قائمة الانتظار كانت طويلة بالنظر إلى ما كان متوفرا من الكلى، وهو ما عنى احتمال أن يمتد الانتظار لسنوات عديدة. وأخيرا قرر الأصدقاء الإسراع من العملية؛ فجمعوا مبلغا كبيرا من المال سعيا للحصول على كلية بأي طريقة أخرى. وسرعان ما ظهر أحد السماسرة الإسرائيليين وعرض على الرجل خيارات عديدة، في مقابل ربع مليون دولار، كان بإمكان الرجل أن يخضع لعملية زراعة سريعة في أحد المستشفيات المميزة مع مراعاة التوثيق الطبي الكامل والمتابعة الشاملة في عدد من الأماكن التي يمكنه الاختيار من بينها: ألمانيا، أو جنوب أفريقيا، أو الولايات المتحدة. وإن كانت تركيا متاحة هي الأخرى، بتخفيض كبير يصل إلى ١٦٠٠٠٠ دولار، وافق الرجل على الصفقة. وبعد أسابيع، خرج من أحد المستشفيات بأسطنبول وقد منح فرصة جديدة للحياة، وجسمه يحمل كلية شخص غريب والذي لن يمكنه أبدا معرفة اسمه، أو نوعه، أو جنسيته.

إنه فقط يوم آخر لشبكات التجارة غير المشروعة: عميل آخر راض عن العملية، ومكسب جيد على ما قد يعتبره الكثيرون منا عضوا ثمينا من أجسادنا وإن كان بالنسبة للتجار مجرد سلعة أخرى. وإن كانت الطبيعة تمقت الفراغ وإذا كان الطمع والجشع جزءاً من الطبيعة البشرية، فإن الجشع أيضا يمقت الفراغ. وهو ما يفسر لماذا لا تترك الفرص المتاحة لتحقيق الربح أبدا فترة طويلة قبل أن يتم انتهازها، حتى وإن كان الإنسان بها غير مشروع. ولا يجب أن نندهش لمعرفة أن الشبكات التي تتمتع بالقدرة على نقل السلع غير المشروعة عبر الحدود قد امتدت إلى مناطق جغرافية جديدة كما أضافت خطوط منتجات أخرى إلى جانب خطوطها الحالية. وكما هو الحال دائما في عالم الأعمال: يقوم الوافدون الجدد بالكشف عن الفرص الجديدة والانطلاق لاستغلالها قبل أو بدلا من اللاعبين القدامى. وغالبا ما يتطرق الداخلون الجدد إلى المناطق الجديدة في السوق التي لم يتطرق إليها أحد من قبل والتي تبرز بفضل ظهور مصدر جديد للتوريد، أو مجموعة جديدة من العملاء، أو التقنيات الجديدة.

> **إن التجارة العالمية في الكلى البشرية تمثل إحدى الأسواق التي لم تكن موجودة لفترة طويلة بالنظر إلى تاريخ البشرية وإن كانت تزدهر الآن بفضل التقنيات الحديثة**

إن التجارة العالمية في الكلى البشرية تمثل إحدى الأسواق التي لم تكن موجودة لفترة طويلة بالنظر إلى تاريخ البشرية وإن كانت تزدهر الآن بفضل التقنيات الحديثة. كما أن انتشار عمليات النهب في بغداد في ٢٠٠٣، بما في ذلك متحف الآثار الرئيسي، قد أسهم في تجديد مصادر التحف المسروقة، مثلما فعل انهيار الاتحاد السوفيتي. ويتطلب وعينا البيئي الحديث وضع قواعد حكومية جديدة ترفع بدورها من التكاليف المصاحبة لعملية معالجة النفايات والفضلات الصناعية وهو بالتالي ما يمثل فرصة لهؤلاء الذين يجيدون التخلص منها بصورة سريعة وغير مكلفة. وفي هذه الحالة، فإن السرعة وقلة التكلفة غالبا ما تعني التخلص منها بصورة غير مشروعة وفي دولة أخرى. وتوجد أسواق عالمية أخرى محظورة غير أنواع التجارة الضخمة الخمسة التي تم تناولها في الفصول السابقة، والتي شهدت أيضا نموا واضحا خطورة والتي تم التطرق إليها في الفصول السابقة. كما أنها أيضا تحاول اللحاق بالقيمة التي تحققها أشكال التجارة الأخرى الأضخم وإن كان من الصعب تأكيد ذلك، تحديدا لأن القوانين المحلية والعالمية ما زالت غير واضحة فيما يتعلق بتعريفها كما أن البيانات المتاحة غير كافية. إلا أنه مما لا شك فيه هو أن كل هذه الأنواع من التجارة تنمو، وهو ما لا يثير الدهشة نظرا: لأن كلاً منها يعتبر بطريقة ما منتجاً جانبياً لنفس التغيرات الفنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تصاعدت منذ التسعينيات. فتجارة الأعضاء تعتبر نتيجة للابتكارات العلمية الضخمة والانتشار الواسع للأجهزة، والأدوية، والطرق الجراحية الجديدة في مجال زراعة الأعضاء والتي تهدف بدورها إلى إطالة عمر الإنسان. وترتبط التجارة غير المشروعة في الفصائل المهددة بالانقراض بقوة مع انتشار المناطق السكنية، في العقد الماضي أو ما إلى ذلك كما تدفعها نفس القوى المحركة. وتعمل الشبكات التي تقوم بنقل سلع أكثر غموضا أو «ملائمة» - الأعضاء البشرية، الفصائل المهددة بالانقراض، النفايات السامة، الأعمال الفنية المسروقة - باستخدام نفس الأساليب التي تعتمد عليها أشكال التجارة الأخرى المألوفة.

إن هذه الأنواع من التجارة - وغيرها مثل السيارات المسروقة، أو قطع الأشجار بصورة غير مشروعة، أو السجائر المهربة - تعتبر «ثانوية» فقط من منطلق أنها لم تتعرض لنفس الدرجة من البحث الرسمي أو التغطية الإعلامية أو أثارت نفس القدر من انتباه الجماهير مثلما فعلت أشكال التجارة غير المشروعة الأكثر واحتياجنا للموارد الطبيعية، وأذواقنا فيما يتعلق بالطعام والرفاهية. وتنشأ تجارة النفايات، ببساطة، من الاستهلاك. أما التجارة في الأعمال الفنية المسروقة - بالرغم من أنها ترجع إلى تاريخ الفن نفسه - فقد انتشرت نتيجة الاضطرابات السياسية التي أثارت جانب العرض وإصلاحات السوق والنمو الاقتصادي، التي أنعشت جانب الطلب من خلال رفع الإمكانيات المادية للأثرياء. فلتسمها الظلمة وسط النور - فأشكال التقدم التي نقدرها ونسعى إليها تولد أيضا العديد من الفرص الشائنة للتجارة وتحقيق المكسب.

## الأعضاء بلا حدود

إن الكلى تمثل نشاطا تجاريا ضخما، وهو ما ينطبق أيضا على باقي أعضاء الجسد الأخرى: القرنية والكبد والبنكرياس لاستخدامها في عمليات الزراعة؛ والقلب والرئة والأعضاء التناسلية لصناعة الأدوية والتركيبات التقليدية. وهناك بعض المواد الجسدية المتاحة بالفعل للبيع، ففي العديد من الدول يتم الدفع مقابل الحصول على «تبرعات» الدم والسائل المنوي، كما يتم الإتجار في البلازما والنخاع بين المؤسسات الطبية. إلا أن الأعضاء الداخلية أمر مختلف، فلا يوجد هناك قانون دولي لتعريف وتنظيم التجارة فيها. أما القوانين المحلية فتتفاوت، ما بين تلك الدول التي قامت بحظر بيع جميع أنواع الأعضاء إلى غيرها التي سمحت لسماسرة الأعضاء بممارسة تجارتهم بحرية، في حين أن الكثيرين لم يتطرقوا إلى إمكانية بيع الأعضاء، ليتركوا بذلك القضية معلقة في المنطقة الرمادية المشروعة. وفي نفس الوقت فإن جانبي العرض والطلب يشهدان نموا سريعا. فانتشار التقنية الطبية وامتداد عمر الإنسان في الدول الغنية قد أبرز مجموعة من المرشحين لعمليات الزراعة. إن الصورة الذهنية الكئيبة للمستقبل والبؤس يجعلان من منح الأعضاء الحية خيارا مقبولا جدا، بل وجذابا للفقراء في العديد من الدول، كما أن غياب الحماية القانونية تعني أن المانحين المتوفين - نتيجة المرض أو الحادث أو جراء العملية - لديهم اختيار محدود فيما يتعلق بهذا الأمر.

إن هذا يمثل في مجمله، ظروفاً


Illicit: How Smugglers, Traffickers and Copycats are Hijacking the Global economy
Moises Naim
New York: Doubleday, 2005

تجارة غير مشروعة
كيف يقوم المهربون والتجار غير الشرعيين والمقلدون بالسيطرة على الاقتصاد العالمي
موسى نعيم
الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٦

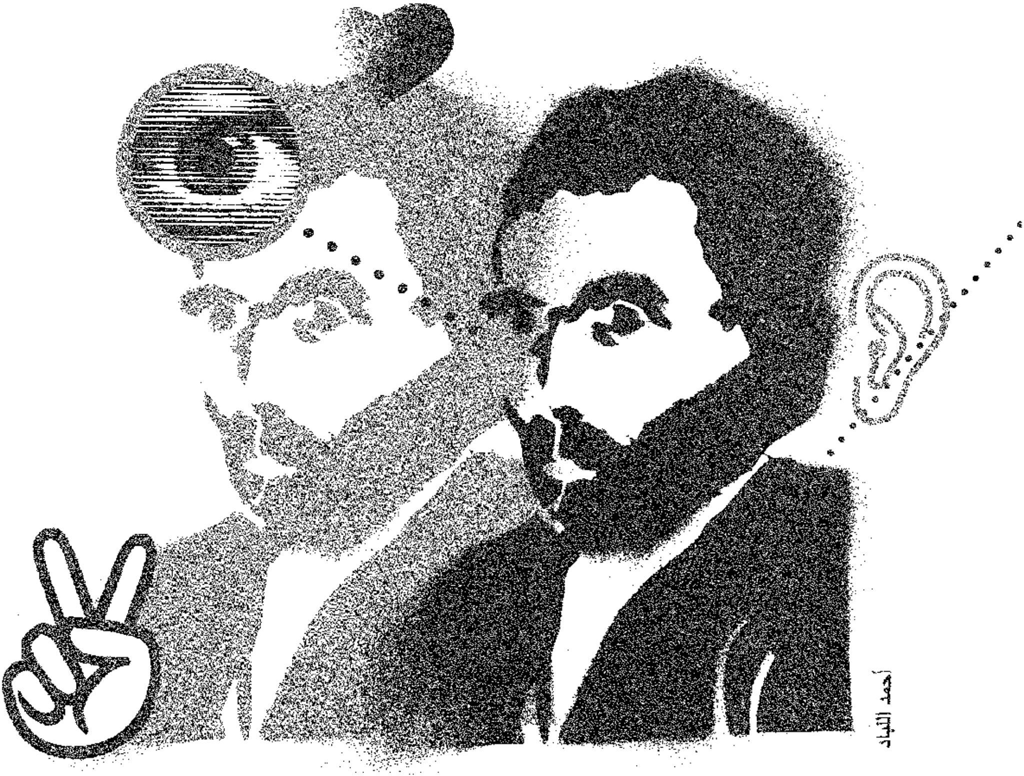

ترجمة: لمياء صلاح الدين الأيوبي

# جنوب: تجارة غير مشروعة

ممتازة للسوق العالمية. ومن أجل ربط المشترين العازمين مع البائعين (الأكثر أو الأقل حماسا)، برزت شبكة عالمية متطورة الى حد كبير والتى تشمل بدورها مجموعة من الأطباء والجراحين، والجهات الناقلة، ومديرى المخازن، والقائمين باختيار المتبرعين، والمسئولين الحكوميين الذين يشتركون بعضهم فى تجارة الأعضاء مقابل رشاوى أو رسوم يتقاضونها. وتجمع تلك الدول التى تعمل كمركز لعمليات الزرع غير المشروعة التى يتم فيها أخذ العضو من متبرع حى بين المستشفيات المجهزة على أعلى مستوى وأجهزة الرقابة المتساهلة أو الفاسدة. وتعتبر بعض تلك الدول نفسها مثل الهند، والصين، والبرازيل، مصدرا رئيسيا للأعضاء. أما البعض الآخر مثل تركيا وجنوب أفريقيا، فيميل إلى استضافة عمليات الزرع «للمانحين» الذين يفدون من أماكن أخرى: البرازيل، وموزمبيق، ورومانيا. ويقوم العديد من السماسرة المعروفين بإدارة نشاطهم من اسرائيل، حيث اجازت القوانين منذ مدة طويلة العمل فى هذا المجال. أما الآخرون فيحلوفون فى فضاء الإنترنت، ويقومون بتقديم الخدمات وربط المشترين والبائعين من خلال الشبكة، بالإضافة إلى الأطباء الذين يقومون بالإعلان مباشرة من خلال مزاد ليعلنوا بذلك عن عدم حاجتهم إلى وجود وسيط. ونتيجة لهذا، فإن مثل هذه التعاملات تتجاوز الحدود والمحيطات. فإحدى العمليات التى تم إغلاقها فى ٢٠٠٣ امتدت من رسيف Recife إلى تل أبيب، فى حين كان يتم إجراء العمليات فى أحد المستشفيات المتميزة الموجودة بجنوب أفريقيا.

كما تشهد أيضا تجارة الأعضاء المأخوذة من المانحين المتوفين انتعاشا. وإن كانت تتميز بإمكانية طلب وشحن هذه الأعضاء بكميات كبيرة. وبالاعتماد على تقنيات التعبئة الصحيحة والفترة الزمنية القصيرة نسبيا للنقل، يمكنك إحضار أحد الأعضاء على طائرة داخل أمتعتك الشخصية المحمولة، أو حسب الوسيلة التى تعتمد عليها، عن طريق تأجير الطائرة النفاثة الخاصة بك. لقد انتشرت تقنية الزرع الآن، والتى كانت فيما سبق تعتبر غير تقليدية ومتخصصة إلى حد كبير، فالسيكلوسبورين، وهو أحد الأدوية التى تقوم بالحد من الخطر المتعلق برفض الجسد المستضيف للعضو المزروع، قد أصبح متوافرا. وهكذا، لم يعد من الضرورى أن يكون الجراحون القائمون بعملية الزرع خبراء نابغين يتمتعون بمهارات وقدرات فائقة، فأى جراح مختص يمكنه، نظريا، إذا ما توفرت له المعدات والأجهزة الصحيحة إنشاء عيادة لزرع الأعضاء، والكثيرون يقومون بذلك.

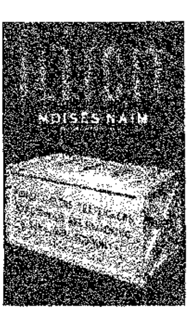
تمثل الكلى القوة المحركة لتجارة الأعضاء. فليس هناك من العرض ما يكفى من الكلى لإشباع الحاجة إلى الزراعة فى الدول الغنية، ولا تزداد الفجوة إلا سوءا. ففى الولايات المتحدة، على سبيل المثال، شهدت التبرعات المأخوذة من مانحى الأعضاء المتوفين زيادة طفيفة خلال التسعينيات، فى حين ☜



تضاعفت قائمة الانتظار للزراعة أكثر من ثلاث مرات. وهكذا فقد توفرت ٨٠٠٠ كلية فقط سنويا، في حين أن أعداد المرضى المتراكمة وصلت إلى ٨٠٠٠٠. ويشيع مثل هذا القصور أيضا في الدول الغنية الأخرى. إن الفشل الكلوى مرض منتشر عالميا، إلا أن في الدول الأغنى حيث الأعمار أطول ومستوى الخدمات الصحية أعلى فإن المرضى أصبحوا أقل عرضة للموت أو الاستسلام وغالبا ما يلجأون لإجراء عملية زرع. وفى الدول الغنية، ينتمى غالبية متلقى الأعضاء التى يتم الاتجار فيها بصورة غير مشروعة إلى الصفوة الاقتصادية المتميزة.

وليس هناك عجز فى المشترين، ففى البرازيل، والهند، والفلبين، ورومانيا، وغيرها، أصبح بيع الكلية وسيلة شائعة للحصول على النقود، خاصة بين صغار السن من الرجال والنساء والذين أحيانا ما يعلنون صراحة عن أنفسهم، موفرين بذلك الجهود المضنية التى يبذلها الباحثون. إن السعر الحالى نادرا ما يتعدى ١٠٠٠٠ دولار. فالقيمة الأكثر شيوعا والتى تتراوح ما بين ٢٠٠٠ و٥٠٠٠ دولار غالبا ما تكفى لجذب المشترين من تلك الأقاليم حيث يتجاوز فيها القيمة متوسط الراتب السنوى. أما فيما يتعلق بالأسعار المفروضة على المتلقين، فإن الارقام المعلنة تتغير حسب المكان، وإن كانت مرتفعة عالميا. قام أحد الإسرائيليين البالغ من العمر أربعين عاما بدفع ١٠٠٠٠٠ دولار. السعر الأساسى للصفقة - نظير عملية زرع فى جنوب افريقيا. وفى المقابل، يحصل أحد السماسرة على ما قد يصل إلى نصف مليون دولار من الأثرياء العرب الذين يقومون باجراء عمليات الزرع فى «المستشفيات العالمية الشهيرة». وبالنظر إلى هذه المبالغ، فإن جودة الخدمة تعد أمرا لازما. فبعض السماسرة يقدمون العملية مصحوبة بتذاكر طيران من الدرجة الأولى وجولة محلية لمشاهدة المعالم السياحية. أما بائعو الكلى فلا يتمتعون بهذه الرفاهية: حيث يتم احتجازهم فى مخازن الموانىء ونقلهم بأسرع ما يمكن إلى داخل وخارج الدولة والمستشفى التى يتم فيها إجراء الزراعة. وليس هناك أى متابعة أو حماية من المضاعفات. ومن المفزع، أن التجارة الدولية غير المشروعة لتجارة الأعضاء تتشابك بصورة قوية مع الإتجار الدولى غير المشروع فى البشر. فمجموعة المهاجرين الفقراء، غير الشرعيين، الخائفين، الجائعين، والذين لا يتمتعون بأى حماية قانونية، يمثلون صيدا جذابا للشبكات العالمية التى تسعى لإشباع طلب غير محدود تقريبا على الأعضاء.

إن هذه الحالات على الأقل تضمن بائعين راغبين فى التبرع. ولكن الساحة تعج بقصص مرعبة عن «التبرعات» التى تتم بالقوة. فالهند والبرازيل مليئة بقصص عن المرضى الذين يتم تخديرهم لإجراء عملية بسيطة ليجدوا أنفسهم بعد أن يفيقوا وقد خسروا كلية -- إنها ليست خرافة مدنية، وإنما تجارة ضخمة. (فقد تم إبلاغ إحدى السيدات بعد إجراء جراحة لها أن قنوات المثانة قد تضخمت جدا لدرجة أنها قد التفت حول كليتها.) وفى بعض الحالات، يتم إغواء المتبرعين بفرص العمل فى الخارج. وما أن يتم نقلهم إلى الخارج ويفقدوا أى فرصة للهرب حتى تنكشف نوايا السمسار الحقيقية. وعندما يحتضر المذكور أو يتوفى، يمكن انتزاع أى عدد من الأعضاء، وهو ما يفتح الباب لمجموعة من السيناريوهات المخيفة. فالأيتام أو «أطفال الشوارع» الذين لا أهل لهم - وهى فئة متنامية فى العديد من الدول بفضل الضغوط الاقتصادية، والحرب، والمخدرات، وأمراض نقص المناعة (الإيدز) HIV/AIDS - معرضون للخطر. وفى أذربيجان اختفى عدد من الأطفال خلال نقلهم من دور الأيتام إلى المستشفيات، وتشتبه الحكومة فى أنه قد تم قتلهم من أجل الحصول على أعضائهم. وفى أفغانستان، يمثل توظيف الأطفال سعيا إلى تصديرهم من خلال باكستان للعمل فى المنازل أو لممارسة الجنس أو لانتزاع أعضائهم نفس العملية، الفرق الوحيد هو مصير الطفل النهائى.




وقد تم استخدام السجناء كمصدر للأعضاء فى ظل الحكم الاستبدادى فى فترات مختلفة فى الأرجنتين، والبرازيل، وتايوان. ويعتبر نظام السجن الصينى اليوم مصدرا رئيسيا للأعضاء لكلتا السوقين المحلية والعالمية. وفى جزيرة هاينن Hainan Island قام أحد الوسطاء بعرض إحدى الصفقات الضخمة على الناشط هارى وو Harry Wu، والذى كان يعمل متخفيا وهى أعضاء خمسين سجينا على مدار عام، بأسعار تتراوح من ٥٠٠٠ دولار لزوج من القرنية وحتى ٢٥٠٠٠ دولار مقابل الكبد. وفى حالة أخرى، أبلغ أحد الأطباء أنه قد شهد عملية نزع كليتى أحد السجناء الأحياء والذى كان من المفترض أن يتم إعدامه فى اليوم التالى. وتحصد السلطات العوائد المتحققة من بيع أعضاء السجناء. ويشتبه بعض الباحثين فى أن سوق الأعضاء المربحة يمثل سببا اضافيا لتفسير سبب قيام الصين بتوسيع قاعدة الاتهامات العظمى، فزيادة عمليات الإعدام تعنى ربحاً أكبر.

لا يتم توجيه كل الأعضاء إلى سوق الزرع. فبعضها يتم استخدامه فى أبحاث الصيدلة. بينما تحتاج كليات الطب إلى جثث كاملة. وفى بعض الدول الأفريقية تنتشر القصص حول الأعضاء - المخ والقلب والرئة والكبد والأعضاء التناسلية الذكورية والأنثوية - والتى يتم استخدامها كمكونات فى الأدوية التقليدية، سواء للاستخدام المحلى أو التصدير. وتعتبر المناطق التى تجرى فيها الحروب الأهلية حاليا تحديدا من المصادر الغنية. ففى الجزء الذى مزقته الحرب والواقع فى شمال شرق جمهورية الكونغو الديموقراطية، على سبيل المثال: هناك تكهنات قوية تشير إلى أن الميليشيات تقوم ببيع الأعضاء إلى المشترين العالميين - تماما مثل أى سلعة أخرى إلى جانب الكولتان، والنحاس، والألماس، والأسلحة، والمجندين من الأطفال، وعبيد الجنس والذين يتم الإتجار فيهم بصورة غير مشروعة تحت ستار الصراع القائم فى الإقليم. وقد تم قتل إحدى الراهبات البرازيليات بموزمبيق فى ٢٠٠٤ بعد أن شرعت فى البحث وراء حقيقة أجساد الشباب والأطفال التى تم العثور عليها بعد أن تم نزع أعضائهم الحيوية.

ربما يبدو من المروع أن الجسد البشرى فى العديد من الأماكن قد استمد قيمته كمصدر لقطع الغيار بدلا من الرجوع إلى قدراته الذهنية أو العضلية. ومع هذا فإن التفاوت الاقتصادى العالمى، والأمراض، والصراع من جهة، وسهولة الإعلان، والتوظيف، والسفر من جهة أخرى، قد نتج عنه مجموعة من الظروف المناسبة لممارسة تجارة مربحة. وحتى فى تلك الأماكن التى تم فيها حظر هذه التجارة بصورة واضحة، فإن التجار غير الشرعيين قد أوجدوا طرقا لتجاوز هذه القوانين. فالمحققون فى البرازيل شهدوا «هدايا» من الكلى البشرية - والتى لم يتم دفع أى مقابل لها ظاهريا، وبالتالى اعتبرت قانونية - بين المرضى والذين تتفاوت ظروفهم بصورة واضحة ولا يربطهم ببعضهم البعض معرفة سابقة، إلا أنه لم يكن بمقدورهم التدخل دون وجود دليل مادى على إجراء الصفقة. إن الحل ليس واضحا، كما أنه حافل بالتحديات القانونية والأخلاقية الصعبة. وبالرغم من أن بعض المسئولين عن الحملات الانتخابية يطالبون بقوانين ونظم للتطبيق أكثر صرامة، فإن آخرين، بما فيهم إسرائيل والولايات المتحدة، قد بدأوا فى تشريع أحد أشكال تجارة زراعة الأعضاء بصورة قانونية ومنظمة. وفى ظل الظروف الراهنة، فإن القوى الهائلة للعرض والطلب والأرباح الطائلة الممكن تحقيقها تحد من فرص إنهاء هذه التجارة بأى طريقة.

## عندما تمنى النفاية ثروة

برز مفهوم «المركب المتجول» إلى الوعى العام فى ربيع عام ١٩٨٧. فقد قام مركبان متهالكان، واحد من نيويورك والآخر من فيلادلفيا، بالدوران فى المحيطات لعدة شهور بحثا عن مكان للتخلص من شحنتيهما، أطنان من رماد المواقد السامة. وعادت Mobro إلى نيويورك بعد ثلاثة أشهر بعد أن واجهت رفضا من دولة كاريبية وراء الأخرى. أما Khian Sea، التى تقوم بتشغيلها إحدى الشركات بجزر الباهاما والمسجلة فى ليبريا، فقد انطلقت فى رحلة أطول بكثير. فبعد أن تم طردها من جزر الباهاما، وبرمودا، والجمهورية الدومينيكية، وجزر انتيل الهولندية The Netherlands Antilles، وغينيا بساو بغرب أفريقيا، ظهرت فى Gonaives



بهايتى، حيث قامت بالتخلص من ٤٠٠٠ طن من الرماد على الشاطئ. وقد حددت أوراق الميناء أن الحمولة كانت عبارة عن سماد. ولأن حمولتها كانت لا تزال ثقيلة، فقد عادت المركب مرة أخرى إلى فيلادلفيا لتظهر مرة أخرى فى يوغوسلافيا بعد أن تمت إعادة تسميتها بـFelicia ، لتستقر أخيرا فى سنغافورة وقد تخلصت من الرماد. فالقبطان قرر ببساطة التخلص من ١٠٠٠٠ طن المتبقية فى عرض المحيط.

ويشير استعراض هذه الحوادث القديمة التى تم فيها التخلص من النفايات على المستوى الدولى إلى زمن كانت فيه هذه العمليات أبسط بكثير. فالتجارة غير المشروعة فى النفايات السامة تعتبر اليوم جزءا من ظاهرة أشمل «الجريمة البيئية» لتكتمل فى ظل وجود الشبكات المتخصصة - شركات وهمية تعمل كواجهات فى العديد من الدول، وتركيبة مالية معقدة، وعلاقات وطيدة مع السياسيين، والجنرالات، والعملاء المسئولين عن تطبيق القانون فى الدول الرئيسية، والنطاق العالمى الذى تجرى فيه العمليات. ولا تشمل التجارة البقايا والرماد الكيمالى فحسب، وإنما تشمل أيضا مكونات أجهزة الكمبيوتر والتليفزيون، والهواتف الخلوية، والثلاجات، والسفن، والكثير إلى غير ذلك. وفى نفس الوقت، فإن محاولات التخلص من النفايات بالصورة التقليدية لا تزال قائمة. حيث يشير أحد المشتركين فى الحملات الإيطالية، إلى أن الصومال، نظرا لغياب حكومة فعالة منذ عام ١٩٩١، تضم الآن ثلاثة مدافن للمواد المشعة والتى يتعامل معها العاملون دون الاعتماد على أية أجهزة وقائية. كما يشتبه فى أن السودان، وإريتريا، والجزائر، وموزمبيق تمثل أربعة منافذ أخرى للتخلص من النفاية النووية الإيطالية، والتى يتم التخلص منها إما برا أو عن طريق الصهاريج الغارقة - أو السفن الكاملة - فى مياه المنطقة.

وتعكس تجارة النفايات العالمية الحقائق السياسية، بالإضافة إلى كونها أحد أشكال الكفاءة الاقتصادية المخيفة. فالدول الغنية، والتى تولد كميات ضخمة من القمامة، تستند إلى منطق «إنها ليست فى ساحتى الخلفية» إلى أقصى حد حيث تسعى إلى تصدير نفايتها متى أمكنها ذلك. ومن المحتمل أن تخضع الدول الفقيرة أو النخبة الحاكمة فيها للإغواء وتقبل العرض. هذا بالإضافة إلى أنه من الصعب التمييز بين النفاية السامة والنظيفة، فى غمار التجارة الضخمة والمشروعة فى السلع التى يتم إعادة تصنيعها - من أتوبيسات المدينة المتهالكة إلى السيارات المستعملة وحتى أكوام الملابس المستعملة والتى أصبحت الملابس المعتادة لجيل كامل من الشباب الأفريقى. ويسهم النشاط التجارى المتعلق بإعادة التصنيع فى خلق فرص العمل وزيادة الدخول: يعتبر تفكيك السفن أحد النشاطات التجارية الرئيسية بالنسبة للهنود والأماكن الأخرى التى يتم فيها بناء السفن وترميمها، وبصورة أكثر انتشارا وعشوائية، يعتبر جرد النفاية مصدرا رئيسيا للمواد فى العديد من أشكال تجارة الشوارع فى الدول النامية.

إن مثل هؤلاء المحترفين الذين يقومون بجرد وإعادة تصنيع النفاية هم

**تعكس تجارة النفايات العالمية الحقائق السياسية، بالإضافة إلى كونها إحدى أشكال التفاوت الاقتصادى المخيف. فالدول الغنية، والتى تولد كميات ضخمة من القمامة، تستند إلى منطق «إنها ليست فى ساحتى الخلفية»**

الأكثر عرضة للخطر. فعندما قامت Formosa Plastics of Taiwan بالتخلص من الرماد المغطى بالزئبق (والناتج عن تصنيع الـPVC) بجوار إحدى القرى الكمبودية فى عام ١٩٩٧، استخدم المحليون أياديهم العارية وحتى أسنانهم من أجل الحصول على الغلاف البلاستيكى الذى يغطى كتل الرماد دون أن يعرفوا محتوياته. وفى الصين، وباكستان، والهند، والدول الأفريقية، يتعرض العمال الذين يقومون بتفكيك الإلكترونيات والسلع المنزلية الأخرى إلى الحمض، والرصاص، والتكسين الناتج عن إحراق البقايا المتخلفة. وقد أصبحت منطقتان على الأقل فى الصين، جويو Guiyu وتايزهو Taizhou، مركزين لهذا النشاط ومن ثم فقد عانيا من معدلات تلوث رهيبة؛ ويشير العاملون فى الحملات إلى أن جميع الآبار فى جويو قد تلوثت ومن ثم فقد أصبح من الضرورى أن يتم جلب الماء عن طريق الشاحنات.

إن القوانين المتعلقة بالتجارة فى النفاية القائمة ليست متكاملة بصورة تامة بعد. فمعاهدة بازل Basel Convention المتعلقة بهذه التجارة، والتى تم توقيعها فى عام ١٩٨٩ وتطبيقها منذ ١٩٩٢، قد تمت الموافقة عليها من قبل ١٦٠ عضوا؛ وتعتبر الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة من ضمن الدول المتقدمة التى لم توافق على الاتفاقية. ومع هذا فإنه حتى فى الاتحاد الأوروبى حيث يحظر تصدير النفايات السامة نظريا، تؤكد إحدى الدراسات الرسمية لستة موانئ كبرى أن ما يقرب من ربع صادرات النفايات غير مشروعة. وقد تضمنت الوسائل المعتادة المستخدمة تزوير المستندات المصاحبة أو نقل المواد من ميناء إلى آخر داخل الاتحاد الأوروبى مما يجعل من الصعب اقتفاء أثرها، عن طريق إعادة تغليفها وتغيير البيانات فى الطريق. وغالبا ما نجحت المواد السامة فى المرور ببساطة لأن السلطات المسئولة عن الموانئ قد وجدت صعوبة فى التمييز بين الشحنات المشروعة وغير المشروعة.

وكالعادة، تقوم هذه الشبكات العاملة فى التجارة غير المشروعة باستغلال هذا الغموض. وفى إيطاليا، حيث أصبحت مثل هذه التجارة غير المشروعة أمرا مألوفا على المستوى المحلى والعالمى (يتم التخلص من النفايات السامة المأخوذة من الشمال فى الجنوب): برزت ecomafia ضمن المفردات المستخدمة، لتشير إلى مرتكبى الجرائم والممارسات التى يقومون بها فى نفس الوقت. وبالطبع، ارتبط عدد كبير من الحوادث المحلية بمنظمات Camorra، وصNdranghetta، وCosa Nostra - والتى تذكرنا بتورط المافيا فى تجارة النفايات فى الولايات المتحدة. وكما يشير أصحاب الحملات الإيطاليون، فإن تعبير ecomafia مضلل. فتجارة النفايات غير المشروعة، فى إيطاليا وغيرها، فى الواقع، تتضمن شبكات وقد لا تنطوى على جريمة منظمة، تتواجد فيها المنظمات المشروعة وغير المشروعة سويا، أو قد تتحالف، أو تقدم خدماتها لبعضها البعض حسبما تفرض الظروف.

## الاتجار فى الجو

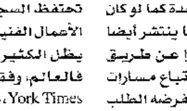
عُرف الكلوروفلوروكربون (choloroflueocarbons) (CFCs) منذ مدة طويلة، والشائع استخدامه للتبريد، كعامل رئيسى لتآكل الأوزون. وتعتبر الاتفاقية العالمية التى تسعى إلى إنهاء استخدامه، والمعروفة باسم بروتوكول مونتريال Montreal Protocal، وفقا لبعض المقاييس واحدة من أنجح الاتفاقيات فى العالم. فعدد الأعضاء ارتفع من ٢٧ عضواً من الموقعين الأوائل فى عام ١٩٨٨ إلى ١٨٨ دولة فى ٢٠٠٤. وقد لاقى البروتوكول قبولا واضحا بالنظر إلى المدخل العملى الذى تقوم عليه، فتسمح الاتفاقية بالتجارة فى الكلوروفلوروكربون المستخدم المأخوذ من المعدات الصناعية. كما تمنح الدول النامية المزيد من الوقت حتى تقلع عن استخدام هذه الكيماويات، سامحة لها بالاستمرار فى استخدام «حد أدنى للاستخدام المنزلى» بينما تقوم باستبدالها بالكيماويات البديلة والتقنيات الجديدة. وميدانيا، يجب وقف العمل بالكلوروفلوروكربون بحلول عام ٢٠١٠.

إلا أن السوق لديها فكرة مختلفة. فحين بدأ تطبيق القواعد الخاصة بالرقابة على الكلوروفلوروكربون، بدأت التجارة التى تقوم بانتهاك هذه القواعد بالنمو والانتعاش، حتى وصلت إلى ٣٠٠٠٠ طن و٣٠٠-٤٥٠ مليون دولار سنويا. ومن ثم، فإن الصناعات الشائعة فى الدول النامية لا تتحول إلى الكيماويات البديلة حسب المعدل المخطط: فالأسعار السوقية للكلوروفلوروكربون ما زالت منخفضة، فى حين أن قيمة الكيماويات البديلة، والمفترض أن تنخفض بانتشار استخدامها، بدلا من ذلك لم تنخفض. وما زال الاتحاد الأوروبى، حيث يتم تطبيق الحظر على حجم الإجمالى المستخدم، يُعتبر أحد المنتجين الرئيسيين

للكلوروفلوروكربون والموجه بدوره للسوق العالمية المشروعة. ولكن الكلوروفلوروكربون الناتج من هذا الإنتاج ينتهي به الحال أيضا كسلعة مهربة، حيث يتم وضع بيانات غير صحيحة على الصهاريج أو يتم تهريب هذه الصهاريج ضمن الكيماويات الأخرى المسموح بها، أو يصب الكلوروفلوروكربون داخل عبوات أصغر والتي يتم إخفاؤها داخل أقفاص المنتجات الأخرى، أو وضع بيانات عليها تخص زيت تشحيم أو دهان. كما تظهر شحنات الكلوروفلوروكربون غير المشروعة في الولايات المتحدة أيضا، في حين تشير البيانات الموجودة إلى وجهات أخرى، أو يتم تسجيلها ككيماويات أعيد تصنيعها، والتي تسمح بها الولايات المتحدة، مع العلم بأن هذه الكيماويات قد يكون تم تصنيعها حديثا.

نادرا ما يتواصل مُصنّعو ومستهلكو الكلوروفلوروكربون. فمثل هذه التجارة تقوم بدلا من ذلك بالاعتماد على السماسرة والوسطاء، والذين يقومون بدورهم بخلط التجارة غير المشروعة مع العمليات والتجارة المشروعة في السلع الأخرى. قام أصحاب الحملات بوكالة التحقيقات البيئية Environment Investigation Agency (EIA) بإرسال شرطيين سريين إلى سنغافورة - والتي تعد مركزا للتجارة، بالإضافة إلى دبي - متخفيين كشركة تجارية تسعى لنقل الكلوروفلوروكربون إلى جنوب أفريقيا، والتي تحظر مثل هذه الواردات. ولم يجد هذان الشرطيان صعوبة في تأمين بعض العروض للتسليم الفوري؛ في حين قام السماسرة بعرض الطرق المبتكرة التي يعتمدون عليها لتجاوز الحظر المفروض صراحة: بما في ذلك المستندات المضللة، والصهاريج التي تحمل بيانات خاطئة، والتوقف في الدول المجاورة والتي تتسم بقواعد متساهلة للرقابة. وقد أوضح السماسرة أنهم يقومون بتشغيل الكثير من الوسطاء، وهو ما يسمح لهم بإخفاء أسمائهم من العملية بأسرع ما يمكن تاركين العمليات الخطرة للمحليين الأكثر معرفة بطبيعة البلد، والاتصالات اللازمة. «سوف يكون وكلاء الشحن مسئولين عن الاتصال بالجمارك التابعة لهم»، قال أحد السماسرة للفريق المتخفي، «ويمكنهم القيام بما يشاءون».

لقد خلقت التجارة المشروعة في الغاز الذي تمت تنقيته الفرص الخاصة به. فقد كشف فريق EIA آخر عن أحد الانتهاكات والتي تم فيها تهريب الكلوروفلوروكربون المصنع حديثا إلى جنوب أفريقيا ليحل مكان الغاز المستخدم في مبردات مناجم الذهب والذي كان بالكاد مستنفدا، ليتم بيعه فيما بعد في الولايات المتحدة كما لو كان قد تمت إعادة تصنيعه. كما ينتشر أيضا التهريب الذي يتم برا عن طريق الشاحنات، والتي تقوم باتباع مسارات متغيرة باستمرار حسبما يفرضه الطلب وتطبيق القانون. ويدخل القليل من الكلوروفلوروكربون إلى الهند عن طريق نيبال هذه الأيام؛ فالتهريب من خلال البنجلاديش والتي يعتبر عبور حدودها أسهل بكثير قد ازدهر، باستخدام الطرق البسيطة مثل مناولة البراميل من فوق سور الحدود. وفي باكستان، تشير الأدلة إلى أن تجارتي الكلوروفلوروكربون والهيروين تتحركان جنبا إلى جنب: فليست المخدرات فقط إنما الكلوروفلوروكربون أيضا قد انتشر في باكستان عبر حدود أفغانستان منذ سقوط نظام طالبان في عام ٢٠٠١.



## النبيل يقابل المجرم

كانت سرقة الأعمال الفنية فيما سبق تخصص «اللص النبيل» المتعلم تعليما متميزا والذي يوازي ذوقه الراقي دوافعه الملحة - أو هكذا اختفت اللوحة. أما السرقات الفنية اليوم، والتي تحدث بمعدلات لافتة ويشوبها عنف متزايد حول العالم في المتاحف والبيوت الخاصة، فلا تمت للنبل بصلة. فضوابط الأمن المتطورة تشير إلى أن الفطنة والمكر قد اختفيا، ليحل مكانهما السرقات المتكاملة التي يصاحبها التهديد بالقتل. فالسرقة العلنية للصرخة ومادونا The Scream and Madonna الخاصة بإدوارد مونش Edvard Munch من متحف مونش Munch Museum بأوسلو في أغسطس ٢٠٠٤ قد حدثت في وضح النهار وفي مرأى من الاحتياطات الأمنية الموضوعة. وفي متحف الفنون المعاصرة Museum of Contemporary Art بكاراكاس Caracas، اختفت لوحة ماتيس Matisse «Odalisque in Red Pants»، والتي تصل قيمتها إلى ملايين الدولارات.

أين تذهب هذه التحف الفنية؟ تحتفظ السجلات الدولية بقوائم من الأعمال الفنية المسروقة والمفقودة، والتي يظل الكثير منها على هذا الحال. فالعالم، وفقا لإحدى سجلات New York Times، قد فقد ٥٥١ لوحة لبيكاسو Picaso، و٤٣ لفان جوخ van Goghs، و١٧٤ لرمبراندت Rembrandts، ٢٠٩ لرنوار Renoir. وقلما تظهر هذه الأعمال في السوق المشروعة، والأسباب معروفة. فالعديد من لصوص الأعمال الفنية ليس لديهم سوى خيارات محدودة بالنظر إلى تميز صيدهم وسهولة التعرف عليه. وقد يتوقع البعض في عالم الفن أن لص الأعمال الفنية العادي هو في الحقيقة مجرم صغير يعمل بلا خطة واضحة.

إلا أن هذا النشاط قد تغير أيضا خلال التسعينيات، فهناك مؤشرات، على سبيل المثال، تدل على أن العديد من الأعمال الفنية المسروقة الجاري تداولها ربما تمثل أحد الأشكال للاحتفاظ بالنقود وأحد الخيارات للتستر على الأرباح غير المشروعة. ففي ٢٠٠١، قام اثنان من تجار الأعمال الفنية بنيويورك بعرض لوحتين على أحد الوسطاء الذي كان يعمل متخفيا في بوسطن، لموديلياني Modigliani، Jeune femme aux yeux bleus وLa Coiffure لديجا Degas مقابل ١,٤ مليون دولار، كما رشحا له سمسارا للقيام بخدمات غسيل الأموال: كيفية تنظيم عملية إعادة البيع، ونقل النقود، وتبادل النقود، والمجوهرات، والأعمال الفنية حسب الحاجة. وفي قضية أخرى، تورط أمير سعودي وعشيقته، بالإضافة إلى مدير أسباني يعمل ببنك سويسري وأحد الأشخاص الكولومبيين، في إحدى العمليات التي تمت في عام ١٩٩٩ حيث تم نقل ٢٠ مليون دولار على هيئة كوكايين من كاراكاس إلى باريس على متن طائرة نفاثة خاصة والتي انتهت بطريقة ما في ميامي بظهور غير متوقع للوحة لجويا Goya، وأخرى لتسوجوهارو فوجيتا Tsuguharu Foujita، أحد الرسامين اليابانيين المعروفين.

وبالنظر إلى المبالغ الضخمة التي تسعى للبحث عن استخدامات حذرة، فإن سوق التحف الفنية المسروقة لن يتضاءل بالرغم من كل شيء، وإنما سيتحول للبحث عن فرص جديدة. فالإمداد ليس مشكلة، في ظل وجود مصادر مثل المجموعات النفيسة الخاصة بالمتاحف السوفيتية القديمة (والتي تمت مصادرة الكثير منها أصلا على يد النازيين). وتضم قائمة أحد السجلات العالمية الخاصة بالأعمال الفنية المسروقة الآن، والتي تم إنشاؤها في ١٩٩٩ لتضم ٢٠٠٠٠ عملية، أكثر من ١٤٥٠٠٠ واحدة.

إن السوق التي تلقى انتعاشا بحق في مجال الأعمال الفنية المسروقة هي سوق التحف. فمن الصين، إلى كمبوديا، إلى بيرو، يتم استخراج الآثار بصورة مستمرة لتتم سرقتها باستمرار قبل أن تتمكن السلطات من تأمينها. ففي يناير ٢٠٠١، عثر بعض الناس في بلدة اسمها جيروفت Jiroft بجنوب غرب إيران صدفة على موقع أثري هام غير مكتشف والذي احتوى بدوره على مجموعة من الآثار ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد. وبعد أن وصلت الأخبار إلى طهران وقامت وزارة الثقافة بإرسال فريق لاستطلاع الموقع، كان جل ما وجدوه هو عملية استخراج موسعة منظمة قام بها المحليون - حيث قامت كل أسرة بتفتيش موقع محدد - والتي امتدت لمدة عام قبل أن تقوم الشرطة أخيرا بإغلاق الموقع. ومنذ ذلك الحين، ظهرت آثار جيروفت في السوق العالمية للأعمال الفنية، بما في ذلك بعض المزادات الشهيرة الفاخرة. كما أبلغ أحد الصحفيين الفنيين بلندن عن وجود ثمانين قطعة معروضة للبيع نظير ما يقرب من مليون دولار، كما شاهد أحد الأشخاص مجموعة أخرى في أحد «المعارض الفنية المرموقة بلندن». هذا بالإضافة إلى أن التاجر قد أبلغه بأن «البضاعة المقلدة سوف تصل إلى السوق أيضا، والتي تم تصنيعها في جيروفت كذلك - فالمواد والنماذج موجودة هناك».

إن تراكم الثروة في أسواق الأعمال الفنية العالمية قد دفع بأسعار التحف الآسيوية وغيرها إلى مستويات مرتفعة،



وقد لاحظ التجار غير الشرعيين ذلك. فالتحف تقدم العديد من المزايا. أولا، يفوض المحليون أنفسهم للقيام بالمهام المرهقة - البحث عن المواقع وعمليات الاستخراج. كما أنهم يتحملون الخطر الأكبر، فهم الذين يواجهون الإجراءات الصارمة التى تفرضها الشرطة - فالصين معروفة بإعدام اللصوص الحقيرين فى حين يتمكن التجار غير الشرعيين من المراوغة - ولا يجب دفع الكثير لهم. كما أن الجزء الأكبر من الأرباح المتولدة من تجارة الآثار غير المشروعة يؤول إلى مجموعة من الأفراد الوسيطة بالإضافة إلى شبكات الوسطاء المنظمة التى تضم المعارض الفنية، والمزادات، وشركات النقل، وأمناء المتحف المتواطئين، والمسئولين الحكوميين، ومديرى البنوك. ثانيا، لا تخضع الآثار لنفس مستوى الفحص والتدقيق الذى تتعرض له التحف القديمة مثل اللوحات والتماثيل. وقد أظهر التجار اهتماما أقل بمصدر أو منشأ هذه الآثار القادمة من آسيا وأفريقيا، وغيرها من الآثار، خاصة إذا كان البعض منها قد تم الكشف عنه مؤخرا ولم يتم توثيقه بصورة كاملة.

لا يُشترط أن يكون تجار الأعمال الفنية غير الشرعيين متخصصين. ففى إيطاليا، والتى تعد مركزًا رئيسيا لتجارة الأعمال الفنية القذرة، قامت جماعات المافيا ببساطة بإضافة الفن إلى مجموعة الأنشطة التجارية التى تقوم بها. كما أن أدوات التجارة هى نفس الأدوات المستخدمة، استغلال المنافذ التى يمكن الهرب من خلالها واختلاف القوانين بين الدول، وبالطبع الفساد وتواطؤ الموظفين. فعملية البيع المخططة فى الولايات المتحدة لأحد الآثار من بيرو مقابل ٦,١ مليون دولار، على سبيل المثال، قد ضمت كولونيل شرطة سابقًا وأيضا أحد الدبلوماسيين من بيرو، والذى قام بدوره بتوريد القطعة إلى نيويورك فى حقيبته الدبلوماسية.

لا يزال هناك بعض الحقائق المميزة لتجارة الأعمال الفنية غير المشروعة. أولا، لا يوجد اتفاقية عالمية واضحة فيما يتعلق بالقوانين والعقوبات؛ فالخطر الذى يواجهه التجار غير الشرعيين عند نقل التماثيل، والعملات القديمة أقل بكثير من الخطر المصاحب لنقل الأسلحة أو المخدرات، فى حين أن الأرباح الممكن تحقيقها أكبر بكثير. ثانيا. تعتمد عملية التطبيق إلى حد كبير على التنظيم الذاتى عن طريق المعارض وأصحاب المزادات، بالإضافة إلى الجهود التحذيرية: يعتبر ميشيل فان راين Michel van Rijn، أحد المحققين الهولنديين المنحرفين، والذى كان لص أعمال فنية سابقًا، هو وحده المسئول عن إثارة بعض من أهم التحقيقات. وقد اكتسبت مجموعة أكبر بكثير من الأعمال والآثار التى تم الاتجار فيها بصورة غير مشروعة، خاصة الواردة من الدول النامية ذات الحضارات العريقة، اهتماما أقل بكثير كما يعتبر من الصعب حتى الآن تعقبها.

## أعضاء ونفايات

ما هو وجه الشبه بين أشكال هذه التجارة المختلفة؟ أولا: تعمل هذه الأشكال بطرق مشتركة أكبر مما قد يشير إليه تفاوت المنتجات المعروضة. ثانيا: ما زالت هذه الأشكال من التجارة حتى الآن تعمل بصورة غير واضحة، لأسباب غالبا ما تتعلق بالمنتجات نفسها، حيث إن أيا منها لم يستثر الرأى العام أو لم يؤد إلى وضع قوانين جديدة، مثلما فعلت المخدرات، على سبيل المثال. ومع هذا، فإن المنتجات فى مجملها تتوافر بصورة متزايدة، فى أشكال متنوعة إلى جانب مزجها مع غيرها من المنتجات والخدمات المشروعة، ومن ثم فإن أنواع التجارة الأكثر غموضا لن تظل على هذه الحال لمدة طويلة.

وربما كان هناك المزيد. فقد يكون السبب وراء أن هذه الأشكال من التجارة قد أثارت انتقادا محدودا هى أنها ترتبط بصورة واضحة جدا مع الطلب المتزايد للعملاء فى الدول الغنية. فحاجة الدول الغنية لعمليات الزرع هى الدافع وراء تجارة الاعضاء الدولية. كما أن الأثاث، والملابس والاكسسوارات المترفة هى المحرك لتجارة الفصائل المهددة بالانقراض. فى حين أن البائعين المثاليين للأعمال الفنية المسروقة والآثار المنهوبة، فى الأصل، هم أثرياء العالم. وليس هناك مثال أوضح من تشابك التجارة العالمية غير المشروعة مع التفاوتات الاقتصادية لتوضيح حركة النفايات السامة.

الأعضاء فى جهة؛ والنفايات فى الجهة الأخرى. وكما كانت تفعل دائما، تتدفق التجارة غير المشروعة ببساطة مع التيار. لقد اصبح التيار فقط الآن أكبر بكثير مما رآه العالم من قبل.

# فلسفة حضارة ناقصة!

## قراءة فى فكر طه عبدالرحمن

أحمد عبدالرحيم

■■ من القضايا الملحّة التى يجب أن تشغلنا.. قضية التواصل. أقصد: عدم التواصل! بين أركان الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة. فمن المؤلم حقاً أن نعيش. نحن العرب والمسلمين. بعقلية وروح الجُزُر المنعزلة.. فلا تواصلَ ولا تعارفَ، ولا اهتمامَ بالمتابعة بين المشغلين بالهمُ الثقافى والعلمى! لا يكاد يعرف «أهلُ المشرق». خصوصاً. عن نتاج «أهل المغرب». خصوصاً أيضاً!. شيئاً ذا بال، وهذا فى نطاق «المختصين» قبل أن يكون فى دائرة «المهتمين» عموماً! من الواضح أننا نعيش، فى ظل «ثورة الاتصالات»، زمان «اللاتواصل»!

وهذا المقال يأتى فى سياق محاولة التواصل.. معرفاً بواحد من أعلام الفلسفة العربية المعاصرة ضلّت عنه أضواء الإعلام التى أعشاها بَهرج الأنصاف من محترفى العلاقات العامة! إنه العلاّمةُ المغربى الفيلسوفُ الدكتور طه عبدالرحمن: أستاذُ المنطق وفلسفة اللغة. المتفرغ. بكلية الآداب/ جامعة محمد الخامس بالرباط، ومؤسس ورئيس «منتدى الحكمة» للمفكرين والباحثين (مقره الرباط)، والخبير بالأكاديمية المغربية، وصاحب العديد من الكتب والدراسات. بالعربية والفرنسية. البالغة الأهمية فى مجالات الفلسفة والمنطق واللغة والترجمة والمناهج والحضارة والنقد المعاصر، وفوق ذلك كله.. أحد أهم العقول العربية المبدعة إبداعاً حقيقياً رفيع المستوى..

.........

هذه تحيةٌ مشرقيةٌ عَجلَى. وواجبةٌ أيضاً!. إلى علَمٍ مغربى كبير.. وهى ليست عرضاً وافياً لمقولاته كلها، ولا نقداً وتمحيصاً لها.. بقدر ما هى فاتح لشهية التعرف. اللازم. إلى هذا الفيلسوف العربى المتميز!

[ ١ ]

لا يُخفى الفيلسوفُ المغربىُ طه عبدالرحمن أنه يعتمد «الإسلام» مرجعاً أولياً. إن لم يكن وحيداً. فى نظريته الأخلاقية العملية، ومن ثَم.. فى نقده الحداثةَ الغربية الراهنة ومنجزاتها الفكرية والتقنية. وفى هذا يقول: «لما كان الدين الذى تعبدنا به وتربينا فيه هو الإسلام : فلا بدع أن تكون الأخلاق التى نستند إليها فى انتقادنا للحداثة هى أخلاق هذا الدين الإلهى الخاتَم، وليست سواها. ويحق لغيرنا. كلُ الحق. أن يبنى نقده على دينه المختار، أو ينقل ما قلنا بصدد أخلاق الإسلام إلى أخلاق دينه.. متى رأى وجاهته ومناسبته». وفى هذا النسق الأخير ما لا يخفى من الإشارة إلى «كونية» خطاب الإسلام وإنسانيته، بحيث لا يختص بجنس أو دين، وهو بهذا يسلك سلوكاً محموداً، يستحيى منه. أو به!. كثيرون من أبناء هذا الدين. رَغَباً أو رَهَباً. فوق ما فيه من تحديدٍ منهجىٍ لازم، لا يمكن أن يتغاضى عنه فيلسوفٌ أو «متفلسف»!

وهو، إذ ينطلق من هذه الخلفية الواضحة، يقرر أن غرضه الأساسى من طرح نظريته فى «الأخلاق العملية»، وتناول إشكاليات الحداثة الغربية والفكر الذى تستند إليه والرؤى التى تصدُر عنها.. هو تجديد «فلسفة الدين»، بحيث لا يكون القصد منها مجرد الدفاع عن العقيدة ضد خَصم معين (كما قد يتبادر إلى أذهان وأقلام الكثيرين)، بقدر ما تستهدف تجديد الفهم لمكوناتها (أى العقيدة) ومقتضياتها فى سياق المستجدات الفكرية. وهى لا تشتغل بالمسائل النظرية المجردة، وإنما بالمسائل العملية المشخصة، بحيث لا يُغفِل هذا الفهم المنشودُ تأسيسُه سياقَ المستجدات الفكرية والحضارية. فالدين. كما تطرحه هذه الفلسفة. ليس جملة شعائر جامدة، كما ينظر إليه المقلدون بعين «العلم» النظرى المجرد من «العمل»، بل هو جملةُ أخلاق حية، نظراً إليه بعين العمل. فالشعيرة من شعائر الدين ترد. بحسب فلسفة الدين هذه. إلى قيمة الخُلُق أو الأخلاق التى تثمرها. ومن هنا.. فالحقيقة الدينية مراتبُ ينزلها الأفراد، كلٌ بحسب درجة تخلقه.

ويسلك طه عبدالرحمن (واللقب والاحترام محفوظان له!) فى بيانه عن فلسفته هذه، وفى نقده سواها، طريقة الفلاسفة المتمكنين، حيث يعرض أقواله/دعاواه فى صورة استشكالات فكرية واستدلالات منطقية يأخذ بعضها برقاب بعض، غرضَ تزويد الحقائق الدينية بفضاء فكرى، يضاهى. قوةً وسعةً. الفضاء الفكرى الذى وُضع لحقائقَ غير دينية. كالحقائق العلمية.. وهو يرى أن من شأن مثل هذا الفضاء الفكرى المتقى إيجاده وترسيخُه حفظَ الدين بما لا يحفظه به الجمود على الظواهر، بل إنه (هذا الفضاء) قد يرقَى إلى رتبة انتزاع التصديق والإقرار من أولئك الذين ليست عادتهم التسليم بالشواهد الشرعية أو الركونَ إليها. ولعل هذا هو سبب ندرة ذكره آياً من الآيات القرآنية الكريمة أو الأحاديث النبوية الشريفة (كما هو معتادٌ فى الكتابات الدينية الشائعة)، إلا فى صدور كتبه : لينبّه. تنبيهاً غير مباشر. إلى الخلفية العامة التى يصدر عنها، أو فى الحواشى : ليدلَّ على معانٍ جزئية فى الأثناء.

وهو يأمل. ونحن معه. أن يوفَّق مثلُ عمله هذا إلى خلق فضاء فكرى متماسك، تتحرك فيه معانى الدين وحقائقه الكلّية بكفاءة استشكالية واستدلالية، لا تقل عن الكفاءة التساؤلية والتدليلية لغيرها من المعانى المقررة فى عالم الممارسة الفلسفية.

[ ٢ ]

وفى سياق حيوية طه عبدالرحمن النقدية والبنائية.. لا يتورع عن أن يخالف ما «أجمع» عليه أهل المنطق والفلسفة (من لدن أرسطوطاليس.. وحتى يوم الناس هذا!) من تعريفهم الإنسانَ بأنه «حيوانٌ ناطق»، مريدين بالنُطق العقلَ المجرد : فإن هذا العقل المجردَ ليس. بحسبه. خاصةً بالإنسان دون سواه من الحيوانات التى أثبت العلم أن لها نوع عقل. ويختار. فى المقابل. أن يعرف الإنسان بأنه «الكائن الحى المتخَلِّق»، مماهياً بين «التخلُّق» و«التدين»، حيث لا تكون الهوية الإنسانية فى جوهرها إلا هُوية دينية.

وأظننى لا أعدو الصواب إذا قلت إنه يبنى نظريته هذه، فى «الأخلاق العملية»، على آية قرآنية كريمة، وحديث نبوى شريف..

الآية الكريمة هى قولُ الله تعالى: «وما خلقت الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون» (سورة الذاريات: الآية ٥٦).

والحديث الشريف هو قولُ النبى. صلى الله عليه وسلم.: «إنما بُعثتُ لأتمِّم مكارمَ الأخلاق» (رواه البخارى فى «الأدب المفرد» بإسناده.. عن أبى هريرة رضى الله عنه).

وهو ينطلق فى تشييد نظرية الأخلاق العملية من مسلَّمتين رئيسيتين يقررهما تقريراً فلسفياً عقلياً محكماً..

أولاهما: مسلَّمة الصفة الأخلاقية لهُويةِ الإنسان (لا إنسانَ بلا أخلاق).

وثانيتهما: مسلَّمة الصفة الدينية للأخلاق (لا أخلاقَ بلا دين).

وفى أثناء تقريره هاتين المسلَّمتين يُبطِل مسلَّمات النظرية الأخلاقية غير الإسلامية، والتى تدور حول التفريق الفاسد بين العقل والشرع، وبين العقل والقلب، وبين العقل والحس. حيث يدلِّل على أن هذه التفرقة فاسدةٌ فى نفسها

عقلاً ومفسدةً واقعاً، لما تُنتجه من آثار وآفات في الخَلق والخُلق.

وعندما يحدد طريقة ممارسة الأخلاق في طريقين: طريق الإلزام (الأوامر والنواهي التي تُفرض من الخارج على إرادة الإنسان)، وطريق الاعتبار (المعاني والقيم التي يستنبطها الإنسان من تلقاء نفسه مما يشهده من أفعال ويتلقاه من أقوال).. يصرح بأن طريق الاعتبار الاختياري (الذي تتحقق فيه إرادة الإنسان) هو الأنسب لسلوك «الإنسان المنتظر» (ويعني به الإنسان المتخلّق بمكارم الأخلاق)، وذلك.. انطلاقاً من ضرورة الجمع بين مقتضى حرية الإنسان، ومقتضى «حدثية» الحياة الخُلُقية (فالأخلاق «أفعال» حية، والأفعال الحية تاريخ. والتاريخ لا يحيا إلا بالقصة. فتكون أخلاق الإنسان هي «قصته» التي تحدد هُويته). ولذا.. يلزم في الممارسة الأخلاقية، الأخذ بطريقة الاعتبار. أي: إيراد الأحكام الخُلُقية في صورة أخبار (لا أوامر)، وفي صورة قصص (لا في نسق تجريدي جاف).

وبعد تفصيلات مهمة، وأمثلة بالغة الدِّلالة والطرافة في آن (قصة الميثاق الأول المذكورة في سورة الأعراف (الآيات ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤): الأخلاق الكونية. حادثة شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم في صباه (رواها مسلم، وغيره، في صحيحه): الأخلاق العُمقية. حادثة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة (سورة البقرة، الآيات ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٧٧): الأخلاق الحركية).. ينتهي إلى أن النظرية الأخلاقية الإسلامية يجب أن تنطلق من مبدأ كون الأخلاق الإسلامية أخلاقاً كونية. لا محلية. وعُمقية. لا سطحية.. وحركية. لا جمودية.. وهذه هي صفات «الأخلاق الحُسنى» الجديرة بالإنسان/الإنسان.. «الإنسان المنتظر» في «العالم المنتظر». بحسب مصطلحاته!..

[ ٣ ]

أما فيما يتعلق بجانب مساهمة طه عبدالرحمن في النقد الأخلاقي لواقع الحداثة المتمثل في الحضارة الغربية الحديثة..

فهو. بداية. يسمّي هذه الحضارة «حضارة القول». ويقول إن علامة صحة هذا ما ينهمر على مرائينا ومسامعنا من «طوفان الأقوال».. هذا الطوفان الذي تحاول أن تغطي هوله وتُخفي فداحته بأسماء مختلفة تُغري بظاهر دلالتها، من نحو: «انفجار المعلومات»، «ثورة الاتصالات»، «انعتاق الكلمة»، «سيادة القلم»، «سلطان العقل»، «تداول المعرفة»، «عولمة الإعلام».. إلى آخر هذه القائمة الطويلة من التركيبات اللفظية البرّاقة!

ثم يقرر أن هذه الحضارة، رغم ما آتت الإنسان من مكتسبات وقدرات مختلفة، حضارة



ناقصةً : لخلُوها كُليًا من اليقين فى نفع هذه المكتسبات و نُجوع هذه القدرات. مما يستلزم طلب عقلانية أخرى غير عقلانيتها المجردة.. عقلانية تستمد أصولها من أعماق التخلُق الدينى، الذى هو - وحده - يُورث هذا اليقين المفتقَد.

وفى عبارة دالَّة يكشف طه عبدالرحمن أدواء هذه الحضارة بقوله: «إن هذه الحضارة الغربية الحديثة (حضارة «اللوجوس» / العقل) حضارةٌ ناقصةٌ عقلاً، ظالمةٌ قولاً، متأزِّمةٌ معرفةً، متسلِّطةٌ تقنيةً». ويردُّ جوانب النقص هذه إلى «آفات العمق»، التى لا يجدى فى الخروج منها التظاهر بـ «أخلاق السطح»، وهى الأخلاقيات التى وضعها بعض أهل الحداثة الغربية - ولا يزالون - من أجل دفع أسباب الشر أو الأذى الذى لحقهم - ولا يزال - بما كسبت أيدى الحداثة (وقد يصح مثالاً لها مقولات الحرية والديمقراطية وما إليها مما تتشدق به، ويبشرنا به أولئك النفر من «الليبراليين العرب الجدد»!).. بل لابد - لمداواة آفات العمق تلك - من طلب «أخلاق العمق» والسعى إلى التحقق بها. هذه الأخلاق التى يضع طه عبدالرحمن معالمها الأساسية فى نظريته الأخلاقية الإسلامية، وفى الدعوة إلى الشروع فى بناء حضارة جديدة لا يكون السلطان فيها لـ «اللوجوس»، وإنما يكون لـ «الإيتوس» / الخلق، بحيث تتحدد فيها حقيقة الإنسان بخُلُقه وفعله.. لا بعقله وقوله.

ومن هنا.. يؤكد أنه لابد للخروج من الآفات الخُلُقية لـ «حضارة القول» الراهنة، من فتح الطريق لظهور «حضارة الفعل».. ينهض بها التخلُّق المستند إلى التجربة الدينية «المؤيدة» (والتى سبق أن فصل القول فيها فى كتابه «العمل الدينى وتجديد العقل»، الصادرة طبعته الأولى سنة ١٩٨٩م). فوحدها.. قوة التخلق المؤيَّد هى التى يمكنها أن تتغلب على سوءات حضارة القول ومظالمها للإنسان : إذ ليس فى أنواع الأخلاق جميعاً أقدر من أخلاق أهل هذه المرتبة (مرتبة الأخلاق المؤيَّدة) على زعزعة طبقات القشور الحضارية، والنفاذ إلى اللباب الذى وراءها.

وقبل أن يطرح طه عبدالرحمن تصوره عن هذه النظرية الأخلاقية العملية: المؤيَّدة بالتجربة الدينية، يستعرض أهم النظريات الأخلاقية الغربية المعاصرة التى التفتت إلى خطورة المنحدر الذى تتدهور إليه الحضارة الحديثة، وحاولت أن تضع كوابحَ لهذا التدهور (نظرية المسئولية: الألمانى هانس يوناس. نظرية التواصل: الألمانيان كارل أوتو آبل و يورجان هابرماس. نظرية الضعف: الفرنسيان جاك إيلول و دومنيك جانيكو).. مجملاً نقده إياها - بعد أن ذكر إيجابياتها - فى نقاط ثلاث:

- أخذها بالتعقُّل، وعملها بالتنكُّر.
- إخلالها بشرط التناسب.
- افتقارها إلى «التخلُّق» و«التعرُّف».

ثم يطرح - بعد ذلك كله - «نظرية التعبُّد» (المنبثقة من نظريته الأخلاقية الأم)، والتى تجمع بين التخلُّق الحكيم والتعرُّف البصير، وتضع آداباً للتنبؤ والتحكم والتصرف (وهذه الثلاث، بحسب طه عبدالرحمن: هى مقاتل الحضارة الغربية)، وينتهى إلى أن من شأن «نظرية التعبد» هذه أن تُخرج الإنسانَ (بصفته الإنسانية المجردة، وبغض النظر عن جنسه أو دينه) من طلب حظوظ السيادة على الكون (سيادة الإفساد و البَطَر والاستهلاك)، إلى أداء حقوق العبودية لسيد الكون، سبحانه وتعالى.. ومن هنا تتحقق للإنسان السيادة فى الكون (سيادة الإعمار والانتفاع والتنمية).. لا عليه!

[ ٤ ]

تعمدتُ أن أصرِّح بصفة «العملية» وألحقها بما أسماه طه عبدالرحمن «النظرية الأخلاقية»، رغبةً فى أن أُجنِّب القارئ الوقوعَ فى تصور أن هذه الفلسفة مجردُ أفكار وتنظير أجوف بلا ثمرة مشاهَدة ومحسَّة فى الواقع المَعيش. فطه عبدالرحمن يؤكد - فى غير موضع - على أن المدار كله على «العمل» و«التطبيق» و«الممارسة» و«الحركة»، وأن مجرد رصف الكلمات المنمقة وتزويقها بالعبارات المخاتلة أو التظاهر والدعوى.. كل ذلك لا يغنى من الوصول إلى رتبة «مكارم الأخلاق» و«التأييد الإلهى» شيئاً!

وليس أدل على هذا من وصفه الحضارة الغربية، التى ينتقد الطور الحداثى الذى تمر به، بأنها - كما سبق - «حضارة القول» (القول = القشر/ الدعوى/التظاهر).. فى مقابل ما يدعو إليه من «حضارة العمل» (العمل = اللباب/الحقيقة/التحقق). وأيضاً.. من تركيزه على أهمية التخلق بـ «أخلاق العمق» دون الاكتفاء بالتظاهر بـ «أخلاق السطح» من غير عمل.

ومن أجل هذا.. أحسب أن أذكر نَموذجين فقط يُظهران مركزية هذه الصفة (العملية) وموقعها من نظرية طه عبدالرحمن الأخلاقية..

النَّموذج الأول سأكتفى بالإشارة إليه فقط.. وهو المتمثل فى «التصوف الإسلامى» بوصفه ممارسةً أخلاقية وسلوكية تَنفُذ إلى لُباب الدين، ومن ثَم.. إلى الأخلاق الكاملة.. أو «مكارم الأخلاق» (فصَّل طه عبدالرحمن الجانب النظرى من تجربته الصوفية العميقة فى كتابه «العمل الدينى وتجديد العقل»، وأخبرنى - فى زيارته القاهرة شتاء ٢٠٠٤ - أنه ينوى أن يفصل جانبها السلوكى والوجدانى فى كتاب مستقل، ربما يكون عنوانه «جَماليات الإيمان»، بعد أن أشار إليها فى مقدمة الطبعة المغربية الأولى من كتابه «العمل الدينى» المشار إليه آنفاً).

وأما النَّموذج الثانى : فسوف أحاول إيجازه ما استطعت. وهو يتمثل فيما كتبه طه عبدالرحمن عن انتفاضة الأقصى المباركة (الانتفاضة الثانية التى اندلعت شرارتها فى نهاية سبتمبر ٢٠٠٠م)، حيث كتب عن «الانتفاضة» - مفهوماً وواقعةً - مقالاً بديعاً، هو (بالإضافة إلى كتاب أستاذنا الكبير الدكتور عبدالوهاب المسيرى الرائد «الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية: دراسةٌ فى الإدراك والكرامة» الذى نشره للمرة الأولى عام اندلاع الانتفاضة الأولى ١٩٨٧م) أعمقُ ما قرأت فى هذا الباب. نشر طه عبدالرحمن مقاله البديع هذا «نحو تأسيس فلسفى لانتفاضة الأقصى» فى جريدة «القدس العربى» اللندنية (العدد ٣٦٢٣: ٧-٦ يناير ٢٠٠١م.. أى بعد نحو ثلاثة أشهر فقط من بدء هذه الانتفاضة)، ثم أعاد تحريره وتعميقه فصلاً سادساً، بعنوان «كيف نُقيم فلسفةً عربية؟: مفهوم الفتوة المنتفضة نَموذجاً»، فى كتابه «الحق العربى فى الاختلاف الفلسفى» (المركز الثقافى العربى. بيروت. ط١/٢٠٠٢م).

ينطلق طه عبدالرحمن فى تنظيره الفلسفى العميق للانتفاضة من تأصيل النظرة الأخلاقية إلى الهوية البشرية بعامة، ثم ينتقل الكاتب إلى تصنيف العرب من حيث مواقفهم من العدو الصهيونى، جاعلهم فى طبقات أربع: طبقة «الناس» (أهل التطبيع)، وطبقة «الرجال» (أهل المقاطعة)، وطبقة «ذوى المروءة» (أهل الرفض)، وأخيراً.. طبقة «الفتيان» (أهل الانتفاضة). وعلى هذه الطبقة الأخيرة يركِّز، عاداً إياها العليا، موضحاً أن «الفتى» من أبنائها يتميز عن «الإنسان» / الكائن ذى الصورة الآدمية (من



«الحضـــارة الـغـربيـــة الحـديـثـــة حضـــارة نـــاقـــصـــةٌ عـــقــــلاً، ظالمةٌ قولاً، متأزِّمةٌ معرفةً، متسلِّطةٌ تقنيـــةً»

أبناء أدنى الطبقات) بكمال التدين/ التخلق، ويتميز عن «الرجل» (من أبناء الطبقة الأعلى من «الإنسانية») بكمال القوة، ويتميز عن «المرء» (من أبناء الطبقة السابقة مباشرة) بكمال العمل.. واضعاً بذلك طبقة «الفتوة» فى أعلى سلمه الطبقى، مقدماً إياها على كل من طبقات «الإنسانية» و«الرجولة» و«المروءة».

وأما: لماذا جعل «أهل الانتفاضة» هم اصحاب هذه الطبقة العليا (طبقة «الفتوة») ؟ فلأنهم جمعوا إلى «التسديد» فى مقاصدهم «التأييد» فى وسائلهم، ولذلك استحقوا ان يكونوا أصحاب أخلاق مؤيدة.. هذه الأخلاق التى يحصل معها اليقين فى نفع المقاصد، ونجوع الوسائل المختارة ؛ لأنهم استمدوا هذه المقاصد والوسائل من تمام تغلغلهم فى العمل الكامل.

وإذ تتشكل «الهوية العربية» الخاصة بعرب هذا الزمان بناء على انتماء كل من هؤلاء العرب إلى واحدة من هذه الطبقات الأربع ؛ يقرر طه عبدالرحمن أن صنع الهوية العربية الحقة.. الهوية الزكية بالممارسة الدينية، والراسخة بالقوة المقاومة، والواسعة بالتحقق بالعمل (فـ «الهوية» عموماً عنده لا تكون ضربة لازب.. بل لا تزال تتشكل وتتحول وتتحور ما دام فى الإنسان عرق ينبض، وهى بهذا لا تكون إلا شيئاً متحققاً فى الواقع وفعالاً فيه، لا مجرد ميراث يرثه المرء من غير جهد ولا كسب عن أجداده!).. هذه الهوية لا يكتمل صنعها إلا مع طبقة «الفتيان المنتفضين» دون غيرها، حيث لا يتمكن المنتفض من الأخلاق المؤيدة حتى تكتمل له مقومات ثلاثة: ممارسة الدين، والظهور بالقوة، والتحقق بالعمل. ومن هنا.. فلا أزكى، ولا أرسخ، ولا أوسع.. من الهوية التى تكون من صنع الفتوة، وهى اليوم، يوم كتابته دراسته هذه، «هوية انتفاضة»، وغداً (كما يقول ويتمنى.. ونحن معه!) سوف تكون «هوية انتهاضة» شاملة.. انتهاضة إلى ما ينفع الناس ويمكث فى الأرض!

لأى أن يختلف أو يتفق وكلاً أو بعض هذا الطرح، لكن لا أحسب أن أحداً منصفاً يسعه تجاهل تأمله: طرحاً فلسفياً مبتكراً وجاداً.. وعملياً أيضاً!

[ ٥ ]

بقى، فى ختام هذا «التعرف» العجل، أن أشير إلى أمرين أراهما جديرين بالتنويه..

أولهما: أن طه عبدالرحمن لا يستخدم فى كتابته الفلسفية إلا المفاهيم المتداولة فى الممارسة الفكرية العربية، فى الوقت الذى يستخدم فيه جل الباحثين والكاتبين العرب (ولا أريد أن أتورط فى التعميم، مع أننى لا أحسبه مبالغة!) مفاهيم ومصطلحات تشوبها العجمة، على الأقل!، إن لم تحذ المنقول الفلسفى الغربى (مفاهيم ومصطلحات) حذو النعل بالنعل، حسب تعبيره!... وكأنه لا مشابهة ولا مقايسة إطلاقاً بين مضامين هذا المنقول وبين ما جاءت به الممارسة العربية من عندها! وهو الأمر الذى أدى إلى ازدواجية فى الفكر العربى الإسلامى، لم تورث أهله إلا الجمود على ما نقلوه ؛ فحرموا ممارستهم حقهم فى الإبداع الفلسفى المختلف، فى حين أنهم لو كانوا يردون ما ينقلونه من مضامين إلى ما عندهم من تراث زاخر (أو، على الأقل، يقربون بينه وبين ما بأيديهم) ؛ لكان لهذا الفكر العربى الحديث شأن آخر، ولأتى أهله بما لم تأت به الأوائل!

وأحسب أن طه عبدالرحمن بتنبيهه إلى هذا المزلق، وباعتماده ثقافته العربية الأصيلة ولسانه العربى المبين، مع هضمه الثقافة الفلسفية الغربية، القديمة والحديثة، هضماً جيداً ؛ قد وفق توفيقاً كبيراً فى أن يأتى ببعض عما لم تأت به الأوائل، ولا نزال متشوقين إلى المزيد!

أما ثانى ذانك الأمرين ؛ فمتفرع عن الأول.. وهو أن لطه عبدالرحمن قدرة فائقة (تثير الإعجاب والغبطة معاً!) على استثمار خصائص اللسان العربى التعبيرية والتبليغية، وكذا.. على استثمار فروقه الدلالية الدقيقة، وذلك فيما يعانيه عند وضع المفاهيم وسك المصطلحات (نحتاً، واشتقاقاً، وتوليداً). وهو يكثر من هذه المفاهيم والمصطلحات كثرة قد ترهق قارئه بادئ الأمر.. غير أننى زعيم لهذا القارئ بقدر كبير من المتعة الذهنية والفائدة المعرفية إن هو جرب التعمق فى القراءة، ولم يكتف بالتصفح السريع، وإن هو حاول اجتراح نمط من القراءة الجادة المتنبهة. ومن هذه الجهة.. فإن طه عبدالرحمن يصدق فيه ما قلته مرة عن شيخنا وشيخ أشياخنا العلامة الجليل الدكتور إبراهيم عبدالرحمن خليفة (علم جامعة الأزهر، حفظه الله وبارك فيه): إنه لا يقرأ إلا بانتباه كامل!

والفائدة المعرفية والمتعة الذهنية والروحية مضمونتان، بإذن الله، لمن يجرب!

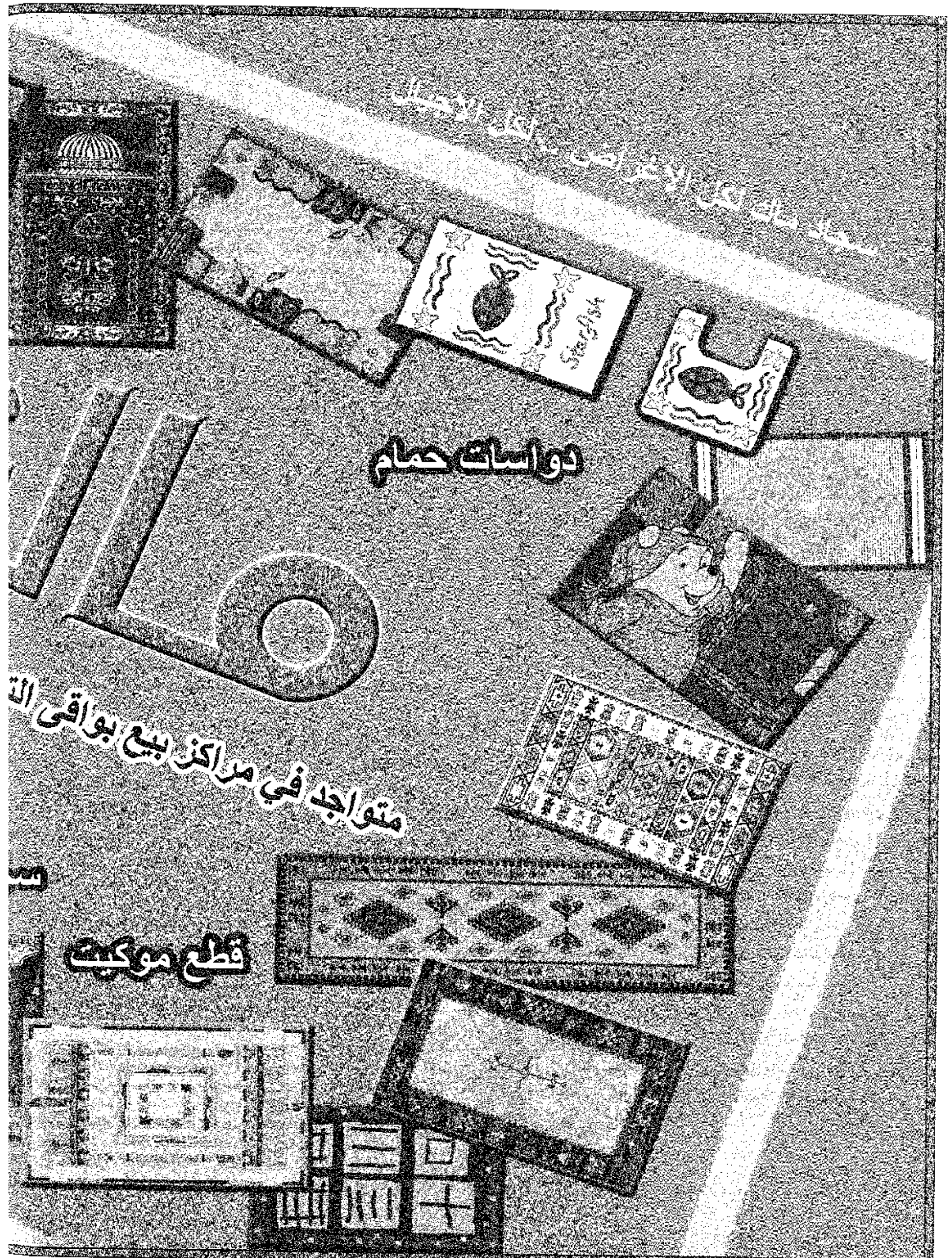
# كتاب الزاوية

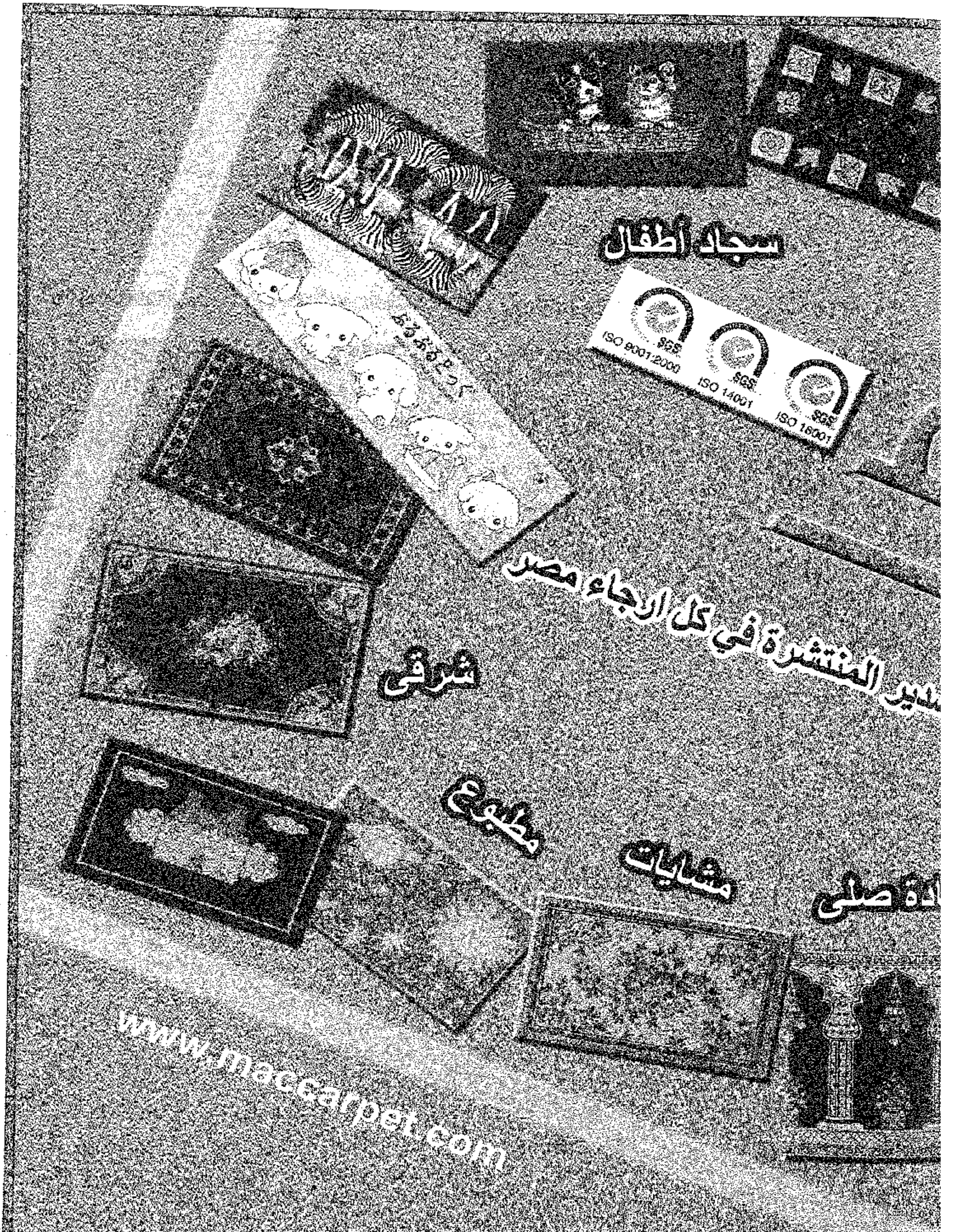
## من أدب الفرس والترك

## دراويش الترك

الدرويش بالمعنى اللغوى فى الفارسية هو المتسول الذى يقف بالأبواب مستجديًا، أما بالمعنى الاصطلاحى، فذلك المتزهد المتصوف الذى يرفض الدنيا ويرغب عن زخرفها، جاعلاً من دأبه وديدنه أن يخشوشن ويهين البدن ببعض العذاب، لتصفو الروح وتطهر وتحلم عند ربها بالنعيم المقيم، فشقوة الدنيا عنده سعادة فى الآخرة، وعلى المرء أن يبتغى الوسيلة إلى الفناء فى محبة الله، وإلحاق ذاته بالذات العليا، حتى إذا بلغ من ذلك مأربًا، فقد وصل إلى غاية ينشدها، وحقق الآمال كل الآمال.

وانبعث التصوف من إيران فغمر آسيا الصغرى، تمذهب به الدراويش فتألفت منهم مختلف الجماعات والفرق، وانتشروا فى البلاد طولاً وعرضًا، وفى طليعة هذه الفرق، فرقة المولوية وشيخها جلال الدين الرومى المعروف بمولوى والمتوفى سنة ٦٨٢ هجرية بمدينة قونية، وهو أعظم شعراء التصوف من الفرس غير منازع، وقد قال جلال الدين الرومى فى الناى وسيلة الدراويش الأثيرة شعرًا جميلاً منه هذه الأبيات: «استمع للناى عذب الشكاة موصول الأنين فإنما يشكو الفراق وآلام النوى، وكأنه يقول، لقد انتزعت من قصبائى فتوجع لى كل من سمع بكائى، ولقلب أن يتصدع ويتفطر ليفهم شوقًا يعذبنى ويضنينى ،وما عجب أن يحن كل ناء عن مستقره إلى عهد مضى وأيام خلت. ليس فى الناى ريح تتردد، ولكنها نار للحب تستعر، فلا كان ذلك القلب الذى خلا من حرها! والناى مؤانس ومسامر لمهجور ومفارق، فقد هتكت أنغامه كل ستر، فبرح الخفاء وانكشف كل سر».


دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي
قطع موكيت


سجاد أطفال
SGS ISO 9001:2000
SGS ISO 14001
SGS ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
صلى
www.maccarpet.com

# جميـــل.. رشـــيق.. وســـيم.. رائـــع



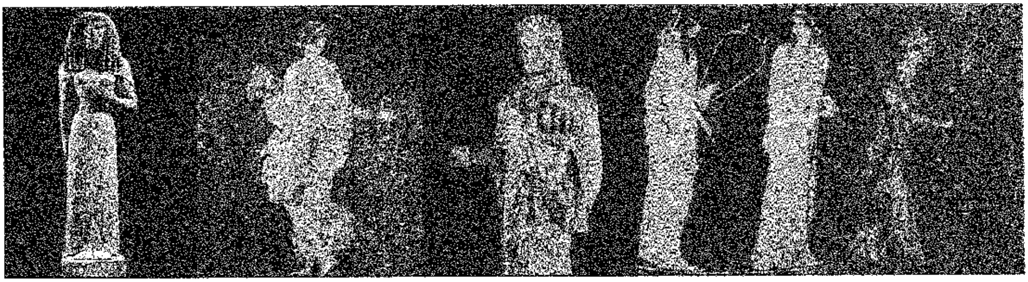
GOYA Y LUCIENTES, The Clothed Maja (La Maja Desnuda) Romanticism (1799-1800)

■■ إن «جميل» - ومعها «رشيق» و«وسيم» أو «مهيب» «رائع» «فائق» وتعبيرات أخرى متشابهة - كلها نعوت نستخدمها في الغالب إشارة إلى ما يروق لنا. وبهذا المعنى، يبدو الشيء الجميل مساوياً للشيء الجيد، والحق أن ثمة ارتباطاً وثيقاً قد تشكل خلال العديد من الأحقاب التاريخية بين الجميل والجيد.

لكن إذا كنا بصدد إصدار الأحكام بناء على أساس ما يستمد من حياتنا اليومية من خبرة، فنحن ننزع إلى تعريف الجيد بأنه - ليس ما يحلو لنا وحسب - إنما ما يجب أن يحلو لنا الحصول عليه. فثمة عدد لا نهائي من الأشياء التي نراها جيدة، مقابلة الحب بالحب، ثروة ينالها المرء بشرف، أطايب الأطعمة. وفي كل هذه الحالات يلذ لنا حوز تلك الأشياء الجيدة. فالشيء الجيد هو ما يثير كوامن رغباتنا. حتى عندما نعد عملاً فاضلاً عملاً جيداً، نود لو أننا القائمون عليه أو نعقد العزم على أن نأتي فعلاً يستحق نفس التقدير، مندفعين في ذلك بما يتوافر لدينا من أمثلة لما نعتبره جيداً. وفي أحيان أخرى نصف الشيء بأنه جيد حين يتوافق مع أحد المبادئ المثالية، إنما المسببة للمعاناة، شأن الموت المجيد لأحد الأبطال أو إخلاص من يعالجون المجذومين أو من يضحون بحياتهم من الآباء من أجل إنقاذ أطفالهم. ونحن في مثل تلك الحالات نتعرف على العمل باعتباره جيداً، لكن، بسبب الأنانية أو المخوف، لا نود أن نجد أنفسنا في موقف مشابه. فنتعرف عليه بوصفه جيداً لكن بوصفه خاصاً بشخص آخر، إننا ننظر إليه بقدر من التجرد وإن داخلتنا العاطفة تجاهه دون أن نستشعر رغبة فيه. وفي أكثر الأحيان عندما نصف أفعالاً خيرة نؤثر أن نعجب بها بدل

# .. مهيب، للجمال أيضاً تاريخ





**Seventh century BC**
*Auxerre Kore,*
Minoan-
Mycenaean

**First century AD**
*Flora,*
fresco from the Villa
of Ariadne, Stabiae

**Sixth century BC**
*Kore*

**470 BC**
*Sappho and Alcaeus,*
Attic red-figure
two-handled crater

**c. 1340**
*Game with a Hood,*
detail of an
embroidered purse
crafted in Paris.

[illegible]

1899
Paul Gauguin,
*Te avae no Maria*

1902
Gustav Klimt,
*Beethoven Frieze,*
detail of the choir of
heavenly angels.

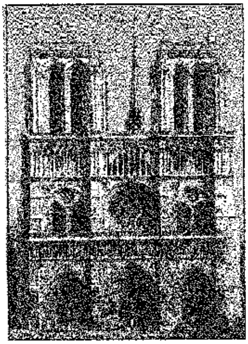
1910
Ferdinand
Hodler,
*Walking*
*Woman*

c.1920
Colette

1946
Rita Hayworth



Cathedral of Notre Dam, Paris (1163 - 1197)






القيام بها، فنحن نتحدث عن القيام بعمل «جميل».

إذا تدبرنا الموقف المتجرد الذي يسمح لنا بأن نعرف شيئاً جيداً لا يثير فينا أية رغبة بأنه جميل، نصل إلى أننا نتحدث عن الجمال عند استمتاعنا بشيء على ما هو عليه بصرف النظر عن امتلاكنا له من عدمه. فلو أعجبتنا كعكة فرح متقنة الصنع بإحدى نوافذ محل الخباز، قد يستوقفنا جمالها لكننا لن نرغب فيها بوصفها شيئاً جيداً يمكن الحصول عليه وذلك مراعاة للمقتضيات الصحية أو لأننا لا نشتهيها. فالشيء الجميل هو ما يجعلنا سعداء لو فزنا به، وهو يلبث جميلاً حتى وإن انتمى إلى شخص آخر. ولا شك أننا لا نناقش هنا مواقف من يرغبون في امتلاك الشيء الجميل، كلوحة خطها فنان شهير، من قبيل زهو الامتلاك ذاته أو لكي يتمكنوا من تأملها يوماً بعد يوم أو لقيمتها الاقتصادية الهائلة. إن هذه الأشكال من العاطفة والغيرة وشهوة الامتلاك والحسد والطمع لا علاقة لها بإحساس الجمال.

عندما يهرع ثلاثون شخصاً إلى ينبوع وقعوا عليه ليرووا ظمأهم، فهم لا يتأملون جماله. غير أنهم قد يتأملونه بعدها ما إن يرتووا. وهذا يفسر الاختلاف بين الإحساس بالجمال والرغبة. فنحن قد نرى الآدميين غاية في الجمال، إلا أننا قد لا نرغب فيهم جنسياً أو إذا علمنا استحالة أن يكونوا ملكنا. لكن إن رغبنا في إنسان (وقد يكون عاطلاً من الجمال) بينما لا يمكن أن تتحقق علاقة نريدها معه، نشعر بالمعاناة.

في هذا العرض لأفكار الجمال عبر العصور، سنحاول بالأساس أن نعين تلك الحالات التي أدركت معها ثقافة ما أو عهد تاريخي معين أن ثمة أشياء تسر المتأملين بغض النظر عما قد نضمره تجاهها من رغبة. وبهذا المعنى لن ننطلق من فكرة مسبقة عن الجمال، بل سوف نستعرض ما عده الإنسان جميلاً عبر آلاف السنين.

ثمة معيار آخر سوف يهدينا على الطريق، ألا وهو حقيقة أن ما صاغه العصر الحديث من علاقة وثيقة بين الجمال والفن ليس علاقة

---

History of Beauty

(تاريخ الجمال)

تحرير: أمبرتو إيكو

ترجمة: أليستر ماكوين

نيويورك: منشورات ريزولي العالمية، ٢٠٠٤، ٤٣٢ صفحة

---

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

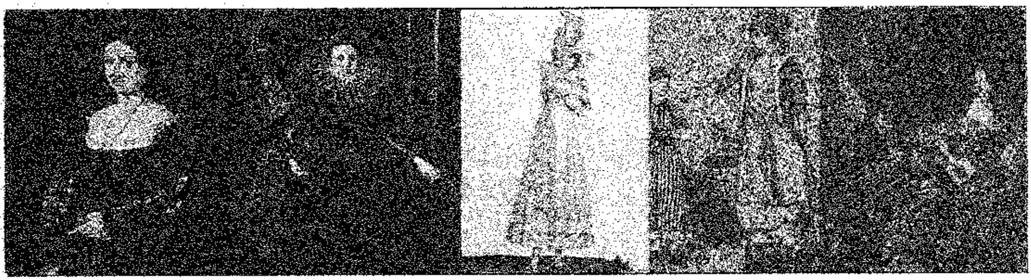
c. 1540
Titian
*La Bella*

1606 - 1607
Peter Paul Rubens,
*Veronica Spinola Doria*

1650
Michel Gatine,
*Madame de Sevigne*
*from Galerie française*
*de femmes célèbres*

1740
Jean-Etienne Liotard,
*French Lady*
*with Turkish Headdress*

1756
François Boucher,
*Madame de Pompadour.*





c.1456
Paolo Uccello,
*St. George and the Dragon*, detail

1469
Francesco del Cossa,
*Allegory of April*, detail,

1503 - 1506
Leonardo da Vinci,
*Mona Lisa*

c. 1514
Raphael
*La Donna Velata*

1530 - 1535
Parmigianino,
*Antea*,

جلية كما قد يتبادر إلى الأذهان. فبينما لا تعترف بعض النظريات الحديثة سوى بجمال الفن، وبالتالي تبخس من قدر جمال الطبيعة، كان العكس صحيحاً خلال فترات تاريخية أخرى، إذ كان الجمال صفة يمكن اقتناؤها من خلال الطبيعة (كما هو الحال مع القمر والفاكهة الشهية واللون الخلاب)، في حين انحصرت مهمة الفن في إتقان الأعمال بما قد يؤدي الهدف المراد منها - لدرجة أن الفن كان كلمة تطبق بلا تحيز على أعمال الرسامين والنحاتين وبناة القوارب والنجارين والحلاقين على حد سواء. ولم نبتدع فكرة الفنون الجميلة إلا بعد مضي وقت طويل وذلك للتمييز بين الرسم والنحت والمعمار وما نسميه اليوم الحرف اليدوية.

ستجد مع ذلك أن التعبير عن العلاقة بين الجمال والفن جاء في الغالب مشوباً بالغموض، فعلى الرغم من تفضيل جمال الطبيعة، ثمة اعتراف بأن الفن يمكنه تصوير الطبيعة تصويراً جميلاً، حتى وإن انطوت الطبيعة المصورة نفسها على المصادفة أو التنافر.

على أية حال، يدور هذا الكتاب حول تاريخ الجمال وليس تاريخ الفن (ولا هو بصدد تاريخ الأدب أو الموسيقى)، وعليه سوف نلوذ بالأفكار التي عبرت من وقت لآخر عن الفن، فقط عندما تتعاطى تلك الأفكار مع الصلة بين الفن والجمال.

ويبقى السؤال المتوقع: لماذا إذن وُثق تاريخ الجمال هذا عن طريق الأعمال الفنية وحدها؟ لأن الفنانين والشعراء والروائيين هم من أخبرونا عبر القرون بما راق لهم من أشياء جميلة، وهم من خلفوا لنا الأمثلة. كذلك صنع الفلاحون والبناة والخبازون والخياطون أشياء ربما رأوها تنطق جمالاً بيد أن أقل القليل من هذه المنتجات قد بقى (كالزهريات والمباني المشيدة لإيواء الماشية وبعض الملابس). وفوق هذا كله، لم يكتبوا شيئاً ليقولوا لنا لم قد يعتقدون الجمال في مثل تلك الأشياء أو ليفسروا ما يعنيه الجمال الطبيعي بالنسبة لهم. فقط عندما يصور الفنانون الحظائر أو الأدوات أو أناس يرتدون ثياباً، نستطيع تخمين أنهم ربما يقولون لنا شيئاً حول مُثل الجمال العليا التي اعتقد فيها الحرفيون بعصرهم لكننا لا نستطيع أن نتيقن من هذا كل التيقن. أحياناً عندما يشخص الفنانون أناساً يعيشون بعصرهم، يستلهمون أفكار الموضة من العصور الإنجيلية أو أيام هومر، وعلى العكس، عند تصوير شخصيات من الإنجيل أو من عصر هومر، يستلهمون الموضة مما هو سائد وقتئذ. لن يسعنا على الإطلاق التأكد مما نبني عليه آراءنا من وثائق بيد أننا نستطيع مع ذلك أن نجازف بالقيام ببعض الاستنتاجات مع توخي الحرص والحذر الواجبين. ففي الغالب عند دراسة منتجات الفنانين أو الحرفيين القدامى، تعاوننا في ذلك النصوص الأدبية والفلسفية المكتوبة بتلك الفترة. لا يمكننا القول مثلاً إن من نحتوا الوحوش على أعمدة الكنائس الرومانسيكية وتيجانها ألفوا فيها جمالاً إلا أن بين يدينا نصاً كتبه القديس برنارد (الذي لم يجد مثل تلك الصور جيدة أو مفيدة) نعلم منه أن المؤمنين استمتعوا بتأملها (وعلى كل، يكشف القديس برنارد في شجبه لها أنه قد تأثر بجاذبيتها على نحو طفيف). وفي تلك اللحظة، ونحن نشكر السماء لتوافر هذه الشهادة التي أتتنا من مصدر لا يقبل الشك، نستطيع أن نقول - على ضوء صوفية القرن الثاني عشر - إن تصوير الوحوش كان جميلاً (وإن كان مستهجناً على المستوى الأخلاقي).

أشرنا إلى أننا سوف نستخدم في الأغلب وثائق من عالم الفن، لكننا، ولاسيما ونحن ندرس الفترات الحديثة، سنستعمل وثائق تفتقر إلى المغزى الفني ولا هدف لها سوى مجرد الترفيه أو الإعلان أو إرضاء الدوافع الشهوانية مثلها مثل الصور التي تفد إلينا من السينما التجارية والتليفزيون والإعلانات. ومن حيث المبدأ ستحتل الأعمال الفنية العظيمة والوثائق ذوات المردود الفني الهزيل نفس القيمة بالنسبة لنا شريطة أن تساعدنا على الوقوف على المثل الأعلى للجمال في فترة معينة.

وبذكر هذا، قد يواجه كتابنا تهمة النسبية وكأننا نروم القول إن الجمال يعتمد على الفترات التاريخية والثقافات المختلفة. وهو تحديداً ما نقصد توصيله. ثمة فقرة شهيرة لزينوفانيس من مدينة كولوفون، أحد الفلاسفة الذين ظهروا قبل سقراط، كالتالي: «لو للثيران أو للأسود أياد لها أن تصور عملاً كتصوير الإنسان له، لو بمقدور الوحوش أن ترسم شبيهاً للآلهة، سترسمها الأحصنة على هيئة أحصنة، وترسمها الثيران على هيئة ثيران، وسوف تتخذ أجسامها هيئة من تنتمي إليها» (القديس أكليمنضس، ستروماتا، ٥، ١١٠).

من المحتمل بالإضافة إلى مفاهيم

1780
Thomas Gainsborough,
*The Hon. Mrs. Lady Graham*

1800
Jacques-Louis David,
*Madame Récamier*,

1866
Edward Burne-Jones,
*The Princess Chained to the Tree*

1877
Charles-Auguste Mengin,
Sappho,

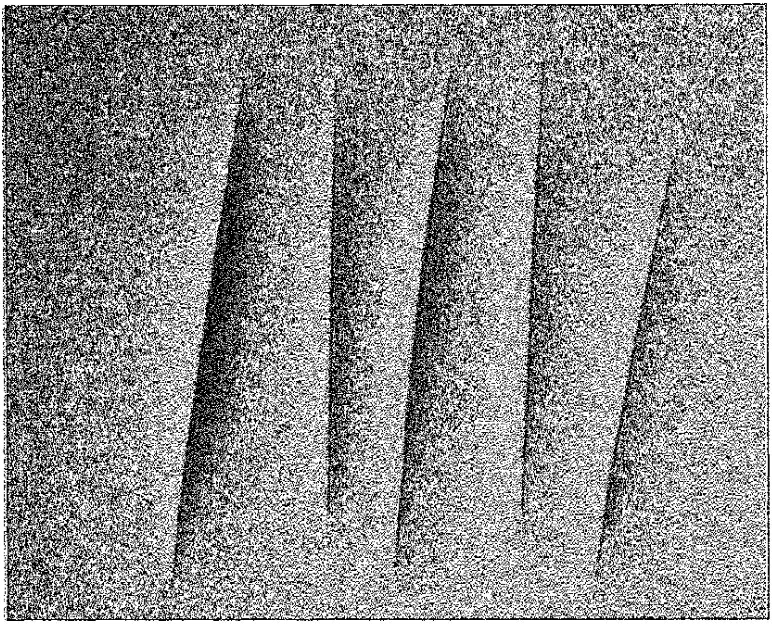


الجمال المتعددة - أن ثمة بعض القواعد المستقرة التي تنطبق على كل الناس خلال كل القرون. لن نحاول في هذا الكتاب التنقيب عنها بكل الطرق لكننا سنلقي الضوء على الاختلافات. ومن واجب القارئ أن ينشد أي انسجام يتخلل تلك الاختلافات.

ينطلق هذا الكتاب من المبدأ القائل بأن الجمال لم يكن البتة مطلقاً وثابتاً إلا انه قد اتخذ جوانب مختلفة اعتماداً على الفترة التاريخية والدولة؛ ولا ينسحب هذا على الجمال المادي فقط (الرجال والسيدات والطبيعة) إنما على جمال الله والقديسين والأفكار...

وبهذا المعنى سوف نبدي كل احترام للقارئ. سوف نُظهر أنه بينما تلوح صور الرسامين والنحاتين بنفس الفترة وكأنها تحتفي بنموذج معين من الجمال (جمال الإنسان والطبيعة والأفكار)، كان الأدب يحتفي بنموذج آخر. من الجائز أن شعراء إغريقيين معينين غنوا برقي نسائي لم يدركه سوى رسامي العهد التالي ونحاتيه. وعلى الجانب الآخر تخيل ما سيعتري ساكن المريخ من دهشة بالألفية التالية عندما يصادف بغتة لوحة لبيكاسو ووصفاً لسيدة جميلة بقصة غرامية بالفترة نفسها. فهو لن يتفهم القصد من العلاقة بين مفهومي الجمال. لذلك سوف يتوجب علينا ان نبذل مجهوداً من حين لآخر كي نحاول أن نرى كيف تتفاعل نماذج مختلفة من الجمال بالفترة نفسها وكيف تشير النماذج الأخرى إلى بعضها البعض عبر الفترات المختلفة.

إن تخطيط هذا الكتاب وأفكاره واضحان من البداية وذلك حتى تتكون لدى القارئ الفضولي فكرة عن مذاق العمل. فالعمل يبدأ بأحد عشر جدولاً للمقارنة، الغرض منها أن يتصور القارئ على الفور كيف عادت أفكار الجمال المتباينة وتطورت (وربما اختلفت) خلال العصور المختلفة بأعمال الفلاسفة والكتاب والفنانين التي كانت أحياناً بعيدة تماماً عن بعضها البعض. وعليه سيرافق النص عند الحديث عن كل عصر أو نموذج جمالي اساسي، صور واستشهادات تتصل بالقضية المتناولة، وسيصحبها في بعض الأحيان إسناد واضح داخل النص. ❊



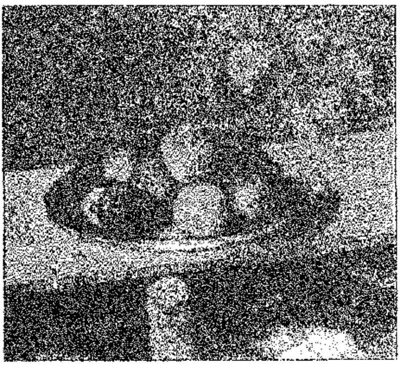
Lucio Fontana
Spatial concept: wait
(1964)



Xanti Schawinsky: Photomontage for an Olivetti Calendar (1934)



Andy Warhol:
Marilyn (1962)



Paul Cezanne: Apples, peaches, pears and grape (1879-80)

النساجون الشرقيون
Oriental Weavers



## إدارة المشروعات الكبرى

[illegible]

تقدم الإدارة برنامج خدمة متكامل يبدأ بدراسة المشروع من حيث الوظيفة المنتظرة للمكان ونوع الاستعمال والميزانية المحددة ثم تقترح النوعيات الملائمة مع دراسة تقديرية للتكلفة وربما البدائل المختلفة كما تقوم من خلال مهندسيها وخبرائها بتقديم الاستشارات أو إعداد كامل للتصاميم والألوان المقترحة استنادا إلى خطة الألوان المقررة للمبنى وطابعه المعماري ويكون ذلك مجانا دون ارتباط من العميل. كما تتابع الإدارة تنفيذ التعاقد مع المشروع وإعداد رسومات وطرق تركيب الموكيت والإشراف عليه مجانا

تضم الإدارة قسما لخدمة ما بعد البيع بما في ذلك طرق الصيانة والتنظيف



8 El Shaheed Zakaria Khalil Street, Heliopolis Cairo Egypt tel : 02 - 2672121 fax : 02 2672241
e-mail owc@orientalweavers.com

# ريـــا وسكينة للجريمة تاريخ آخر!!

صـــــلاح عيســـى

※ لم يكن «أبو مصعب» الزرقاوى حتمًا فى بال الكاتب وهو يعد دراسته المحكمة تلك التى تتعرض فى بعض جوانبها للتناول «الشعبى» لأولئك الذين تقع أسماؤهم - قضائيًا - على لائحة المجرمين والأشقياء.. فتنقلهم «المرويات المتواترة عبر الزمن» إلى مصاف الأبطال الأسطوريين. مثلما كان مع «أدهم» الشرقاوى و«متولى» شقيق شفيقة. أو تصنع منهم رموزًا للجريمة والشر والخسة والنذالة مثلما حدث مع القصة «المجهولة» رغم شهرة أبطالها: «ريا وسكينة».

ورغم اختلاف طبيعى يميز حكاية «أبى مصعب» فى رحلته الطويلة من بلدته الصغيرة شرق الأردن إلى مقتله بقنابل أمريكية زنة (٥٠٠ رطل) شمال بغداد، إلا أنه يظل لافتا وجديرا بالاهتمام أن استفتاءات الإنترنت «التلقائية» وصفت الرجل المفترض أنه مسئول عن مئات الضحايا المدنيين على أنه بطل «أسطورى».

والخلاصة أنه حسب زاوية النظر تبقى للتاريخ دائمًا أكثر من رواية. ※

**المحـــرر**

※ ※ لم يعن أحد من علماء الأنساب برسم شجرة «عائلة همام» التى تنتسب إليها الشقيقتان «ريا بنت على همام» و«سكينة بنت على همام»، حتى بعد أن فرضت الاثنتان نفسيهما على الاهتمام العام، وحفرتا اسميهما - بحروف من دم - فى ذاكرة الناس، تتداولهما الألسن، ولا تكف عن ترديدهما الشفاه، ربما بأكثر مما كانت تردد أسماء الكبار - المحفورة فى ذاكرتهم بحروف من نور - مثل «سعد زغلول» و«عدلى يكن» و«اللورد ملنر» الذين كانوا يتفاوضون أيامها حول مستقبل مصر، بعد الحرب، وبعد الثورة.

وحتى بعد أن انتقل هذا الاهتمام بهما من أحاديث السمار فى عربات الترام وفى المقاهى والمنادر والبارات، إلى هؤلاء الجالسين على القمة، فطلب عظمة السلطان «أحمد فؤاد» من رئيس وزرائه، ووزير داخليته «محمد توفيق نسيم باشا» أن يوافيه بتقرير شامل عن ابنتى «على همام»، واستحث رئيس الوزراء، زميله «أحمد ذو الفقار باشا» - وزير الحقانية - على الإسراع بإنهاء التحقيق معهما، وعلى إبلاغه بنتائجه أولاً بأول، فإن أحداً من المتخصصين فى التراجم والسير، لم يشغل نفسه - آنذاك أو بعد ذلك - بالتأريخ لحياتهما، بعيداً عن الأحساب والأنساب وشجرة العائلة، ولم يجد فى ذلك حافزًا يدعوه لتقصى ما جرى لهما، خلال نصف القرن الذى عاشتاه، قبل أن ينفجر اسماهما فى سماء الوطن كالقنبلة، محاطًا بالدماء والأشلاء والغبار، وبالدموع والصرخات والعار، ثم يرفع هذا التاريخ - كما كانت العادة الشائعة - إلى «السدة السلطانية المنيفة» وإلى «مقام نائب جلالة ملك بريطانيا على مصر والسودان» بعبارات إهداء يصف فيها صاحبتى السيرة بأنهما «بعض ما شتلته أياديكما الكريمة فى أرض الوطن من بذور، فأثمرت وأينعت وتضوعت بالروائح الزكية»، ويوقعها بصفته «الخادم الأمين».

ولو أن أحداً من هؤلاء، أو أولئك قد قام بواجبه، لتخلقت أمامنا صورة حية، لابنتى «على همام» منذ كانت كل منهما نطفة، ثم مضغة، ثم علقة، ثم اكتست عظاماً ولحماً، ثم خرجت إلى الوجود طفلة بلا ملامح أو ذاكرة، تبكى وتضحك، وتلهو، وتخاف من الظلمة، تلقم ثدى الأم وتلوذ بأحضانها، وتحبو فى باحة الدار بين صغار الدجاج والأوز، وتكتشف الحياة من حولها بمرح ودهشة، وتتعثر على لسانها الكلمات.

وما تكاد تدرك الدنيا من حولها حتى تنتهى طفولتها فجأة فتستيقظ عند الفجر، لتشعل الفرن، وتكنس الدار، وتحلب المواشى، وتقدم الطعام للدجاج والبط، وتسحب الجاموسة إلى الحقل، وتستحثها على إدارة الساقية وتعود عند الظهر لتحمل الطعام إلى أبيها، فإذا ما جاء الغروب سرحت وراء المواشى، تتلقى روثها بين كفيها، لتعجنه بشىء من التبن ويكسر من الحطب ثم تنشره فى الشمس ليجف فيصبح وقوداً، إلى أن يأتيها «عدلها»، فتخضب كفيها وقدميها بالحناء، وتبيض وجهها بشىء من دقيق القمح، وتكحل عينيها وتصبغ شفتيها، وتغنى لها الصبايا فى ليلة الحنة، ثم تشيعها الزغاريد فى ليلة الدخلة، إلى بيت زوجها، ومعها صندوق أحمر، تضع فيه - ككل عروس - حاجياتها، فإذا ما فتحت عينيها فى «يوم الصباحية» عادت لتدور - كالنحلة - طول اليوم، وطوال السنة، وطوال الدهر، لا يقعدها برد أو حر أو مرض أو ألم.

ولو أن أحداً من دارسى موجات الهجرة الداخلية، كان قد اهتم - قبل ذلك أو آنذاك - بـ «تغريبة بنى همام» لعرفنا متى.. ولماذا غادرت «ريا» و«سكينة» مسقط رأسيهما فى «الكلح»، فى أقصى الجنوب بالقرب من «أسوان»، حيث الفقر والجدب والوباء ونقص القوت - ولتتبعنا خط سيرهما الطويل، بين القرى والعزب والكفور، والمدن الصغيرة المتناثرة على شاطئ النيل، تحلبان ضرع الأيام، وتبحثان عن لقمة تدفعان بها غائلة الجوع أو لحظة راحة يستنيم فيها ظهر كل منهما لحشية ناعمة، تكف بعدها سلسلة ظهرها عن ذلك التضاغط المؤلم، إلى أن تحط بهما التغريبة - دون إرادة منهما - فى «الإسكندرية»، حيث البحر والنسيم وأضواء الكهرباء والشوارع الواسعة النظيفة، والخبز الطرى، والطعمية الساخنة وعلب «البولوبيف» و«السردين» و«الحلاوة الطحينية»، وجحافل الأجانب من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين واليونانيين، فلا يزيد نصيبهما من المدينة الجميلة على المقدر لهما منذ الأزل:

حجرات مظلمة ضيقة فى حوار وأزقة أكثر ضيقاً، تتلوى على نفسها كالثعابين، وتفوح منها نسائم الفقر وروائح العفونة تضيئها مصابيح من الصفيح الصدئ تشعل بالنفط. وينزوى فى ركن كل منها «زير» من الفخار يملأه السقاء، بقربة ماء كل يومين أو ثلاثة. وتحتشد بآلاف من الجنوبيين من أمثالهما، قذفت بهم يد الله فى التجربة، وحملتهم التغريبة من قرى الصعيد المعلقة فى بطن الجبل، أو جزائره المتناثرة فى قلب النيل، إلى الإسكندرية، هرباً من ثأر أو فراراً من جوع، أو أملاً فى الاستمتاع بشىء من لين الحياة.. فتاهتا فى المدينة الواسعة، وطاردتهما التغريبة فى أزقتها الطينية الضيقة، واضطربتا طول سبع سنوات مريرة، بين «المسكوبية» و«سوق الجمعة» و«زاوية العطش»، وحين يحط بهما الرحال - أخيراً - فى «حارة النجاة» تجدان القدر والمكتوب فى انتظارهما، وينفجر اسماها - كالقنبلة - فى سماوات الوطن، وتقودهما صدفة تعيسة إلى حبل المشنقة، وينتهى الحلم بلين الحياة، إلى موت بلا لين.

أما الناشر المجهول، الذى استغل اهتمام الناس

---

من مقدمة كتاب:
رجال ريا وسكينة: سيرة سياسية واجتماعية
صلاح عيسى
القاهرة: دار الأحمدى للنشر، ٢٠٠٦



الفائق عن الحد، بمعرفة صورتيهما، فطبع عشرات الآلاف منها، تخاطفها الناس في أيام قليلة، وربح من توزيعها مئات الجنيهات، فقد اكتفى بذكر اسم كل منهما تحت صورتها باللغتين العربية والافرنجية، ولم يضف إلى ذلك شيئاً، ربما لكي لا يصادر على حق الناس في أن يتخيلوهما كما أرادوا: مجرد وحوش هربت من الغابة، وظلت تعيش في الدنيا فساداً، إلى أن وقعت في المصيدة.

ومع أن الصحف التي عاصرت بروز اسمي «ريا» و«سكينة» لم تقتصر في إشباع فضول المصريين لمعرفة أنبائهما، بل وخصصت كل منها زاوية يومية ثابتة في مكان بارز لتلك الأنباء على امتداد شهرين كاملين، إلا أنها لم تقصر ـ كذلك ـ في نشر كثير من الوقائع المغلوطة أو الناقصة أو المختلطة. ذلك أن إحساساً عميقاً بالعار، مما ارتكبته «ريا» و«سكينة» كان يغلل روايتها للوقائع. إذ بدا لها أنهما شاهدتان على نقص الرقي الاجتماعي للمصريين، وأن صدقها في رواية الوقائع ربما يستغل للتدليل على عدم كفاءتهم لحكم أنفسهم بأنفسهم، وكانت المناظرة بين الوطنيين المصريين المطالبين بإلغاء الحماية البريطانية على بلادهم، وبين غلاة المستعمرين تدور آنذاك، حول هذا الموضوع تحديداً.

وهكذا تواطأ الجميع بالصمت أو بالجهل أو بسبب الإحساس العميق بالعار، على تحويل «ريا» و«سكينة» إلى رمز أسطوري للشر، لا صلة له بدوافع ما فعلتاه. وأغمضوا عيونهم عن كل ما عدا ذلك. فقد كانوا في حاجة إلى رمز للشيطان فوجدوه، وإلى صورة تجسد الشر المطلق الطليق فطبعوا عشرات الآلاف من صورتيهما وأخذوا يتبادلونها وينسجون حولهما قصصاً وأساطير مرعبة، جعلتهما في النهاية، قرينتين لتلك الشخصيات المرعبة، التي طار صيتها في زمانها، وظل حاضراً إلى أن أدرك زماننا، مثل «أمنا الغولة» و«فرانكشتين» و«دراكيولا».

وربما لهذه الأسباب كلها، دخلت الاثنتان التاريخ، دون أسانيد ـ أو تفاصيل ـ كافية، فلا شجرة أسرة، ولا شهادة ميلاد، ولا تاريخ اجتماعياً، ولا تقرير من قصاص أثر، حول ما فعلتا أثناء التخريبية أو ما فعلت بهما التفريبية، فاستباحهما الجميع، واتخذوا منهما رمزاً لما يريدون، وليس لما كانا يرمزان إليه بالفعل: الآباء الذين يريدون تخويف أبنائهم من النوم دون غسيل الأسنان، والأمهات اللواتي يردن إخافة بناتهن من شر السكك، ومؤلفي الأفلام السينمائية والمسرحيات الهزلية، الذين يربحون من وراء تسلية جمهورهم بشيء من مغامرات الشرطة في مطاردة المجرمين، أو من محاولة دغدغتهم بشيء من كوميديا الرعب، فيضحكون على أنفسهم وعلى الآخرين مع أن الذي يستحق الضحك منه، هو مؤلف تلك الأفلام والمسرحيات.

وكانت «ريا» و«سكينة» هما أول من تعرفت عليه الدكتورة «لطيفة الزيات»



**دخلت الاثنتان التاريخ، دون أسانيد ـ أو تفاصيل ـ كافية، فاستباحهما الجميع، واتخذوا منهما رمزاً لما يريدون، وليس لما كانا يرمزان إليه بالفعل**

أستاذة الأدب الإنجليزي والروائية المعروفة ـ من صور الشر.

ومع أنها ولدت بعد إعدامهما بعامين، ولم تتعرف عليهما إلا بعد ذلك بثمانية أعوام أخرى، ولم تدل بشهادتها في محاضر التحقيق التي أجراها «سليمان بك عزت» ـ رئيس نيابة القاهرة الذي حقق القضية، لأنه كان قد أغلق محضره، ونقل إلى عمل آخر.. ومع أنها «شاهد سماع» لا «شاهد رؤية» إلا أن ذلك لا ينفي الأهمية التاريخية لأقوالها، إذ هي نموذج لتلك الرؤية الأسطورية، التي اغتالت الحقيقة، واهتمت بالرمز على حساب الواقع.

تقول «لطيفة الزيات»: «تعرفت على الشر أول ما تعرفت بصورة غير مباشرة، أحالها خيال أمي، وخيالي إلى صورة مباشرة، وأنا طفلة في الثامنة من عمري. حكت لي أمي عصراً ـ وكانت بارعة الخيال وبارعة القدرة على الحكي ـ قصة أعتى قاتلتين في مصر «ريا» و«سكينة»، وأوردت أمي طقوس القتل بالتفصيل وكأنها تتمثلها: اختيار الضحية، اصطحابها إلى البيت، خنقها، تمزيق جثتها إلى أجزاء، حرق الأجزاء في الفرن الكبير ودفوف الزار التي كانت تغطي على أصوات الاستغاثة حتى لا تصل إلى نقطة البوليس أمام دار «ريا» و«سكينة». وأكدت أمي بالطبع في نهاية الحكاية ـ التي أسرتني تماماً ـ أن الجريمة لا تفيد، وأن الأمر قد انتهى بإعدام «ريا وسكينة».

ذلك نموذج واحد، لتلك المبالغات الخيالية التي تضيف للتاريخ ما لم يحدث فيه، فلم يكن القتل يتم بمصاحبة دفوف زار تغطي على أصوات الاستغاثة، ولم يكن يتم بواسطة الخنق، إذ لم يعثر «الطبيبان الشرعيان» ـ «سيدني سميث» و«عبدالحميد عمار» ـ اللذان قاما بفحص جثث ضحايا «ريا» و«سكينة» على أية كسور في العظام اللامية، وهي عظام الرقبة التي يدل كسرها على أن الخنق هو سبب الوفاة، ورجحا في تقريرهما أن القتل قد تم بطريقة كتم الأنفاس.. ولم يكن هناك تمزيق للجثث، فقد عثر الذين حفروا في أرضية البيوت التي سكنتها ابنتا «علي همام» على الهياكل العظمية لتلك الجثث وهي سليمة وكاملة، على بعضها أجزاء من الأنسجة الرخوة في حالة تحلل، وقد اشتبكت سيقان بعضها بالبعض الآخر لتوفير مساحة الدفن.

أما حرق الجثث في الفرن بعد تقطيعها، فهو نموذج لتلك الرغبة في ترميز «ريا» و«سكينة»، بإضافة كل ما هو جريمة إلى صحيفة حالتهما الجنائية، ونسبة كل ما هو قسوة ولا إنسانية إليهما، ليسهل اتخاذهما كشخصين للشر المجرد، يرجمهما كل من يسمع باسميهما، ويبصق على ذكراهما.. أما التاريخ ـ المفترى عليه ـ فيقول إنهما كانتا أفقر من أن تملكا فرناً لتنضجا فيه رغيفاً من الخبز، أو ما يكفي من المال لكي يشتريا دجاجة تشويانها فيه ويستطرد فيقول: إن الذين أضافوا إليهما تلك التهمة، قد اقتبسوها عن السفاح الفرنسي الشهير «هنري لاندرو» الذي كان يحرق ضحاياه والذي تجمعه

بكل من «ريا» و«سكينة» متشابهات: منها أنه كان مثلهما متخصصاً في قتل النساء فقط، ومنها أنه كان معاصراً لهما، فقد اكتشفت جرائمه في صيف عام ١٩١٩، وقبل شهور قليلة من دخول الاثنتين في «الوعد» الذي قضى عليهما، بأن تشتركا في جرائم القتل.

وليس المهم هو أن تلك المبالغات قد أساءت إلى سمعة «ريا» و«سكينة» ابنتي «علي همام»، إذ كانت من السوء بدرجة لا تحتمل ولا تتأثر بالمزيد منه، لكن المهم هو رد الفعل الحقيقي الذي ترسب في نفس الطفلة التي استمعت إلى هذا التاريخ الأسطوري.. تضيف «لطيفة الزيات»: «ولكن ما أكدته أمي في نهاية الحكاية شيء، وما استقر في كياني شيء آخر.. استقرت كل من ريا وسكينة في كياني حيتين تمليان وجودهما علي.. كالوجود الذي لا وجود عداه.. ولا إفلات منه.. وفي ظلمة الليل، وأنا أنام وأختي صفية التي تصغرني بثلاث سنوات في حجرة مستقلة عن حجرة أمي، داهمتني كل من ريا وسكينة في سريري.. وتحولت وأنا أرقد في سريري إلى الضحية، تنزل بي طقوس القتل طقساً بعد طقس، ووجدت نفسي أجري مرعوبة إلى سرير أمي في الحجرة المجاورة أحتضنها وأنا أرتجف.. أجد في حضنها الملاذ من شرور الدنيا».

وفيما بعد اكتشفت «لطيفة الزيات» أن شرور الدنيا، أكبر من أن تحتمي منها بحضن الأم مهما كان واسعاً ودافئاً. والتقت كثيراً بكل من «ريا» و«سكينة»: مرة وهي في الحادية عشرة وأخرى وهي في الثالثة والعشرين وثالثة وهي على مشارف الستين. وأيقنت أن قهر السلطة، وقهر اللصوص القتلة، هو ذات القهر، وأن شر عصابة «ريا» و«سكينة» لا يقل عن شر رجال الشرطة الذين رأتهم في عام ١٩٣٤ ـ وكانت في الحادية عشرة من عمرها ـ من شرفة منزلها في المنصورة، يردون برصاصاتهم أربعة عشر قتيلاً من بين طلاب المدارس الثانوية، الذين كانوا يتظاهرون ضد ديكتاتورية «إسماعيل صدقي». عدتهم قتيلاً بعد قتيل، ودماؤهم تفور حمراء قانية كالنافورة، فتعرفت على الشر مجسداً على مستوى الدولة.

ثم تعرفت بهما مرة أخرى، حين جلست على شاطئ النيل، وكانت لاتزال طالبة جامعية في الثالثة والعشرين من عمرها: تتابع الغواصين، وهم ينشلون جثث الطلاب الذين سقطوا في مياهه ـ حين أمر رئيس الوزراء «محمود فهمي النقراشي» ـ في ٩ فبراير (شباط) ١٩٤٦، بفتح «كوبري عباس» وجموع المتظاهرين من طلاب الجامعات تحاول عبوره ليصلوا إلى قلب المدينة ـ يخرجون الجثة بعد الأخرى دون أن تستطيع أن تفعل شيئاً.

وذات صباح من بداية الثمانينيات وأثناء اعتقال «لطيفة الزيات» ـ التي كانت قد وصلت آنذاك إلى سن الستين ـ ضمن أسرى الحملة التي شنها نظام الرئيس السادات على المعارضين في سبتمبر (أيلول) ١٩٨١، دهمت فرقة من السجانات عنبر السجينات السياسيات

بسجن القناطر الخيرية للنساء، فحاصرته. وأخذت تقلب بأصابعها القذرة في أخص خصوصياتهن. وطاردت سجانة منهن، فتاة صغيرة لتنتزع منها خطابا تلقته من أبيها. فألقت به الفتاة في المرحاض، وأسرعت السجانة تمد يدها إلى فوهته، لتعود بالخطاب ملوثاً بما كان يحيط به. وحين رأتها «لطيفة الزيات» لم تستطع ان تحدد ما إذا كانت ملامحها أقرب إلى ملامح «ريا» أم إلى ملامح «سكينة» كما جسدتها الممثلتان «نجمة ابراهيم» و«زوزو حمدي الحكيم» في فيلم «صلاح أبو سيف» الذي يحمل اسميهما. لكنها كانت واثقة ان السجانة كانت إحداهما، وربما كليهما، وبدا لها ما تفعله طقساً من طقوس القتل التي تعرضت لها وهي طفلة، فجرت مذعورة تلوذ بأحضان أمها من شرور الدنيا.

وعلى تلك الحافة بين الكابوس والواقع، سقط من وعي «لطيفة الزيات» الحد الفاصل بين القهر الواقع من السلطة والقهر الواقع من عصابة اللصوص. وخاضت مع زميلاتها المعركة ضد فريق السجانات، وكأنها تصفي حساباً قديماً مع «ريا» و«سكينة»، وتنتقم لعجزها حين رأتهما - على رأس عصابتهما - يردون بالرصاص أربعة عشر من طلاب المدارس، وهي جالسة إلى جانب «كوبري عباس» وقد تحجرت الدموع في عينيها تنتظر رفاقها الغرقى، رفيقاً بعد رفيق.. من دون قدرة على أن تفعل شيئاً.

وحين انتهت المعركة، استفتت زميلاتها فيما إذا كانت ملامح السجانة - الممسوحة الأرداف والأثداء - أقرب إلى ملامح «ريا» أم إلى ملامح «سكينة»، فتضاحكن من ذلك الخلط بين الأشخاص والأزمان، والأدوار والوقائع. فقد كانت الشقيقتان تنتميان إلى فريق «الحرامية»، أما السجانة فهي تنتمي إلى فريق «العسكر». لكن «لطيفة الزيات» كانت واثقة بأنه لا خلط هنالك بين العسكر والحرامية.. أو بين قهر «ريا» و«سكينة» وقهر شرطة عهد «السادات».

والحقيقة أن الخلط كان قد حدث في ذلك الزمن البعيد غير السعيد، حين تحولت ابنتا «علي همام» من حقيقة إلى أسطورة، ومن واقع إلى رمز، ومن امرأتين ضعيفتين مطحونتين إلى تجسيد للشر المطلق الطليق. ولو أن «لطيفة الزيات» كانت قد عرفت قصة «ريا» و«سكينة» من مصادرها التاريخية - وليس على لسان الرواة - لأدركت أنهما على الرغم من شرهما البادي وغير المنكور، لم تكونا سوى ضحيتين من ضحايا قهر دفعهما دفعاً إلى تلك القسوة النادرة المثال، التي لا تغادر ذاكرة الناس إلى اليوم.

ولو أن هذه الحقيقة كانت قد عرفت آنذاك، لما أثرت الأسطورة الشائعة عن «ريا» و«سكينة» على نفس «فؤاد الشامي» تأثيراً يختلف تماماً عن تأثيرها على شخصية «لطيفة الزيات»، فهو على العكس منها، لم يخف منهما، ولم يجر إلى حضن أمه لكي يلوذ به من شرهما، إذ كان معجباً بهذا الشر المجرد الذي نسب إليهما، وشاع عنهما. مع أنه لم يكن مثلهما فقيراً يتكفف القوت - إذ كان والده تاجراً ميسور الحال. فقد كان «فؤاد» منذ حداثته مفتوناً بقوته البدنية المفرطة، يزهو بها على أقرانه، ويعتبرها رأس ماله الذي يحفظ له مكانته بينهم. فأغراه ما نسب إلى ابنتي «علي همام» من قسوة وغرق في أحلام يقظة يتقمص خلالها شخصية الجلاد، لا شخصية الضحية.. وأخذ يفاخر زملاءه بجرائم لم يكن قد ارتكبها بعد، يصوغها على نسق ما كان يشاع من أساطير عن جرائم «ريا» و«سكينة»، ثم ما لبثت الأكاذيب أن تحولت إلى حقائق، وأصبح «فؤاد الشامي» فتوة لشارع عماد الدين، يفرض الإتاوات على ملاهيه وباراته وراقصاته.. فإذا امتنع أحد عن الدفع، قامت عصابته بتحطيم البار أو الملهى، أو بضرب المتمرد على ارادته. إلى أن رفضت راقصة من الدرجة الثانية اسمها «امتثال فوزي» راية العصيان، وتوقفت عن الدفع، وأصرت على موقفها على الرغم من كل التهديدات ومحاولات الترويع والتخويف. فلم يجد أمامه وسيلة لوقف التمرد، إلا بقتلها فطعنها أحد أفراد عصابته، برقبة إحدى زجاجات البيرة.

لم يعد سراً تاريخياً، أن العرب - كغيرهم من شعوب العالم - قد يقدسون أحياناً، أشخاصاً ممن يصنفون عادة، في الرؤية الشرطية - باعتبارهم مجرمين. وربما داعرين، فني كثير من القرى العربية، تتناقل الأجيال - عن طريق التواتر - سيرة ابن من أبناء القرية، هو نموذج لكل الفضائل البشرية. فهو وسيم وذكي وشجاع وقوي وشديد الاعتزاز بكرامته، لا يخاف من أحد ولا يطأطئ رأسه لأحد، وهو فضلاً عن هذا مقاتل عنيد، لا يهاب عدواً ولا يهزم في معركة حتى لو خاضها وحيداً بلا أعوان. لكنه - على الرغم من ذلك كله لا يعتدي على فقير، أو ضعيف أو مظلوم، فهو يتصدى - فقط - للأقوياء والمتجبرين وظالمي العباد، وآكلي السحت، والذين يستحلون أموال اليتامى والثكالى والأرامل، فهو رمز لتمرد المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، لذلك يحيطه الناس بهالات من الإعجاب، ويحرصون على تلقين سيرته لأولادهم، ويختارون اسمه لأكبر هؤلاء الأولاد، وقد يدرجونه من دون حيثيات مقنعة بين أولياء الله الصالحين ويقيمون له - بعد موته - مقاماً (أي ضريح) يتلون حوله الأوراد والأذكار ويقدمون إليه النذور.

وليس لمعظم هؤلاء الذين يوصفون في المصطلحات الشرطية بـ «الأشقياء» تاريخ مدون، نستطيع أن نعود إليه لكي نعرف الحد الفاصل بين التاريخ والخيال وبين الحقيقة وما أضفته عليهم الرؤية الشعبية من صفات عظيمة وأعمال باهرة، حولتهم إلى أسطورة، لكن المشترك بينهم، هو أنهم - في الأغلب الأعم - ممن يشقون عصا الطاعة على السلطة المحلية في القرية أو المحلة أو المنطقة، سواء كان ممثل هذه السلطة «عمدة» أو «مختاراً» أو «باش آغا» أو إقطاعياً يملك الأرض وما عليها من بشر ودواب، خاصة في أثناء العصر التركي المملوكي، الذي خضعت في ظله البلاد العربية لحكم باطش، كان يستنزف أموال الناس بالضرائب والفرد والمكوس ويستحل انتهاك أعراضهم، وإهدار آدميتهم وتعذيبهم وقتلهم. ثم في ظل الحكم الأجنبي الذي كان يفعل بهم الشيء نفسه.. فكان منطقياً أن ينحاز الناس تلقائياً لكل من يشق عصا الطاعة على هؤلاء الحكام الظالمين، وأن يعتبروه بطلاً، وربما ولياً أو قديساً، بصرف النظر عن التصنيفات الشرطية، وأن يتواطأوا على إخفاء بعض ما طالهم من شره وظلمه. وأن ينتدبوا من بينهم ذلك الفريق من المؤرخين الفولكلوريين، الذين يصوغون التاريخ في صورة مواويل وسير وملاحم، تزدري بحقائقه، لأن ما يعنيهم هو أن يتركوا للأجيال القادمة، رمزاً للسوبرمان، الذي يتمرد على سلطة لا يستقيم بين يديها ميزان العدل.



لم يعد سراً تاريخياً.
أن العرب - كغيرهم من
شعوب العالم
- قد يقدسون أحياناً.
أشخاصاً ممن
يصنفون عادة - في الرؤية
الشرطية -
باعتبارهم مجرمين،
وربما داعرين

وقليلون من هؤلاء الأشقياء هم الذين أدركوا عهد التوثيق أو المطبعة، فتركوا وراءهم شواهد تصلح أساساً للمقارنة بين الحقيقة التاريخية والخيال الشعبي، وقليلون بين هذا القليل، هم الذين تعدت شهرتهم النطاق المحلي لتبرز أسماؤهم على الصعيد القطري أو القومي، وأحياناً الدولي.

ومن النماذج الأولى في تاريخ مصر، «ياسين» - الذي دخل التاريخ عبر موال «بهية وياسين» - و«متولي» - الذي دخله عبر موال «شفيقة ومتولي» - وكلاهما رمز للدفاع عن حق الأخذ بالثأر والانتقام للعرض، و«أدهم الشرقاوي» الذي حوله التاريخ الشعبي من قاطع طريق إلى مقاتل ضد الاستعماريين التركي والإنجليزي.

ومن هذه النماذج في تاريخ لبنان «شاهين ومرعي»، فقد طار صيت هؤلاء جميعاً من نطاق مناطقهم المحلية إلى نطاق إقليمي.

أما قصة البطل الشهير «روبن هود» الذي كان يختفي في غابة «شيروود» الإنجليزية، ليقطع الطريق وينهب مال الأثرياء ليتصدق به على الفقراء، وكذلك قصة قاطع الطريق المكسيكي «زاباتا» فضلاً عن أنهما نموذجان للبطل الشعبي الذي يخترق الحدود والأزمان، فهما شاهدان على أننا - نحن العرب - لم نبتدع هذا التقديس للأشقياء وقاطعي الطرق، وأن المقهورين على امتداد الزمان والمكان، كانوا ينتظرون ذلك الذي يأتي لكي يملأ الدنيا عدلاً ونوراً، بعدما ملئت ظلماً وجوراً، وحين يطول انتظارهم، كانوا يتسلون بصنعه، فيخلطون - متعمدين - بين الواقع والخيال، وبين التاريخ والأسطورة، وبين المجرمين والثوار.

وتنفرد «ريا» و«سكينة» بمكانة خاصة في هذا التاريخ الفلكلوري للجريمة، فقد تعود الناس ألا يحتفظوا في ذاكرتهم إلا بأسماء هؤلاء الأشقياء الذين استقر في وجدانهم أنهم رمز لذلك الثائر الذي ينتظرونه لكي يعدل ميزان العدل المختل، وأن ينسوا أسماء الباقين، ويتنفسوا الصعداء

حين يصلهم خبر القضاء عليهم. وقد فعلوا ذلك يوم نفذ حكم الإعدام شنقا فى كل من «ريا» و«سكينة» صباح يوم الأربعاء ٢١ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢١، فقد احتشدت خارج جدران «سجن الحضرة» فى هذا الوقت المبكر، وعلى الرغم من البرد القارس، جماعة كبيرة من نسوة الأحياء الشعبية بالإسكندرية، جئن لكى يتأكدن بأنفسهن من إعدامهما، ولكى يعبرن عن فرحتهن بذلك. وظللن طوال الوقت يهتفن ويزغردن ويرقصن ويغنين خلف واحدة منهن: مطلع أغنية راقصة تقول: «خمارة يا أم بابين.. روحت السكارى فين؟».. وبعد أن نكست إدارة السجن العلم الأسود المرفوع على ساريته دلالة على انتهاء تنفيذ الحكم بالإعدام، هتفن: «عاش اللى شنق «ريا».. عاش اللى شنق «سكينة».

لكن الاسمين - استثناء من القاعدة التى وضعها المؤرخون الفولكلوريون لأنفسهم - ظلا فى ذاكرة الناس، فلم ينسوهما على الرغم من أن المعاصرين لهما قد شيعوهما باللعنات.

وتثير المفارقة بين المكانة التى احتلها فى نفوس الناس كل من «أدهم الشرقاوى» من جانب و«ريا» و«سكينة» من جانب آخر، الدهشة، وتلفت النظر بتباينها الشديد.. والحقيقة أن هناك ما يدعو للمقارنة بين الطرفين، إذ كان «أدهم» معاصرا لهما، بل وبدأ نشاطه الإجرامى معهما فى السنة نفسها (١٩١٩)، ولقى مصرعه فى كمين نصبته له الشرطة يوم الأربعاء ١٢ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢١، قبيل إعدامهما بحوالى سبعة أسابيع، فتلقى الناس الخبر بنفس الفرحة التى استقبلوا بها إعدام «ريا» و«سكينة».. وقال مندوب «الأهرام» إن خبر اقتناص البوليس له، ما كاد يتأكد حتى انطلقت الزغاريد فى أنحاء القرى التابعة لمركز «إيتاى البارود» و«كوم حمادة» التى كانت مسرحا لنشاطه، ابتهاجا بمقتل كبير الأشقياء الذى أدت جرائمه إلى ركود التجارة وتوقف سوق المعاملات.

وليس فى المعلومات التاريخية التى بين أيدينا ما يبرر ذلك التباين الشديد - الذى برز فيما بعد - فى مكانة كل من الطرفين فى نفوس الناس، بين الاحترام البالغ لـ«أدهم» والاحتقار البالغ لكل من «ريا» و«سكينة» فهذه الحقائق تقول إن «أدهم» كان قاطع طريق، وقاتلا يستأجر للقتل، وأن بعض أعيان المنطقة التى اتخذها مجالا لنشاطه الإجرامى، كانوا يستأجرونه لقتل خصومهم، وأنه كان يفرض الإتاوات على التجار والأعيان، ويحكم على مخالفيه بالإعدام، وينفذ جرائمه علنا فى وضح النهار، وقد وصفه مراسل «الأهرام» المتجول بأنه «كان يملك قلبا أقسى من الحجارة، لا يعرف رحمة ولا شفقة، قتل عشرات الرجال والنساء ونهب وسطا سطوات عديدة على المال والعرض، ونشر الرعب فى أنحاء مراكز «إيتاى البارود» و«كوم حمادة» و«الدلنجات».

وعلى العكس من «ريا» و«سكينة» اللتين لا نعرف عن أبيهما «على همام» شيئا إلا اسمه الذى لا يعنى - فى ذاته -



كانتا تنويعاً
على شخصية «أبو العلا
الاسخريوطى»
أكثر مما هما تنويعاً على
شخصية
«أدهم الشرقاوى»،
إنهما مجرمتان
بلا قضية،
وبلا معنى

شيئا، فنحن نعرف أن الشيخ «عبدالحليم الشرقاوى» - والد «أدهم» - كان من أعيان قرية «زبيدة» التابعة لمركز «إيتاى البارود» أحد مراكز مديرية (محافظة الآن) البحيرة المتاخمة للإسكندرية وكان يملك ٥٠ فدانا، لو كان «على همام» يملك واحدا فى المائة منها، لما تغربت ابنتاه التعيستان من جنوب الوادى إلى شماله، وقادرهما فى إثرهما، ونعرف أن عمه «عبدالمجيد بك الشرقاوى» كان عمدة القرية، وأنه على العكس منهما، دخل المدارس، وتعلم وحصل على الشهادة الابتدائية فى زمن كانت الصحف تنشر فى صدر صفحاتها الأولى أسماء الذين يحصلون عليها، وقطع شوطا فى دراسته الثانوية، ثم توقف عن استكمالها عام ١٩١٥ - وكان فى السادسة عشرة من عمره - حين نشبت المشاكل بينه وبين عمه «عبدالمجيد بك الشرقاوى» فلفق له العم تهمتى سطو وشروع فى قتل، وشهد ضده أمام المحكمة، فحكمت عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات. وفى عام ١٩١٧ لحق به فى السجن أحد أتباع عمه، ممن شهدوا ضده، فقتل أدهم هذا التابع وحوكم مرة ثانية، وصدر ضده حكم آخر بالسجن المؤبد.. لكنه هرب بعد عامين عندما هاجم المتظاهرون، أثناء ثورة ١٩١٩ «سجن ليمان طرة» ومكنوا معظم المقيمين فيه من الهروب منه، ليختفى عن أعين السلطات التى تطارده فى زراعات الذرة الكثيفة، وليتربص بعمه وابن عمه لينتقم منهما، ومع أن هجماته الجريئة لاقتناصهما كانت تفشل عادة، بسبب حذرهما الشديد، فإنها قد لفتت إليه أنظار أشقياء المنطقة الذين بهرتهم جرأته، فانضموا إليه، وتوحدوا تحت قيادته، ليتشكل منهم العصابة التى أثارت الفزع فى شمال الدلتا على امتداد ثلاثين شهرا.

ومع أنه كان رجلا، فقد كان أكثر جمالا من «ريا» و«سكينة» اللتين أضاعت التغريبة كل ما كان لهما من ملامح وعلامات الأنوثة، فقد كان - والعهدة على مراسل «الأهرام» المتجول - «طويل القامة قوى العضلات، أشقر اللون، وكان إذا لبس الملابس الأفرنجية والبرنيطة، لا يستطيع أحد أن يفرق بينه وبين الرجل الفرنساوى أو الطليانى أو الإنجليزى».

ولو أننا اعتمدنا على الحقائق التاريخية وحدها، لجاز لنا أن نقول إن «أدهم الشرقاوى» ليس أكثر من ابن ذوات غرته قوته، وأفسده تدليل أسرته، وأبطره ثراؤها، وقاده إلى الجريمة، ما بين أصولها وفروعها من منافسات وأحقاد، ولجاز لنا أن ندهش لتلك الصورة الغريبة التى صوره بها المؤرخون الفولكلوريون، حتى استقر - ولا يزال - فى وجدان الناس بطلا ورمزا لمقاومة الشر حتى تحولت سيرته إلى موال يقول مطلعه «منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه.. شبه المؤيد أمنات إذا حفظوا العلوم وتلوه.. الاسم أدهم لكن اللقب شرقاوى.. وأهلى فى البحيرة ناس عايشين بالجد غير الجد لم يتولوه». بينما لا يختلف ما فعله، عما فعلته «ريا» و«سكينة» اللتان لم يفخر أحد بما فعلتا، بل ظل الجميع يطأطئون الرأس خجلا

كلما سمعوا اسميهما، ويتمنون لو أنهما كانتا غير مصريتين، ولم يؤلف فيهما الشاعر الشعبى المجهول سوى ذلك المطلع الساخر الذى كانت تغنيه نساء الإسكندرية فى احتفال زفافهما إلى المشنقة، وهو أبعد ما يكون عن التقدير والاحترام.

فهل يجوز لنا أن نحكم بأن هناك «خيارا» و«فقوسا» فى دنيا الجريمة وعالم الأشقياء، وأن المؤرخين الفلكلوريين، كبعض المؤرخين الأكاديميين، يكيلون بكيلين ويزنون بميزانين، أو يطففون فى الميزان، لترجيح كفة أولاد الأعيان، كفة أولاد «على همام»، وإنه لو كانت «ريا» و«سكينة» تحوزان شجرة عائلة، لوجدنا من يؤلف فيهما موالا يقول مطلعه «منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه.. شبه المؤيد أمنات إذا حفظوا العلوم وتلوه.. الاسم ريا لكن اللقب همام.. وأهلى فى الكلح ناس عايشين للجد، غير الجد لم يقولوه؟» اقتباسا أو معارضة للموال الشهير الذى ألفه - فى الغالب - أحد أفراد عصابة «أدهم الشرقاوى» فى رثائه؟.. ربما يجوز ذلك.

أما المؤكد فهو أن التوفيق قد أخطأ مراسل «الأهرام» المتجول، حين تنبأ بأن التاريخ سيخلد اسم الخفير النظامى «محمود أبو العلا» والجاويش «محمد خليل»: الأول لأنه، وهو صديق «أدهم» وتابعه وعينه على تحركات أعدائه، هو الذى خانه وتواطأ مع الشرطة ضده، واستدرجه الى المكان الذى قتل فيه، والثانى لأنه كان على رأس اثنين من زملائه، تنكروا فى زى الفلاحين، وكمنوا فى الغيطان إلى أن ظهر «أدهم» فى المكان الذى حدده لهم صديقه الخائن، وكان يستعد لتناول عشائه حين شعر بحركة خفيفة فى حقول الذرة، فمد يده لكى يتناول بندقيته الموزر، ولكن الجاويش «محمد خليل» عاجله برصاصتين سقط على أثرهما مضرجا بدمائه.

وعلى عكس نبوءة مراسل «الأهرام» فقد اختفى اسم «الجاويش محمد خليل» فلم يعد أحد يذكره، أما «محمود أبو العلا» فقد عاش فى ذاكرة الناس، كما عاشت «ريا» و«سكينة» رمزا للخيانة والغدر وتحول على لسان المؤرخ الشعبى، إلى طبعة من «يهوذا الاسخريوطى» الذى سلم السيد المسيح لأعدائه مقابل ثلاثين قطعة من الفضة. ومع أن مشهد تسليم أدهم لأعدائه، لا يبتعد كثيرا عن الحقيقة التاريخية، إلا أن المؤرخ الشعبى المجهول، قد أضاف إليه اقتباسات واضحة من الإنجيل، وخاصة الحوار بين «أدهم اليسوعى» و«أبو العلا الاسخريوطى» أثناء «العشاء الأخير» الذى لم يشهده «أبو العلا» فى الحقيقة، وقبل دقائق من هجوم الأعداء.

وهكذا اختار المؤرخ الشعبى المجهول من حياة «أدهم الشرقاوى» محورا واحدا ركز عليه، واعتبره مبررا لتقديسه والدفاع عن ذكراه، هو ثورته على خيانة صلات الرحم، وإهدار علاقات الصداقة والمودة، وعدم احترام علاقة أكل العيش والملح بين الناس. وربما لو لم يكن الاثنان من ذوى قرباه الذين تربطه بهم صلة الدم وأواصر

الرحم، لما ثار ضدهما كل تلك الثورة التي قادته إلى سلسلة جرائمه الأخرى. فأتاح بحياته وبموته، للمؤرخ الشعبي فرصة نادرة لكي يضيف اسمه إلى قائمة الأبطال التاريخيين الذين هزمهم «الوالي» - الخيانة - ابتداء من «طومان باي» الذي شنقه الوالي على باب زويلة، وحتى «أحمد عرابي» الذي هزمه الوالي في التل الكبير.

وربما لهذا السبب ثقلت مكانة «أدهم الشرقاوي» في موازين التاريخ الشعبي، بينما خفت مكانة كل من «ريا» و«سكينة». وعلى عكس عشرات من أولاد الليل وبنات الليل الذين أقام لهم المصريون مقامات يزورونها، ويتبركون بها، ويقدمون إليها النذور، ويوقدون حولها الشموع فإن أحداً لم ينشئ لابنتي «علي همام» مقاماً، أو يبني باسميهما سبيلاً، يرتوي منه العطاشى العابرون فيقرأون على روحيهما الفاتحة، ويطلبون لهما الرحمة.

أما السبب فلأنهما كانتا تنويعاً على شخصية «أبو العلا الاسخريوطي» أكثر مما هما تنويعاً على شخصية «أدهم الشرقاوي». إنهما مجرمتان بلا قضية، وبلا معنى. وفضلاً عن ذلك فإن ضحاياهما كن مثلهما، ضحية للفقر والجوع وافتقاد الأمن والراحة والطمأنينة: مومسات شعبيات ينتمين إلى تلك الفئات التي كانت صحف العشرينيات تصفها بأنها «طبقات واطئة» ليس لإحداهن شجرة عائلة، وليس لمعظمهن أهل يسألون عنهن إذا غبن، أو يغضبون لشرفهن الذي كن يبعنه بأبخس الأثمان، بنصف ريال، تحصل «ريا» على نصفه، بينما كانت «سكينة» تحصل عليه كله، مقابل إطعام المومس. لا يعرف أحد من أين جئن، وإلى أين يذهبن، يحولن عرق أفخاذهن، إلى غوايش وأساور من الذهب، تضمنها حول معاصمهن لعلها تجلب لهن احتراماً اجتماعياً يفتقدنه. والأهم من هذا وذاك: أنهن كن جميعاً من أصدقاء «ريا» و«سكينة»، أكلن معهما عيشاً وملحاً، وشربن معهما نبيذاً وكونياك فلم يشفع ذلك لهن. واستدرجتهن السفاحتان إلى بيوت الهلاك الأربعة التي كانتا تديرانها، لتقتلاهن، وهن يأكلن معهما العيش والملح ويشربن النبيذ. كما فعل كل من يهوذا وأبو العلا - الاسخريوطيان.

وهكذا كان ما لابد أن يكون: اختفى الاسمان من دفاتر المواليد، ومكاتب السجل المدني، كما اختفى اسم «خاير بك» الذي تواطأ مع السلطان العثماني «سليم الأول» على تسليم مصر والشام إليه، فسماه الناس «خاين بك»، وكما اختفى اسم الضابط «علي بك يوسف» الذي والس على «عرابي» في معركة التل الكبير فسماه الناس «خنفس بك». وأصبح نادراً أن تجد امرأة مصرية، ولدت بعد عام ١٩٢٠ - تحمل اسم «ريا» أو «سكينة»، مع أن الاسم الأخير هو اسم السيدة «سكينة» بنت «الإمام الحسين» وحفيدة «الإمام علي» رضي الله عنهما، ومع أن أسماء «آل البيت» كانت - وما تزال - في مقدمة الأسماء التي يفضل المسلمون من المصريين اختيارها لأبنائهم على سبيل التبرك والقدوة.

وعلى الرغم من هذا الاختفاء، دخلت الاثنتان التاريخ كعلمين مفردين، لم يتكررا، ليظلا - كما أرادت لهما الأسطورة الشعبية، أن تكونا رمزين لخيانة علاقات العيش والملح، التي هي أشر الشرور، وأكثرها مدعاة للاحتقار.

أما وقد دخلت الاثنتان التاريخ، بتلك الصورة الرمزية، التي اختزلت كل ملامحهما الإنسانية، لتبدو كتلك الصور التي ترسم بطريقة «السلويت»، مجرد بقعة من السواد، تحدد الإطار الخارجي للوجه، فقد كان لابد من البحث عن أسانيد دخولهما إليه، ومن التفتيش عن شجرة الأسرة وشهادة الميلاد وشهادة الفقر، وتقارير قصاصي الأثر، وصحيفة الحالة الجنائية، لعلها تضيء تلك الصورة الغامضة وقد تكشف عن المجرم الحقيقي الذي لم يتضمنه قرار الاتهام في قضية «ريا» و«سكينة».

وكان ذلك هو الواجب الذي دفعتني مصادفة للقيام به.

ذات يوم من بداية عام ١٩٩٣، كنت أبحث في فهرس ملفات القضايا السياسية الكبرى المودعة بـ «المركز القومي للدراسات القضائية» عن ملف قضية الحزب الشيوعي المصري الأول، الذي تأسس في العشرينيات، حين وقعت عيناي في الفهرس على عنوان يقول «ملف الجناية نمرة ٢٣ لسنة ١٩٢٠ قسم شرطة اللبان المتهم فيها ريا بنت همام وسكينة بنت همام وآخرين» فأثار فضولي ودونت على ورقة أمامي رقم الميكروفيلم الذي صورت عليه أوراقه، وانشغلت بما كنت أبحث عنه.

وبعدها بأسبوع، فكرت أن أشغل نفسي - خلال فترة الانتظار التي يتم خلالها استكمال تصوير ملف قضية الحزب الشيوعي - بإلقاء نظرة على ملف «قضية ريا وسكينة»، فطلبت الميكروفيلم الذي صورت عليه لكي أتصفحه، وفي ظني أن الأمر لن يستغرق سوى نصف ساعة، ألم فيها بمحتوياته.

وما كدت أستعرض البيانات الأولية عن القضية، حتى لفت نظري أن المحامي الذي انتدب للدفاع عن ابنتي «علي همام» أمام محكمة جنايات الإسكندرية هو «أحمد أفندي المدني» الذي ورد اسمه بوفرة في وقائع قضية الحزب الشيوعي المصري، إذ كان أميناً لصندوقه، ثم سكرتيراً عاماً له، وكان كل ما لدي من معلومات عنه، أنه كان محامياً متخصصاً في الدفاع عن العمال، ويتسم بنزعة اشتراكية معتدلة.

ومع أن الدافع الظاهر لي، لمواصلة تصفح الملف، كان البحث عن مزيد من المعلومات عن «أحمد أفندي المدني» إلا أن هناك دافعاً آخر خفياً، لم أتبينه إلا فيما بعد، كان يغريني بالتوقف أمام بعض صفحاته، فعلى الرغم من أن ابنتي «علي همام» ظلتا علمين: تستخدم الأمهات اسميهما لتخويف أطفالهن، وتكرر الصحف نشرهما في عناوينها الرئيسية كلما كشفت الصدفة عن



**دخلت الاثنتان التاريخ كعلمين مفردين، لم يتكررا، ليظلا - كما أرادت لهما الأسطورة الشعبية، أن تكونا رمزين لخيانة علاقات العيش والملح، التي هي أشر الشرور، وأكثرها مدعاة للاحتقار**

عصابة للقتل المقترن بالسرقة باعتبارهما صاحبتي مدرسة إجرامية متميزة، فقد كانت المعلومات التفصيلية المعروفة عنهما، تتسم بالتشوش المضطرب، وتستند إلى مرويات شعبية اصطنعت الصحافة بعضها، ونقلت بعضها الآخر من أفواه المعاصرين، ثم ظلت - فيما بعد - تكرر نشرها، وتضيف إليها، وتعيد تصديرها إلى قرائها، ليضيفوا إليها ما تعيد الصحف نشره إلى أن قدم «صلاح أبو سيف» - في عام ١٩٥٣ - فيلم «ريا وسكينة» مستنداً إلى جانب من تلك المرويات الشعبية، ومضيفاً إليها قصة لم تحدث من الأصل، استلهمها - في الغالب - من أفلام الحركة الأمريكية التي كانت شائعة في ذلك الحين، هي قصة مغامرات ضابط الشرطة «أحمد يسري» - وهو الدور الذي لعبه «أنور وجدي» - للكشف عن سر عصابة «ريا» و«سكينة»، ليتخذ من تلك المغامرات محوراً للسيرة السينمائية التي قدمها لابنتي «علي همام» فاعتمدت منذ ذلك الحين، لدى كل الناس، باعتبارها - سيرة رسمية لهما، بل وأصبحت - بسبب ما حققته من رواج جماهيري - الأساس الذي استلهم منه آخرون أفلامهم ومسرحياتهم عنهما.

وكان القليل الذي أتذكره، مما وقع عليه بصري، وأنا أقلب في الصحف المعاصرة لوقائع الكشف عن جرائم من وصفتهم صحف تلك الأيام بـ «رجال ريا وسكينة» يتسم بالتشوش نفسه، فقد كان تحقيق النيابة في القضية - كما تبين لي بعد ذلك - سرياً، وهو ما اضطر مندوبو الصحف المعاصرة إلى التقاط الأنباء، من أفواه كتبة النيابة، والشهود، وبعض أهالي المجني عليهم، ومن جيران ابنتي «علي همام»، وأرسلوها إلى صحفهم التي تلقفت كل ذلك ونشرته لإشباع فضول قرائها في معرفة أسرار ما كان يجري فيما سمته بـ «بيوت الهلاك».

ولم يكن فضولي لمعرفة الحقيقة، أقل من فضول أولئك المعاصرين، أو بعيداً عن شغفي - منذ عهد دراستي العالية - بالجانب الاجتماعي والنفسي والسياسي للظواهر الإجرامية، وهو شغف يعود جانب من الفضل فيه لأساتذتي الدكاترة «محمد خليفة بركات» و«محمد عبدالسلام» و«علي فؤاد» و«إمام سليم» الذين درست على أيديهم علوم النفس والاجتماع، ويعود الجانب الأكبر منه، لأستاذي وصديقي عالم الاجتماع البارز الراحل د. «سيد عويس» الذي كان أول مصري يحصل على درجة الدكتوراة في علم الاجتماع الجنائي.

ذلك شغف دفعني من قبل، إلى محاولة التأريخ لظاهرة «أولاد الليل» التي تفشت في صعيد مصر، في سياق موجة من العنف الجنائي والسياسي شهدتها في أعقاب الحرب العالمية الثانية وكان من أشهر علاماتها «محمد محمود منصور» الشهير بـ «الخُط» الذي لا يزال اسمه يستخدم إلى الآن، كعلامة تجارية، على النمط الإجرامي الذي تخصص فيه، شأنه في ذلك شأن «ريا» و«سكينة». ■

# رؤية ابن خلدون

محمود الذوادي

* * في الذكرى المئوية السادسة لرحيل العلامة عبد الرحمن بن خلدون يستطيع الباحث أن يصافح فكره العمراني على عدة مستويات تهتم بها العلوم الاجتماعية الحديثة. فاخترنا أن نتوقف عند موضوع سوسيولوجي كتب ويكتب عنه علماء الاجتماع المحدثون باستمرار، لنرى مساهمة صاحب المقدمة فيه.

تمثل هذه الدراسة محاولة استكشافية لمعالم فكر ابن خلدون بالنسبة لمفهوم التغيير الاجتماعي، كما تعبر عن ذلك المصطلحات الحديثة للعلوم الاجتماعية مثل مصطلحات التقدم والتطور والتنمية وتصنيف المجتمعات إلى مجتمعات تقليدية traditional ومجتمعات حديثة modern . ولإلقاء الضوء على الفكر الاجتماعي الخلدوني رأينا من المناسب القيام بمقارنة فكر صاحب المقدمة بالفكر الاجتماعي لعلماء الاجتماع الغربيين الأوائل. وبالتحديد فإن هدفنا النهائي من هذه الدراسة يتمثل في ثلاثة محاور:

١. إبراز المعالم الرئيسية لعلم العمران الخلدوني بالنسبة لظاهرة التغيير الاجتماعي، وهو ميدان لا يزال يحتاج إلى السبر والاستكشاف. ومن ثم فسوف نركز كثيرا في هذه الدراسة على الفكر الاجتماعي لابن خلدون.

٢. القيام بالتعرف على مستوى التفكير العمراني الخلدوني حول التغيير الاجتماعي ومقارنته بفكر كونت وسبنسر ودوركايم وفيبر.

٣. تحديد القوى المؤثرة على بلورة الفكر الاجتماعي حول ظاهرة التغيير الاجتماعي عند كل من صاحب المقدمة ونظرائه الغربيين.

ورغم العوامل المتعددة، مثل عوامل الزمان والمكان والثقافة، التي جعلت توجه واهتمام هذين النوعين من علماء الاجتماع مختلفين كثيرا عن بعضهم البعض، فإننا مع ذلك نجد هؤلاء العلماء، كما سوف نرى، يشتركون في الاهتمام بدراسة التغيير الاجتماعي. إن انشغال علماء الاجتماع بدراسة ظاهرة التغيير الاجتماعي هو أمر مشروع، ما في ذلك شك. فليس هناك من مجتمع إنساني يكون له المناعة الكاملة ضد التغيير الاجتماعي. فالتغيير كان دائما يشكل قوة حياة أو اندثار المجتمعات والحضارات الإنسانية عبر تاريخها الطويل. فعملية التغيير قد أثبتت أنها قادرة أحيانا على تحويل تلك المجتمعات والحضارات إلى مستوى شامخ من التقدم أو إلى وضع متردٍ من التخلف. ونظرا لأن دراسة المجتمعات هي التي تستقطب اهتمام علماء الاجتماع فإن دراسة التغيير الاجتماعي تصبح إذن أمرا مركزيا عندهم تصعب مقاومته.

إن الدراسة والتنظير حول تغيير وتطور وتنمية المجتمعات البشرية هما في واقع الأمر تقليد سوسيولوجي عرفته ثقافات مختلفة. وكما سوف نرى، فمقدمة ابن خلدون قد أشارت وحللت



العوامل المؤثرة في ملامح التغيير في المجتمعات. وقد كانت ظاهرات التطور والتقدم والتغيير الاجتماعي قضايا اهتمام علماء الاجتماع المعاصرين منذ عهد أوغيست كونت.

## هل هناك علم اجتماع خلدوني؟

هناك إجماع في الدوائر المعرفية المعاصرة أن كونت وسبنسر ودوركايم وفيبر هم الآباء المؤسسون لعلم الاجتماع الغربي المعاصر. ومن المناسب هنا أن نتساءل عن طبيعة الفكر العمراني لابن خلدون. وبعبارة أخرى، هل يمكن وصف الرصيد المعرفي الاجتماعي الضخم الذي تحفل به فصول كتاب المقدمة على أنه رصيد معرفي تغلب عليه روح التحليل السوسيولوجي بالمعنى الحديث؟.

إن الإجابة على مثل هذا التساؤل يجب البحث عنها في المؤلفات الحديثة كمعاجم وموسوعات وكتب علم الاجتماع. تعرف هذه المراجع السوسيولوجية تخصص علم الاجتماع على أنه الدراسة العلمية للمجتمع البشري وعلى المستوى المنهجي يعرف علم الاجتماع أيضا على أنه تخصص تستند معرفته، من جهة، على معطيات ميدانية (محسوسة) Empirical ، ومن جهة ثانية، على أسس نظرية.

إن تطبيق هذه التعاريف العامة لعلم الاجتماع الحديث على المقدمة تجعل ابن خلدون ينتمي بسهولة إلى علم الاجتماع أكثر من انتمائه إلى التخصصات الأخرى في العلوم الاجتماعية المعاصرة. فالمقدمة هي عمل فكري يتصف بالتحليل المنظم، عبر مفاهيم وقوانين ونظريات عمرانية جديدة، للمجتمع العربي الكبير قبل وأثناء حياة صاحب المقدمة. ومن ثم فالمقدمة هي أولا فكر ناضج وذو بصيرة ثاقبة حول حركية (ديناميكية) المجتمع العربي بصورة عامة. وفي الواقع ينظر إليها البعض على أنها الدراسة السوسيولوجية العلمية الشاملة الوحيدة التي قام بها باحث عربي حول هذا الموضوع إلى حد الآن.

ثانيا، إن المعرفة السوسيولوجية التي تحتوي عليها المقدمة هي نتيجة مباشرة لملاحظات ابن خلدون وتجاربه المعيشية في الحضارة العربية التي عاصرها.

ثالثا، يوجد في المقدمة عدد هائل مما يسمى بالنظريات السوسيولوجية الكبرى حول المجتمع العربي على الخصوص: كيف ظهرت الحضارة العربية الإسلامية قوية ثم كيف آلت إلى الضعف والانحلال؟ وماذا كانت أدوار شوكة العصبية وروح الدين في عملية تفكك هذه الحضارة؟ ولماذا يميل القوم المهزومون دائما إلى تقليد غزاتهم؟ ولماذا اتبعت الدول العربية التي درسها ابن خلدون أنماطا قصيرة العمر في النشأة والنمو؟ وهكذا: فعلم الاجتماع الخلدوني ينبغي النظر إليه كمدرسة فكرية

سوسيولوجية مستقلة بذاتها بين المدارس السوسيولوجية المعاصرة. ونظرا لرسوخ جذوره في تربة واقع المجتمعات العربية، فإن علم الاجتماع الخلدوني مرشح أن يكون له فهم أفضل لقضايا المجتمعات العربية المعاصرة من المدارس السوسيولوجية الغربية.

وأخيرا، يصف ابن خلدون نفسه فكره في العمران البشري بهذه العبارات: «انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول. الأول في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض، والثاني في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية. والثالث في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية. والرابع في العمران الحضري والبلدان والأمصار. والخامس في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه. والسادس في العلوم واكتسابها وتعلمها. وقد قدمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها كما نبين لك بعد وكذا تقديم الملك على البلدان والأمصار. وأما تقديم المعاش فلأن المعاش ضروري طبيعي وتعلم العلم كمالي أو حاجي والطبيعي أقدم من الكمالي وجعلت الصنائع مع الكسب لأنها ببعض الوجوه ومن حيث العمران كما تبين لك بعد والله الموفق للصواب والمعين عليه».

يعتبر ابن خلدون أن كتاب المقدمة كتاب فريد بما يحتويه من معرفة وحكمة جديدتين «ونحن قد ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما وأعثرنا على علم جعلنا بين بكرة وجهينة خبره. فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية وإن فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغيره فالناظر المحقق إصلاحه ولي الفضل لأني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء».

وهكذا نرى أن صاحب المقدمة كان على وعي كامل بأنه قد حقق فتحا جديدا في معرفة القوى المؤثرة في حركية المجتمعات. وقد سمى هذا العلم الجديد علم العمران البشري.

## الإطار الفكري

يمكن القول بكل ثقة بأن علم العمران الجديد يمثل إطارا فكريا جديدا لدراسة أحداث التاريخ برؤية عمرانية. لقد أماط ابن خلدون اللثام عن مغالط المؤرخين المسلمين في تفسيراتهم لأحداث التاريخ وذلك في مقدمته للكتاب الأول (المقدمة). لقد أوضح أن كل الرؤى التاريخية لهؤلاء المؤرخين كانت عاجزة على إعطاء تفسيرات ذات مصداقية للأحداث التاريخية التي عالجتها. وبتعبير توماس كوهن كان علم التاريخ العربي الإسلامي يمر بأزمة في إطاره الفكري Paradigm-Crisis. فولادة علم العمران البشري، كما حددت معالمه مقدمة ابن خلدون، كان هو الإطار الفكري البديل الذي يمدنا بفهم أفضل



**يعتبر ابن خلدون أن كتاب المقدمة كتاب فريد بما يحتويه من معرفة وحكمة جديدتين «ونحن قد ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما وأعثرنا على علم جعلنا بين بكرة وجهينة خبره**

خاصة لتاريخ مجتمعات الحضارة العربية الإسلامية. ومن ثم يستطيع المرء أن يفهم لماذا سمى ابن خلدون مقدمته بالكتاب الأول من بين الكتب الثلاثة التي تكون عمله الكبير والمتمثل في كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

فالكتابان الباقيان هما أساسا كتابان لتاريخ العرب والبربر ومن عاشرهم من الأمم الأخرى المختلفة. فبتسميته للمقدمة الكتاب الأول يؤكد ابن خلدون مدى أهمية هذا الكتاب باعتباره رؤية جديدة لأي فهم حقيقي لحركية التاريخ في مجتمعات الحضارة العربية الإسلامية على الخصوص.

وكما ذكرنا من قبل، فإن عوامل الجغرافيا والثقافة والزمن تفصل بين علم العمران الخلدوني وعلم الاجتماع الغربي. فمن جهة، ظهر هذا الأخير كتخصص معاصر في آخر القرن الثامن عشر في القارة الأوروبية على يد أوغست كونت August Comte. ومن ثم يعتبر كونت في الدوائر المعرفية الغربية المؤسس لعلم الاجتماع المعاصر.

من جهة ثانية، ولد علم العمران الخلدوني في القرن الرابع عشر في المغرب العربي الإسلامي أولا ثم في المشرق العربي الإسلامي بعد ذلك. وفي كلتا الحالتين فإن نشأة هذين العلمين كانت حصيلة للظروف التي كانت تواجهها المجتمعات العربية والأوروبية. فقد تأثر علم الاجتماع الأوربي ثم علم الاجتماع الأمريكي بقضايا المجتمعات الصناعية والحضرية الجديدة التي عرفتها الحضارة الغربية المعاصرة. وكان علم العمران الخلدوني يعكس أيضا قضايا وهموم المجتمع العربي في المشرق والمغرب: عدم الاستقرار السياسي والترف والعصبية والبداوة والحضارة. إن استمرار تدهور الحضارة العربية الإسلامية بعد وفاة ابن خلدون أدى إلى ركود وفقر الفكر الديني والفلسفي والاجتماعي. فغلق باب الاجتهاد بعد ابن خلدون بعقود قليلة فقط كان مؤشرا على استمرار الحضارة الإسلامية في الضعف والتفكك. إن ظهور الفكر الاجتماعي الخلدوني العالي المستوى في هذه الظروف الرديئة للمجتمع العربي يعد ظاهرة لافتة للنظر. فلا يزال عمق تحليله العمراني للمجتمع العربي فريدا من نوعه في كل التاريخ الفكري للمجتمع العربي الإسلامي. فهذا المؤرخ البريطاني المعاصر أرنولد توينبي Arnold Toynbee يؤكد هذه الحقيقة:

«ففي ميدان نشاطه الفكري يبدو أنه (ابن خلدون) لم يتأثر بأي من سابقيه ولم يجد من يضاهيه من معاصريه ولم يثر فكره الريادي أي رد فعل بين من تعاقبوا بعده، ومع ذلك فإنه في مقدمة وكتاب العبر قد تصور وصاغ فلسفة تاريخ هي بدون شك أعظم الأعمال الفكرية في مجالها التي لم يتوصل إليها بعد أي عقل بشري في أي زمان وفي أي مكان».

ومع توسع الغرب الصناعي واحتلاله لعديد من بلدان العالم في العصر الحديث جاءت معه الهيمنة الثقافية الغربية للعالم العربي بما في ذلك علم الاجتماع نفسه. فنظريات ومفاهيم ومناهج علم الاجتماع الأمريكي والفرنسي والبريطاني تسيطر اليوم على علم الاجتماع العربي. فمن الصعب جدا أن يدعي هذا الأخير أن له علم اجتماع عربيا مستقلا. كما هو الأمر بالنسبة لعلم العمران الخلدوني الذي ليس له تأثير كبير على علماء الاجتماع العرب المعاصرين. وفي رأينا إن غياب وجود علم اجتماع عربي مستقل بذاته اليوم يعتبر أحد مظاهر ما سميناه «بالتخلف الآخر» في العالم العربي. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الاعتماد على علم الاجتماع الغربي ليس هو المصدر المعرفي الحقيقي لفهم حركية المجتمعات العربية. فهناك إقرار متزايد اليوم بين الباحثين بأن تفسيرات العلوم الاجتماعية ما لها تكون متأثرة بالخصوصيات الثقافية والاجتماعية للمجتمعات التي تنشأ فيها تلك العلوم. فالاستعمال الكامل أو شبه الكامل لنظريات العلوم الاجتماعية الغربية بالنسبة للمجتمعات العربية لا يكاد يجد شرعية علمية. خلافا للعلوم الطبيعية فإن النظريات والأطر الفكرية Paradigms للعلوم الاجتماعية تتأثر كثيرا بالعوامل الاجتماعية والثقافية والتاريخية وبالرؤية الكونية السائدة في المجتمع الذي تنشأ وتنمو فيه تلك العلوم، أي أن هذه الأخيرة لا تتسم بموضوعية كاملة. ومن ثم فتعميم استعمال رصيدها المعرفي على ظروف اجتماعية وثقافية وتاريخية مختلفة طالما يضعف من مصداقيتها. ولبيان ذلك نقارن الآن كيف درس وصنف ابن خلدون وعلماء الاجتماع الغربيون الأوائل المجتمعات التي تعرفوا عليها.

## مفهوم التغيير الاجتماعي

يفيد مفهوم التغيير الاجتماعي، عند كل من ابن خلدون وعلماء الاجتماع الغربيين، تحول المجتمع من وضع اجتماعي بسيط إلى وضع اجتماعي أكثر تعقيدا. فبساطة المجتمع البدوي عند صاحب المقدمة يأتي من ندرة الموارد المعيشية المتوفرة عند هذا الصنف من المجتمعات. فالبدوي لا يملك في العادة من موارد المعاش أكثر مما تتطلبه حاجاته المعيشية اليومية التي تؤمن بقاءه على قيد الحياة. كما أن وجود روح العصبية القوية بين البدو واتصافهم بخصال الشجاعة واستعدادهم العفوي لدخول ديانات جديدة وقدرتهم على المحافظة على خيرية فطرية الطبيعة البشرية هي، من جهة، في رأي ابن خلدون ملامح لهذا النوع البسيط من المجتمعات البشرية. ومن جهة أخرى، يرى ابن خلدون أن تعقيد المجتمع الحضري هو في



**غياب وجود علم اجتماع عربي مستقل بذاته اليوم يعتبر أحد مظاهر ما سميناه «بالتخلف الآخر» في العالم العربي. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الاعتماد على علم الاجتماع الغربي ليس هو المصدر المعرفي الحقيقي لفهم حركية المجتمعات العربية**

الأساس نتيجة للثراء المادي الكبير (الترف) الذي يتصف به هذا المجتمع.

أساسا. تأخذ العصبية في هذا الأخير أشكالا أخرى غير العصبية البدوية المشار إليها سابقا. أما وازع التدين وصفة الشجاعة فعلاما يضعف شأنهما كثيرا في ظروف الحياة الحضرية. وهكذا يبرز صاحب المقدمة بأن العوامل المادية (الاقتصادية) تلعب دورا حساسا في تشكيل نمط حياة الناس.

تقترن عند ابن خلدون المرحلة الحضرية في تطور المجتمعات العربية التي درسها بأفول حضارة هذه المجتمعات. إذ الثراء الفاحش والترف يؤديان إلى ظهور العديد من المشاكل الاجتماعية وغير الاجتماعية في المجتمع. ومن أبرز هذه المشاكل هي ما يطلق عليه علماء الاجتماع المحدثون بالتفكك الاجتماعي الثقافي socio-cultural breakdown. فابن خلدون كان على هذا المستوى سابقا لدور كايم. فإشارته إلى العلاقة الوثيقة بين ازدياد نسبة السلوك الانحرافي / الإجرامي في المجتمعات العربية وضعف الرابطة الاجتماعية الثقافية وذلك بسبب هيمنة ثقافة الثراء والترف في المجتمع. يكتب ابن خلدون في هذا الصدد شارحا مظاهر السلوكيات غير السوية وأسبابها: وأما فساد أهلها (المدينة ذات الحضارة والترف) واحدا واحدا على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بألوان الشر في تحصيلها، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها. فلذلك يكثر الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهة ومن غير وجهة. وتتصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له. فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والفجور في الإيمان والرباء في البياعات. ثم تجدهم - لكثرة الشهوات والملاذ الناشئة عن الترف - أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه وأطرح الحشمة في الخوض فيه، حتى بين الأقارب وذوي الأرحام والمحارم الذين تقتضي البداوة الحياء منهم في الإقذاع بذلك. وتجدهم أيضا أبصر بالمكر والخديعة، يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح، حتى يصير ذلك عادة وخلقا لأكثرهم إلا من عصمه الله.

فمما لا شك فيه أن هذه الملاحظة القيمة حول العوامل العمرانية والتصرفات غير السوية تعد مساهمة خلدونية ذات شأن بالنسبة لدراسة الانحراف والإجرام وهو ميدان خلدوني لم يتم تناوله.

يجب التأكيد هنا بأن المنظور العام لصاحب المقدمة حول التغيير الاجتماعي وكذلك حول أسباب الانحراف هو منظور يعطي أولوية للعوامل المادية المنتشرة في المجتمع. فتحول المجتمعات العربية من المرحلة البدوية البسيطة إلى المرحلة الحضرية المعقدة هو، في رأي ابن خلدون، حصيلة أساسا لتغيير موارد المعاش من موارد معيشة بدائية إلى موارد ثراء وترف متقدمة ومعقدة الطبيعة.

## الجذور الإسلامية لفكر ابن خلدون

وسواء تعلق الأمر بفكرة التغيير الاجتماعي المطروحة في هذا المقال أو غيرها من المفاهيم السوسيولوجية فهناك، من جهة، محاولات من طرف الدراسات الغربية لسحب الطابع الإسلامي عن الفكر الخلدوني وتعويضه بنموذج فكري غربي. يرجع أساسا إعجاب المفكرين بفكر صاحب المقدمة إلى اتصاف عقل ابن خلدون بالوضعية Positivism أو التجريبية Empiricism والعقلانية. إن مثل ذلك الإعجاب أمر منتظر إذ أنه ينسجم كثيرا مع منطق وتصور الفكر الغربي المعاصر الذي لا يجمع بين النقل والعقل في التفكير كما يفعل العقل العمراني الخلدوني.

ومن جهة أخرى، يظهر العديد من علماء الغرب الدارسين لتراث ابن خلدون الكثير من الدهشة والحيرة إزاء بعض أفكار صاحب المقدمة. فإيف لاكوست Yves Lacoste، على سبيل المثال، يكنّ الكثير من الاحترام لأصالة الفكر الخلدوني لكنه لا يكاد يقر بإمكانية تواجد شخصية ابن خلدون الواضحة الملامح الإسلامية مع فكره الوضعي القوي. وبعبارة أخرى، يرى لاكوست نوعا من الازدواجية الفكرية في شخصية ابن خلدون، هذا المفكر العملاق الوحيد في القرون الوسطى. فوجود كل من الفكر الوضعي المتين وروح التدين القوي في شخصية العالم لا يلقيان عادة ترحيبا به عند الرؤية الغربية المعاصرة للعلم. ومن ثم فلاكوست كان بكل تأكيد يريد فرض رؤية غربية لتعلم على صاحب المقدمة كعالم مسلم للعمران البشري متأثر بخلفية رؤيته الإسلامية التي وجهت إطار فكره الناضج. وهكذا فإن بعض ما كتبه لاكوست بشأن ابن خلدون، رغم جديته وامتداحه لفكر ابن خلدون، ليس بالعمل العلمي الموضوعي، إذ أنه كان يحاول أن يلبس أفكار ابن خلدون لباسا غربيا.

أما من وجهة النظر الإسلامية فإن أخلاقيات مؤلفات ابن خلدون تمثل العرف الشائع عند العلماء الباحثين المسلمين والمتمثل في استعمال العقل والنقل في دراساتهم لظواهر الكون والمجتمع.

يعتبر المنهج الوضعي إحدى الركائز الأساسية في المنظور الإسلامي لدراسة الظواهر. فهذا المنهج لا يقتصر إذن على الرؤية المعاصرة للحضارة الغربية. فالقرآن، كأول مرجع للحضارة الإسلامية،قد:

(أ) تبنى منهجا وضعيا وعقلانيا يستند على الملاحظة والواقعية وذلك في تفسيره للظواهر وفي طرح حججه للجنس البشري.

(ب) أكد مباشرة أو بالإشارة في حوالي سدس آياته على الأهمية القصوى للمعرفة والعلم لبني البشر.

(ج) تحاشى استعمال الحجج أو التفسيرات الفلسفية في محاولاته، مثلا: لإقناع غير المؤمنين بوجود الإله الواحد. إن أبواب المقدمة وفصولها شاهد على تأثير منهج القرآن على منهج ابن خلدون في تأسيسه لعلم عمرانه الجديد.

فالكاتب الجزائري عبد شريط يعتقد أنه يمكن تفسير ظاهرة ابن خلدون في القرون الوسطى بسبب اعتناقه لتراث فكري إسلامي خالص عرفه المغرب الإسلامي يومئذ. أما المشرق الإسلامي فيرى شريط أنه كان أقل مناعة من التأثيرات المشوهة الشائعة الانتشار والواردة من الديانات والمذاهب الأسطورية والسحرية والميتافيزيقية للحضارات الإغريقية والإسرائيلية والفارسية والمسيحية. فتمتع المحيط الثقافي الإسلامي في المغرب الإسلامي بأكثر نقاوة دينية عقائدية.

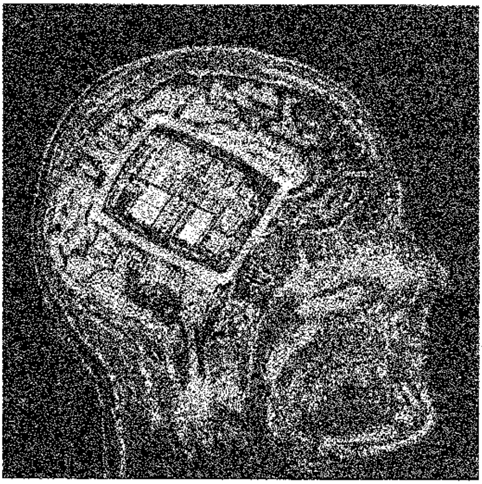
لا بد أنه لعب دورا هاما، في رأي شريط، في إنتاج فكر عمراني خلدوني يتصف بالوضوح والوضعية والأصالة. وفي هذا رد وتفنيد لموقف الكثير من علماء الاجتماع العرب اليوم الذين ينكرون إمكانية تأسيس علم اجتماع إسلامي ذي صدقية علمية والحال أن النشأة الأولى لعلم العمران البشري/ علم الاجتماع في كامل التاريخ الفكري الطويل للبشرية تمت على أرض إسلامية ومن طرف عالم مسلم قوي الإيمان. ※



TE Data ADSL
٩٥ جنيه
فقط بـ
لسـرعة 256 Kb/sec شهرياً
استفسر الآن عن الأسعار الجديدة لسرعات أخرى*
TE Data
ADSL
طـوّر حياتك
مصر الجديدة: ٤٧ ش الميرغني
مدينة نصر: سيتي ستارز - كومبيومي
المهندسين: ٣٢ شارع الرياض - تقاطع شهاب
المعادي: شارع النصر بجوار سيلانترو
الإسكندرية: ٢٥ ميدان فيكتور عمانويل، سموحة
٥٩ شارع إسكندر إبراهيم، أمام كنتاكي، ميامي
* هذه الأسعار سارية من ١/٧/٢٠٠٦
19777

# اختراق الدماغ

وليد الشوبكي



■■ في سبيل جعل حياة الإنسان أكثر صحة ويسرا، أثمرت تطورات العلوم والتكنولوجيا، أو التطورات العلمية التكنولوجية، نتائج هامة تتدرج من التحصين ضد أمراض وبائية إلى زرع أعضاء طبيعية أو صناعية بديلا عن التالفة. ولكن ذلك التطور يسلك أحيانا اتجاها مثيرا للجدل، وذلك عندما ينطوي - رغم بعض الفوائد المرجوة - على اختراق لحرمة الدماغ، وانتهاك لحقوق آدمية واسعة كحرية التداوي وحرية الإدراك والتذكر.

سيتذكر التاريخ يوم الثاني والعشرين من يونيو ٢٠٠٤، ففيه زرعت للمرة الأولى شريحة حاسوبية داخل دماغ بشري، وكان ذلك دماغ الشاب الأمريكي ماثيو نيجل - المصاب بشلل كلي - لتقرأ أفكاره؛ وذلك بأن تترجم الأوامر العصبية المتعلقة بتحريك الأطراف إلى شيفرة حاسوبية يمكن نقلها إلى أطراف اصطناعية تتحرك بدورها استجابة لتفكير المريض في تحريك أطرافه، مما يعيد له، وللمرضى مثله، القدرة على الحركة. وتثبت الشريحة الحاسوبية - وتبلغ مساحتها ٤ ملليمترات مربعة - أسفل عظام الجمجمة، وتمتد منها دعامات في غشاء المخ لحوالي ١ ملليمتر. وتقوم هذه الشريحة برصد النشاط العصبي المخي من خلال متابعة مجموعة صغيرة من الخلايا العصبية في قشرة الحركة (جزء المخ المسؤول عن التحكم في العضلات الإرادية). لإنجاز ذلك، استخدم التصوير بالرنين المغناطيسي لتحديد المكان المناسب بالضبط لزرع الشريحة. ويعد هو أول المرضى الخمسة المتطوعين الذين سمحت مصلحة الغذاء والدواء الأمريكية (FDA) لشركة سايبر كاينتكس بتجريب الشريحة الجديدة عليهم، وذلك بعد أن نجحت تجارب مماثلة على القردة.

أثار الإعلان عن زرع هذه الشريحة واسمها «بوابة المخ» (BrainGate) الانتقادات من عدة متخصصين في ذلك الفرع من الطب. فرغم استقرار حالة المريض نيجل حتى فبراير ٢٠٠٦ (وقت كتابة المقال) وتمكنه من تحريك مؤشر على شاشة الحاسوب بمجرد التفكير في ذلك، وكذلك تمكنه من ممارسة لعبة الـ «بنج بونج» الحاسوبية بمهارة، لا يعني بصورة مؤكدة سلامة ونجاح الشريحة الجديدة. فلفظ الجسم لهذه الشريحة - مناعيا - لا يزال احتمالا قائما. كما أنه ليس ثمة دليل بعد على أن هذا «النظام الحاسوبي» سيظل على كفاءته لعام مقبل مثلا. أضف إلى ذلك - وكما قال الدكتور ميجل نيكوليليس من جامعة ديوك [illegible] الأمريكية - «أنه إذا كان الهدف هو مجرد ممارسة لعبة حاسوبية (بسيطة) أو تشغيل جهاز التليفزيون فلم يكن ثمة داع لغرس هذا الشيء داخل دماغ المريض، فالمخاطرة هنا لا تتناسب مع الفائدة المحققة». كما أن الفائدة المرجوة غير مؤكدة التحقق. وأعرب الدكتور نيكوليليس عن قلقه من المسارعة بتطبيق وتجريب هذه التقنيات الطبية على البشر، إذ لم تتوافر بعد المعرفة الكافية حول مخاطر ترك هذه «الأشياء» في أدمغة المرضى لفترات طويلة. وكذلك لأن ما أنجزته شريحة «بوابة المخ» حتى الآن تضاهيه تقنيات أخرى أقل انتهاكا للدماغ، مثل تلك التي طورتها مختبرات مركز ووزورث التابعة لوزارة الصحة الأمريكية. والدكتور نيكوليليس متخصص في بيولوجيا الأعصاب، وصاحب تجربة رائدة عام ٢٠٠٢ أثبتت «مطاوعة المخ» أي قدرته على تكوين والتكيف مع مسارات عصبية جديدة. ومثل هذا النشوء ركيزة رئيسة في تطوير شريحة «بوابة المخ».

ولم تقتصر الانتقادات على شريحة المخ فحسب، وإنما طالت كذلك شريحة «فيري تشيب» (VeriChip) الإلكترونية التي طورتها شركة «أبلايد ديجيتال سولوشنز» وتزرع في جلد الذراع بهدف استدعاء السجلات الطبية للمرضى من قواعد البيانات المختلفة. وهذه الشريحة هي إحدى صور التكنولوجيا المعروفة باسم «شارات التعرف على ترددات الراديو» (RFID). وتحتوي الشارة على رقيقة حاسوبية مشفرة تحوي رقما تعريفيا خاصا، إضافة إلى هوائي متناهي الصغر. ولكي «تقرأ» الشارة، يمرر ماسح باعث لموجات الراديو بالقرب منها، فيستشعر الهوائي موجات الراديو فيولد تيارا كهربيا ضئيلا، ولكنه كاف لتشغيل الرقيقة الحاسوبية، فترسل بدورها رقم التعريف الخاص بها عبر إشارة راديو إلى الماسح الباعث للراديو. وحصلت الشركة في أكتوبر الماضي على ترخيص من مصلحة الغذاء والدواء الأمريكية بإنتاج الشارة الإلكترونية، وينتظر أن تساعد هذه الشارة الأطقم الطبية على تحديد هوية المريض في حالات الطوارئ، ومعرفة السجل المرضي له، خاصة في حالات فقدان الوعي أو الحوادث أو ما شابه، ومن ثم اتخاذ المناسب من الإجراءات. وقد كانت تلك المرة الأولى التي تمنح شركة الترخيص بطرح منتج طبي/ تقني لهذا الغرض. أما سبب توجيه الانتقادات لهذه التقنية الجديدة فهو تخوف بعض المعنيين بالحريات المدنية من أن يتحول زرع هذه الشارة من الاختيار والطواعية إلى الإجبار على بعض الفئات: مثل السجناء أو المصابين بأمراض بعينها أو الغرباء المقيمين في غير بلادهم. خاصة أن الهدف الرئيس لهذه الشارات يمكن تحقيقه باستخدام وسائل أبسط لا تنتهك الجسد كالسوار أو البطاقة التي تحوي البيانات التعريفية بالشخص.

إذن، يمثل «التسرع» في اختراق حرمة الجسد، وخاصة الدماغ، ثم إشكالية «الاختيار في مقابل الإجبار» في استخدام التقنيات الطبية، يمثلان لب الخطر الذي تسعى بعض المنظمات غير الحكومية المهتمة بالحريات المدنية لتنبيهنا إليه - وثمة أدلة على أن هذا الخطر يتصاعد.

ويجدر بنا التأكيد على أن اختراق الجسد ليس المشكلة بحد ذاته، وإنما «التسرع» في إجراء ذلك، في قدس أقداس الجسد: الدماغ. فمنذ أول اختراق طبي، موثق تاريخيا، لنظام الجسد البشري عام ١٧٩٨ - وكان ذلك باكتشاف الطبيب إدوارد جينر مفهوم التطعيم ضد الجدري - ظهرت المئات من التطويرات والتقنيات التي وجدت طريقها إلى داخل أو خارج الجسد، دون أن يثير ذلك جدلا لوقت طويل. فمن النظارات فوق أنوفنا، إلى الأمصال السارية في دمائنا إلى الحشو داخل أسناننا، إضافة إلى اختباري الحمل وقياس مستوى الجلوكوز المنزليين، ثم هناك الأطراف الاصطناعية والمفاصل المعدنية، بل وهناك القرنيات والأكباد المستزرعة من موتى في أحياء. فقد صارت أجسادنا «بيونية» (بيولوجية-إلكترونية)، وصار كل منا تقريبا «إنسانا مزيدا» - كما يذكر كتاب «عصر الجينات والإلكترونيات»[1] - بما يحمله من تطويرات وإضافات بيولوجية وإلكترونية في آن، وملازمة له بصورة دائمة، داخل جسمه أو خارجه.

ولكن ثمة صفات مشتركة بين كل هذه الإضافات التي سبقت الإشارة إليها، لا نجدها في الموجة الجديدة من التقنيات التي تؤدي وظائفها عبر اختراق الجسد. فأولا: ليس ثمة شك في نفع كل منها. أيخالجك شك في جدوى التطعيم ضد الجدري (وإن اعترض في حينها أطباء عيادات الجدري الذين هاجموا الأسلوب الوقائي الجديد لسبب مفهوم: انقطاع رزقهم!)؟. وهذا ما لا يتوافر مثلا في شريحة «بوابة المخ»: ففائدتها المرجوة في استعادة الحركة أمر يختلف عليه المتخصصون. وثانيا: يجمع بين

## الاتساق والوحدة في سجل ذاكرة الفرد وتاريخه الشخصي - وكلاهما مكون رئيس لشخصيته - ربما يكونان أكثر أهمية من الإسقاط القسري لبعض المشاهد، وإن كانت مؤلمة

الإضافات البيونية (البيو-إلكترونية) التي حظيت بالقبول والانتشار أنها لا تؤدي إلى وصم المريض اجتماعيا، أو تؤثر على أي من حرياته المدنية. وهذا ما لا يتحقق مثلا في شارة «فيري تشب» التي يمكن أن تؤدي إلى التمييز ضد بعض الأشخاص فتؤثر سلبا على أي من حقوقهم المدنية (في الوظائف مثلا) على أساس الإصابة ببعض الأمراض (كالإيدز) أو التاريخ المرضي. وثالثا: لم يُجبر أي منا على ارتداء النظارات أو حشو أسنانه أو تركيب مفصل صناعي رغما عنه. فكل هذه «الإضافات» تمت طواعية، رغبة في تحسين الحياة وتوسيع نطاق الحرية الفردية، وليس تقييدها أو انتهاكها كما يمكن أن تفعل شارة «فيري تشب»، أو علاج الإدمان على العقاقير بأسلوب «العقاقير المضادة»، أو غيرها مما سيرد ذكره.

### الحرب على الإدمان.. وحرية التفكير

من أمثلة العقاقير المثيرة للجدل ما يعرف باسم «العقاقير المضادة» الهادفة لتحجيم الإدمان على المخدرات. ففي سياق «الحرب على إدمان العقاقير المخدرة» في الولايات المتحدة، والتي دشنها في السابع عشر من يونيو ١٩٧١ الرئيس الأمريكي السابق ريتشارد نيكسون، تصاعدت عاما بعد عام الميزانيات الحكومية الموجهة للقضاء على الإدمان على العقاقير باعتباره «العدو رقم ١ لشعب الولايات المتحدة». فزادت هذه الميزانية من ٨٦٥,١٠٠ مليون دولار في ميزانية أميركا عام ١٩٧٢ إلى ٦,١٢ مليار دولار في ميزانية العام الماضي، ٢٠٠٥، كما ذكر تقرير[1] من مركز حرية الإدراك والأخلاقيات (CCLE) بكاليفورنيا، صدر أواخر العام الماضي. وقد نالت شركات الأدوية قسطا من هذا التمويل لتطوير عقاقير تثبط أو تمنع وصول المواد المخدرة للدماغ، ومن ثم، تثبط أو تمنع حدوث النشوة التي يجلبها تعاطي العقاقير المخدرة. ويؤدي ذلك إلى تناقص الرغبة في تناول العقاقير المخدرة، إلى أن يتعافى المريض منها نهائيا. وأطلق على ذلك الأسلوب «العلاج بالعقاقير المضادة» (Pharmacotherapy). ومن أمثلة هذه العقاقير المضادة «ريفيا» و«سوبوتكس» و«سوبوكسون»، وطورتها شركتا «دو بونت ميرك للأدوية» و«ريكيت بنكيزر للأدوية».

لهذا الأسلوب العلاجي فوائده المثبتة لمن يُقدِم من المرضى - راغبا - على استخدامه. ولكن ما يثير قلق مركز حرية الإدراك والأخلاقيات، كما ذكر التقرير، هو أن التسييس الذي شُحنت به حملة «الحرب على إدمان العقاقير المخدرة» ربما يؤدي إلى الإلزام القسري لكل المرضى الذين يعالجون من الإدمان في المصحات التقليدية باتباع أسلوب العلاج بالعقاقير المضادة، الراغب والرافض سواء. أو بممارسة نوع آخر من الإكراه بتقييد العون المادي الذي يتلقاه المدمن بخضوعه للعلاج بالعقاقير المضادة. ونبه التقرير لما تتضمنه هذه السياسات من تعد على الحقوق الدستورية المستقرة. فأولا: يرقى إجبار فرد على تناول العقاقير - وإن كان سجينا - لدرجة التعذيب، حسب الدستور الأمريكي (مستثنى من ذلك غير المؤهلين عقليا والأشخاص الذين يمثلون خطورة على المجتمع). وثانيا، يمثل ذلك انتهاكا لحرية التفكير. فيشير التقرير إلى أنه مهما اختلفنا حول الطريقة التي يبزغ بها العقل الواعي من نشاط مليارات الخلايا العصبية (العصبونات) التي تتواصل مع بعضها البعض كهربيا وكيميائيا، فليس ثمة خلاف على أن هذه الخلايا وما بينها من نواقل كيميائية تؤثر في طريقة تفكيرنا وفي تمايز عقل كل منا عن الآخر. ومن ثم، فإن التحكم في أي المواد يعبر إلى المخ وأيها يُمنع (كما يفعل العلاج بالعقاقير المضادة) يمثل في نهاية الأمر تعديا على حرية التفكير. ويخلص التقرير إلى أنه لا بأس أن يختار الأفراد المرضى بالإدمان على العقاقير المخدرة الأساليب العلاجية المختلفة التي يرون فيها خلاصهم، على أن يكون ذلك نتيجة اختيار واع، وتبصر كامل بالعواقب، ودون إكراه من أي نوع.

### التذكر والنسيان.. إجباراً!

في حوار مع مجلة «نيوسيانتست» العلمية البريطانية العام الماضي، نبه ريتشارد جلين بوار، رئيس ومؤسس مركز حرية الإدراك والأخلاق، للخطورة التي تنطوي عليها مجموعة من العقاقير المسماة «عقاقير التحكم في الذاكرة». وخص بالذكر عقار «بروبرانولول» الذي يستخدم بالأساس للتحكم في ضغط الدم المرتفع. فقد أثبتت دراسة أجريت على الأطقم الطبية لاستقبال الحوادث عام ٢٠٠٢ أن تعاطي الأفراد للعقار خلال حوالي ٦ ساعات من التعرض للمواقف أو المشاهد المؤلمة، جعلهم أقل قدرة على تذكر هذه المواقف أو المشاهد بعد حوالي شهر من حدوثها، وذلك بالمقارنة بأفراد الأطقم الطبية الذين لم يتناولوا العقار.

ونتج عن هذه الدراسة أن نادى البعض بأن يعطى هذا العقار بصورة روتينية للمرضى الذين يتعرضون لحوادث مؤلمة، كسقوط الطائرات مثلا، وكذلك للجنود الذين يشاركون في معارك دموية. ونقطة الخلاف هنا، كما هو الأمر مع العلاج بالعقاقير المضادة، أن إعطاء عقار لمريض بغير رضا منه ووعي كامل بالعواقب يخالف الدستور. كما أن الأمر أكثر تعقيدا مما يبدو. فالشخص الذي قرر أن ينسى مشاهد حادث مؤلم، ربما يرغب - أو يُضطر - أن يدلي بشهادته. فالاتساق والوحدة في سجل ذاكرة الفرد وتاريخه الشخصي - وكلاهما مكون رئيس لشخصيته - ربما يكونان أكثر أهمية من الإسقاط القسري لبعض المشاهد، وإن كانت مؤلمة.



والوجه الآخر لمعضلة عقاقير النسيان هو عقاقير تقوية الذاكرة. فيقول بوار أنه خلال ٥-١٠ سنوات ستتاح غالبا عقاقير تقوية الذاكرة. ورغم الآثار الإيجابية المرجوة من هذه العقاقير، فإن مثار القلق حولها هو أن يُكره الأفراد على تناول هذه العقاقير عند التعرض لمواقف مثل الإدلاء بشهادة أمام القضاء. إذ تبرز هنا، مجددا، الإشكالية التقليدية: الإجبار والاختيار في تناول العقاقير، وما يمثله الإكراه من انتهاك للحقوق والحريات الأصيلة للأفراد.

وثمة تكنولوجيا أخرى ستؤدي غالبا إلى انتهاك خصوصية الذاكرة ويقوم بتجريبها الآن مكتب التحقيق الفيدرالي الأمريكي (FBI) وتسمى «بصمة الدماغ». وتعتمد على التقاط موجة (P٣٠٠) الكهربية المنبعثة من دماغ الأشخاص الذين اقترفوا جرائم، وذلك عندما تُعرض لهم صور أو مشاهد متعلقة بهذه الجرائم. بالطبع ستساعد هذه التكنولوجيا - خاصة مع مستوى الدقة الذي تحققه - في تبرئة ساحة الأشخاص الأبرياء الذين سيطلبون استخدامها معهم لإثبات براءتهم، ولكن المشكلة، مرة أخرى، تكمن في احتمال قيام السلطات باستخدام هذه التكنولوجيا قسرا في الحالات التي لا يرغب المتهم في استخدامها معه. فالموجة الكهربية (P٣٠٠) غير إرادية، ومن ثم فإن التقاطها بغير رغبة المتهم هو انتهاك لإحدى خصوصياته الحميمة: ذاكرته.

### ليست هلاوس.. بل إعلانات المشروبات الغازية!

وبلغ اختراق الدماغ مدى جديدا بتطوير تكنولوجيات تقذف بالإعلانات والرسائل التسويقية مباشرة داخل الدماغ، بدون علم أو رغبة صاحبها، وبحيث لن يدري من أين يأتيه الصوت وكيف يتردد داخل رأسه دون أن يسمعه غيره.

فقد ذكرت مجلة «تكنولوجي ريفيو» التي يصدرها معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (مايو ٢٠٠٤) أن شركتين أمريكيتين تعكفان الآن على تطوير تقنية صوتية تتيح توجيه «شعاع صوتي» إلى شخص معين ليسمع الصوت دون غيره، فيما يعرف بتقنية «الصوت الموجه» (Directional Sound). الشركتان هما أمريكان تكنولوجي كوربوريشن، ويقودها المخترع المخضرم إلوود نوريس، وشركة هولوسونيك لابز، ويقودها المخترع الشاب جوزيف بومبي. وبالمقارنة بمكبرات الصوت التقليدية التي تنتج أصواتا في شكل موجات تنتشر في كل الاتجاهات ويمكن للأذن تمييزها (تشبه الموجات التي تنتج عندما تلقي بحجر في ماء ساكن)، تعتمد أنظمة الصوت الموجه على صنع «أشعة» دقيقة من الموجات فوق الصوتية (تشبه في فكرة عملها تركيز الضوء في أشعة الليزر). ويكون تردد هذه الموجات أعلى من ٢٠ ألف ميجاهرتز، وهو الحد الأعلى من موجات الصوت الذي تستطيع الأذن التقاطه. وعندما تنتقل موجات الصوت العادي أو الموجه في الهواء يصيبها بعض «التشوش» الذي يؤدي إلى إضعاف وتقليل جودة موجات الصوت العادي. ولكن ذلك التشوش هو لب تقنية الصوت الموجه، لأنه يؤدي إلى تكسير الموجات فوق الصوتيه إلى موجات أقل ترددا، يمكن للأذن الاستماع إليها وتمييزها، ولكن في نطاق ضيق يسمح لشخص واحد فقط بسماعها.

وربما تقود هذه التكنولوجيا إلى إحداث ثورة في عالم الصوتيات، لأنها ستتيح

# كتاب الزاوية



## من أدب الفرس والترك

### المغامر الشاعر

إن كان للفرس شعر سياسي بحق، فهذا الشعر يستمد نشأته من تلك الثورة التي خفقت ألويتها ما بين سنة ١٩٠٥و١٩٠٩م، بعد أن تحرك الوعي القومي في النفوس، ووضح الحق المنقوص في العقول، فطالب الشعب الفارسي بالحكم النيابي حتى أجيب إلى طلبته، وأراد الحد من تسلط الأجنبي وغلوائه فما خاب في مسعاه وغني عن البيان أن الشعر في مثل هذه الفترة لا يكون غالبًا إلا وطنيًا سياسيًا، يعبر عن روح الجهاد، وينادي بالإصلاح العام والخاص.

ومن المتأدبين من يميل إلى نفي الشاعرية عن هذا الشعر، ويذهب إلى أنه وليد المناسبة لا فيض الخاطر، فصاحبه ينحته من صخر ولا يغترفه من بحر، ومهما يكن من هذا القول فليس يصح في الفهم أن نطلب إلى الشاعر السكوت أمام أحداث تدفع إلى التأثر منها والتحدث عنها، ولن يسوغ أن يذرف الشاعر دموع الحب أو ينعم بنشوة الحمياء، على حين تجري النفوس على النصال المشرعة، ويعالج أبناء وطنه سكرة الموت الزؤام، وكيف يصف الربيع الباسم المغني، وهو يشاهد تعبيس المتقاتلين ويسمع أنين المظلومين؟

ومن رجال الثورة الفارسية من يدعى لاهوتي، وقد كان شاعراً ومغامراً وجنديًا وسياسيًا، ويعنينا منه حياة عجيبة الأطوار متقلبة الأحوال، ساقته ملابساتها شريداً طريداً في الآفاق، وشعر يعتبر مثالاً جيداً لشعر السياسة والوطنية في إيران على عهد ثورتها.

مثلا لأسرة من ٤ أفراد تجلس في سيارة أن يستمع كل فرد فيها إلى الموسيقى التي يحبها، ودون الحاجة إلى ارتداء «سماعات» على الأذنين! وقد استخدمت شركة دايملر كرايزلر للسيارات نماذج اختبارية من أنظمة الصوت الموجه في بعض سياراتها التجريبية. وكذلك ستخاطب اللوحات الإعلانية في الشوارع والمحال التجارية زبائنها - بالصوت الموجه - كلاً على حدة. وقد دخلت هذه الأنظمة حيز الاستخدام بالفعل في ماكينات المشروبات الغازية بالعاصمة اليابانية طوكيو، وساهمت في تطويرها وتشغيلها شركة «سوني». وكذلك ستمكن أنظمة الصوت الموجه قوات الشرطة من التحدث مباشرة إلى الشخص الذي يثير الشغب أو الاضطراب - وحده - دون الحاجة إلى استخدام مكبرات الصوت.

ولكن ثمة أكثر من سبب يدعو لإثارة القلق بخصوص هذه التكنولوجيا. أولا، أنها تيسر انتهاك حرمة الدماغ، وذلك عندما يُمطر الفرد بوابل من الإعلانات التي لن يعرف مصدرها، وربما يظن بادئ الأمر أن ما يسمع هي هلاوس لا يسمعها غيره، إلى أن يدرك أن ما يسمع هي الإعلانات. وثانيا، أن هذه التكنولوجيا تكاد تكون في المتناول (سعرها الآن ٦٠٠ دولار أمريكي، وجاري العمل على تخفيض سعرها)، ومن ثم، فإنها تتيح للأشخاص غير المسئولين أن يثيروا فزع جيرانهم أو المحيطين بهم. ولن يعلم الضحايا أبدا مصدر الأصوات التي تهدر في رؤوسهم.

وفي سياق مشابه، من انتهاك حرمة الدماغ لأغراض إعلانية، أوردت مجلة «ذي إيكونوميست» في يونيو الماضي أن بعض شركات السيارات الأوروبية مثل دايملر-كرايزلر، والفرع الأوروبي لشركة فورد الأمريكية قد أجريتا دراسات مبدئية عام ٢٠٠٣ على كيفية استجابة الأفراد لإعلانات الشركتين عن سياراتهما وذلك بتصوير الدماغ بتقنية الرنين المغناطيسي خلال عرض هذه الإعلانات. فلم تعد الشركات الكبرى تكتفي باستبيان مجموعات عشوائية من المستهلكين لتسألهم عن اختياراتهم وتفضيلاتهم التي يذكرونها بألسنتهم حول المنتجات، وإنما صارت تبحث عن جذور القبول والرفض والاختيار والتفضيل، في الدماغ ذاته، ويطلق على ذلك الأسلوب «التسويق العصبي» (Neuromarketing)[٣]. بل وأوردت صحيفة «نيويورك تايمز» ومجلة «وايرد» أن مؤسسة FKF للأبحاث والاستشارات السياسية قد استخدمت أسلوب «التسويق العصبي» للوقوف على كفاءة الإعلانات الانتخابية للمرشحين الرئاسيين في الانتخابات الأمريكية الأخيرة التي أجريت في نوفمبر ٢٠٠٤.

نستطيع أن نخلص إذن إلى أن التطور المتسارع في العلوم والتقنيات العصبية تصحبه فرص ومخاطر. الفرص تكمن في الآفاق التي تفتحها هذه العلوم التقنيات لجعل حياة الإنسان أكثر صحة ويسرا. أما التهديدات فلها مصادر عدة. أولا: من التسرع في زرع التقنيات داخل رؤوس البشر بغير تيقن من النتائج أو العواقب، كما هو الأمر في شريحة «بوابة المخ». وثانيا: من إقدام بعض الشركات على تحوير استخدام تقنيات طبية لتعمل في أغراض تجارية. وليس المقصود هنا التذمر من تحوير استخدام التقنيات من غرض لآخر، وانما لفت النظر إلى أن بعض التقنيات هي بطبيعتها تنتهك الجسد، ولكن يبرر استخدامها أهداف العلاج والتداوي. ومن ثم، فإن استخدامها في سياق اخر، كما هو الأمر مع استخدام التصوير بالرنين المغناطيسي لتحديد كفاءة الإعلانات التليفزيونية، ربما يكون غير مبرر. وثالثا: أنه لم يتوافر بعد الهيكل القانوني الذي ينظم استخدام الكثير من تقنيات أو منجزات العلوم العصبية، بحيث تتحقق الفائدة منها دون انتهاك الحريات الإدراكية للفرد. فالمحك الرئيس الواجب اعتباره عند الترخيص بتعميم أي تقنية أو أسلوب طبي - مهما ثبت لأي منهما من فوائد عظيمة - هو أن يقبل المريض ذلك، قبولا واعيا متبصرا بالعواقب. ◉

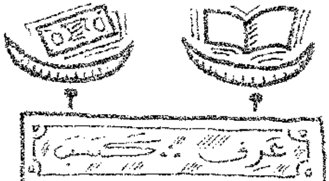
## هوامش

(١) كتاب «Evolution Isn't What It Used To Be» للمؤلف والترت. أندرسون، وترجمه للعربية تحت عنوان «عصر الجينات والإلكترونيات» الدكتور أحمد مستجير.

(٢) يمكن الحصول على نسخة إلكترونية مجانية من هذا التقرير من العنوان التالي:
http://www.cognitiveliberty.org/pdf/Pharmacotherapy%202004.pdf

(٣) راجع مقال «اللعب في الدماغ» للكاتبة ريم مهنا على موقع إسلام أونلاين من العنوان التالي:
http://www.islamonline.net/arabic/science/2005/02/article05.SHTML

# اقتصاد المعرفة.. المكتسب



**معتز خورشيد**

■■ تتسم الألفية الثالثة بتنام غير مسبوق في دور العلم والمعرفة، وحدوث طفرة في استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. إذ يتسارع في عالمنا المعاصر تراكم المعرفة العلمية وتطبيقاتها التكنولوجية بمعدلات هائلة، نتيجة للزيادة الكبيرة في الحاسبات ونظم المعلومات ووسائل الاتصالات، مما يُنتظر معه أن يسفر عن تغيرات عميقة في المفاهيم والأسس التي ترتكز عليها النظم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وفي سلوك الأفراد والمجتمعات.

وقد أدى ظهور شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) إلى حدوث ثورة في مفهوم الزمان والمكان، بحيث أصبح من الممكن نقل كميات هائلة من البيانات وتقديم العديد من الخدمات الإلكترونية عبر الحدود وبين الدول والقارات. وقد أسهمت هذه الثورة المعلوماتية في تسارع وتيرة تكامل الاقتصاد العالمي من خلال تعاظم معدلات التبادل التجاري والزيادة في تدفقات رؤوس الأموال، وسرعة تحقيق الصفقات والاتفاقيات التجارية، وبذلك أصبحت النظم الاقتصادية في عالمنا المعاصر ترتكز بشكل كبير على المعرفة. وقد نجم عن هذا التوجه العالمي نحو «اقتصاد المعرفة» - وما يمثله من تنام لدور العلم والتكنولوجيا وزيادة الاعتماد على موارد بشرية أكثر كفاءة وقدرة علمية- ظهور صناعات معرفية تتسم بالتطور التكنولوجي السريع، والقدرة على تحقيق معدلات ربحية مرتفعة، مما أدى إلى سعي النظم الوطنية إلى الإحلال التدريجي للاستثمار المادي بالمعرفة والتنمية التكنولوجية.

وقد واكب هذه الثورة المعرفية تطور كبير في علوم الحياة (Bio-sciences) وما تشعب عنها من علوم بينية، مثل: التكنولوجيا الحيوية (Bio-technology)، والمعلوماتية الحيوية (Bio-informatics) وتكنولوجيا النانو (Nano-technology)، بحيث انتقلت البحوث العلمية من التركيز على حل شفرة الحمض النووي إلى ترتيب الجينات ورصد الكائنات الحية الدقيقة، مما سمح بتحوير مكونات الأشياء الحية من أجل تحسين صحة الإنسان وابتكار منتجات جديدة وزيادة معدلات الإنتاج.

وفي جملتها فقد أدت هذه الابتكارات والتطورات العلمية والمعرفية غير المسبوقة إلى حدوث تغيرات هامة في مجال التنمية الاقتصادية والاجتماعية وسلوك الأفراد والمجتمعات، مما ساهم في خلق مناخ مغاير للبحث العلمي والتنمية التكنولوجية يتعين أخذه في الاعتبار عند وضع الاستراتيجيات وصياغة الخطط البحثية. ويمكن تلخيص المناخ البحثي الجديد السائد في الألفية الثالثة في عدد من الخصائص على النحو التالي:

١ - تنامي دور العلم والمعرفة والبحث والتطوير كأحد عوامل الإنتاج الرئيسية، وارتباط نجاح جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية بتحقيق مستويات عالية من التقدم العلمي والتنمية التكنولوجية.

٢ - التطورات غير المسبوقة في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وتعاظم تطبيقاتها في طرق التدريس والتعلم والتدريب والبحث العلمي.

٣ - ارتباط التطوير العلمي بالابتكار والتحديث مع تنامي التوجه البحثي نحو التخصصات البينية والعلوم متعددة التطبيقات مثل التكنولوجيا الحيوية والمعلوماتية الحيوية وعلوم الليزر.

٤ - التأثير المتزايد لظاهرة العولمة بما تمثله من تقلص للمسافات وحرية انتقال الأفكار والسلع والخدمات والأفراد والثقافات عبر الحدود وبين الدول، وحدوث توسع غير مسبوق في الأخذ باقتصاديات السوق الحرة وزيادة تشابك الأسواق على الصعيد العالمي. وبرغم بدء شيوع هذه الظاهرة على المستوى الاقتصادي - من خلال اتفاقيات التجارة الدولية - إلا أنها شهدت توسعاً كبيراً في نطاقها لتشمل معظم الأبعاد السياسية والاجتماعية والثقافية والبحثية والتكنولوجية، وهو ما يمكن أن يؤثر بشكل رئيسي في إعداد خطط وطنية للبحث والتطوير.

٥ - اعتماد التوجه السياسي نحو تدويل التعليم العالي والبحث العلمي من قبل منظمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، وما يتطلبه ذلك من إعادة هيكلة الجامعات لإضفاء بعد دولي متعدد الثقافات على أنشطتها البحثية والأكاديمية.

٦ - وجود نظام عالمي للحوكمة تتكامل جوانبه ويتنامى تأثيره من خلال شبكة متسقة من المؤسسات الدولية تتمثل في البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ومنظمة اليونسكو، واللجان الاقتصادية والاجتماعية على المستوى الإقليمي. حيث تقوم هذه المؤسسات الدولية - وعلى وجه الخصوص منظمة اليونسكو - بوضع الاستراتيجيات وصياغة السياسات الدولية في مجال العلم والتكنولوجيا.

٧ - توجه الدول والحكومات إلى تبني نظم سياسية أكثر شفافية وديمقراطية، وتنامي دور المنظمات غير الحكومية ومؤسسات الإعلام والجمعيات الأهلية في تشكيل المناخ السياسي والاجتماعي. ويمثل هذا التحول الديمقراطي للنظم الحاكمة أحد العوامل التي تساعد على إطلاق حرية الإبداع والابتكار لطرح أفكار بحثية أكثر تطوراً وحداثة.

٨ - تحول النظم الاقتصادية إلى نظم تعتمد على المعرفة (اقتصاد المعرفة)، وما يمثله ذلك من تنام لدور البحث والتطوير وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات كأحد عناصر الإنتاج الرئيسية، وزيادة الاعتماد على موارد بشرية أكثر كفاءة وقدرة علمية. مما ساهم في ظهور صناعات معرفية ذات قيمة مضافة عالية.

وتأسيساً على ما سبق فقد تعاظمت أهمية البحث العلمي والتنمية التكنولوجية في عصر المعرفة، وتنامى دورهما في تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية المستدامة، الأمر الذي يتطلب تعزيز قدرات العلم والتكنولوجيا بالجامعات ومؤسسات البحث العلمي وتوظيفها لخدمة متطلبات تنمية المجتمع المدني والبحث عن مستقبل أفضل للإنسان.

## العولمة وتدويل النشاط البحثي

تتركز انعكاسات عصر العلم والمعرفة وثورة المعلومات والاتصالات ويتنامى تأثيرها في مجال العلم والتكنولوجيا، من خلال توجهين عالميين رئيسيين- يُنتظر أن يؤثر في المسار المستقبلي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ومستوى رفاهية الإنسان - وهما عولمة البحث العلمي وتدويل أنشطته.

وتتمثل عولمة البحث العلمي في توجه عالمي يتمثل في حرية انتقال الأفكار والسلع والخدمات والأفراد وتقلص المسافات عبر الحدود وبين القارات. وقد تعاظم تأثير هذا التوجه من خلال اتفاقيات التجارة الدولية (الجات) لتحرير تبادل السلع والخدمات. وحيث إنه يمكن اعتبار البحث العلمي - من وجهة النظر الاقتصادية - واحدة من الخدمات التي تقدمها المؤسسات البحثية (عرض الخدمة البحثية) إلى المجتمع بقطاعاته المختلفة (الطلب على الخدمات البحثية)، فإنه من المتوقع تأثره - بشكل مباشر - بهذا التوجه في ظل الاتفاقية العامة للتجارة في الخدمات (GATS)، أي أن ظاهرة العولمة ستساهم في إلغاء القيود على حركة العلماء والمؤسسات البحثية والبرامج التكنولوجية ومشروعات التطوير عبر الحدود، بهدف تحقيق تكامل وتشابك في سوق البحوث العلمية على الصعيد العالمي. ومن هنا فإنه يمكن النظر إلى العولمة بوصفها عملية ترتبط بالتوسع في أسواق الخدمات البحثية وباقتصادية البحث العلمي. ولسوف يوكل إلى كل دولة وضع القواعد والآليات التي ستسمح لها بحماية إنتاجها الفكري والبحثي وتعظيم الاستفادة من توسع الأسواق البحثية - عند التفاوض مع منظمة التجارة العالمية (WTO)- فيما يخص الاتفاقية العامة للتجارة في الخدمات (GATS)، وشقها الخاص بخدمات البحث والتطوير.

ويُعرف تدويل البحث العلمي بالتوجه الذي يسعى إلى: «إضفاء بُعد دولي - أو بُعد متعدد الثقافات - على كافة أنشطة البحوث والتطوير بهدف الارتقاء بكفاءة البرامج البحثية وتعزيز قدرات العلم والتكنولوجيا». وتختلف عملية التدويل عن ظاهرة العولمة في كونها توجهاً استراتيجياً يتعين على الجامعات والمؤسسات البحثية تبنيه ورسم السياسات المؤدية إلى تحقيق

# والخسارة فى البحث العلمى

**تؤكد البيانات توجه السياسة الأمريكية نحو إنشاء شركات عملاقة عابرة للقارات تعتمد على اجتذاب العلماء من الجامعات والمؤسسات البحثية المستقلة، أو استيرادهم من العالم الخارجى**

أهدافه. وحتى يمكن التفرقة بين ظاهرتى العولمة والتدويل، فقد ذهب بعض خبراء التعليم والبحث العلمى بمنظمة اليونسكو إلى تسميته «بالتدويل غير الهادف للربح».

وقد تبنت منظمة اليونسكو استراتيجية تدويل التعليم العالى والبحث العلمى منذ عام ١٩٩٨، حينما أقرت - فى نهاية حقبة التسعينيات - مبدأ التدويل كوسيلة للارتقاء بالعملية التعليمية والبحثية. من خلال إضفاء بُعد دولى متعدد الثقافات على كافة جوانبها وأنشطتها. كما حثت الجامعات والمراكز البحثية على إعادة هيكلة أنشطتها لمواكبة التوجه نحو التدويل. وأخيراً فقد أقرت المنظمة الدولية مبدأ التدويل بوصفه أحد معايير تقييم أداء مؤسسات التعليم العالى والبحث العلمى وكذلك نظمها.

ويتعين التنويه فى هذا المجال إلى الدراسات المسحية التى قام بها الاتحاد الدولى للجامعات (International Association of Universities IAU) فى السنوات (٢٠٠٣- ٢٠٠٥) باستخدام عينة مُمثلة للجامعات على المستويين الإقليمى والعالمى. ولقد أوضحت نتائج المسح الإحصائى ما يلى:

١ - وجود توسع غير مسبوق فى تبنى جامعات الدول - المتقدمة والنامية على حد سواء - لاستراتيجية تدويل التعليم العالى والبحث العلمى منذ بداية الألفية الثالثة.

٢ - وجود تنوع فى أشكال التدويل بالجامعات وأساليبه، كما اتضح وجود تباين فى الأهمية النسبية لهذه الأشكال البديلة للتدويل.

٣ - أن دعم التعاون البحثى على المستوى الدولى يعتبر من أهم وسائل التدويل التى ترغب الجامعات فى تطبيقها.

## فجوة العلم والتكنولوجيا

فى إطار سعيها نحو تحقيق مستقبل أفضل للإنسان والارتقاء بمستويات رفاهيته وتوفير متطلبات تنمية قدراته البشرية والعلمية، عقدت منظمة الأمم المتحدة ومؤسساتها المتخصصة العديد من المؤتمرات الدولية.

وقد واكبت هذه المؤتمرات العالمية - وما تمخضت عنه من توصيات وتوجهات استراتيجية - تغيرات هائلة فى العلم والتكنولوجيا وثورة فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وتطور غير مسبوق فى علوم الحياة.

وبرغم أنه كان من المتوقع أن تؤدى الجهود الدولية المكثفة - خلال حقبة التسعينيات من القرن الماضى وبداية الألفية الثالثة - وما صاحبها من طفرة هائلة فى العلم والتكنولوجيا، إلى حدوث نقلة نوعية مماثلة فى معدلات رفاهية الإنسان، ومعدلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبشرية على المستوى الدولى، فقد أفادت الدراسات والبحوث الدولية فى هذا المجال - وعلى وجه الخصوص التقرير الهام الذى صدر عن المجلس المشترك بين أكاديميات البحث العلمى حول كيفية بناء قدرات البحث والتكنولوجيا فى العالم - بأن «الواقع العلمى يكشف عن فشل وصول كثير من ابتكارات العلم والتكنولوجيا إلى من يحتاجونها بشدة، كما تتفاوت معدلات استفادة الدول من الفوائد المتحققة منها عبر مختلف بقاع كوكبنا».

وفى ظل ما تشهده الألفية الثالثة من تنامٍ لأهمية العلم والتكنولوجيا كأحد العناصر الهامة المؤثرة فى تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وفى إطار الانتقال إلى «الاقتصاد المعرفى» بالارتكاز على ثورة الاتصالات والمعلومات، فقد تعاظم الدور البحثى للجامعات من خلال الآليات التالية:

١ - التنوع غير المسبوق فى مؤسسات التعليم العالى وهياكلها الأكاديمية والإدارية، وظهور منتجين جُدد للخدمات التعليمية، وتزايد الحراك الأكاديمى للطلاب وأعضاء الهيئة العلمية، وتطوير أساليب تعليمية أكثر حداثة وتقنية، مما أسهم فى إنشاء جامعات ذات توجه بحثى تتكون أساساً من عدد من المراكز البحثية المتميزة (مثل جامعة أولم وبرلين بألمانيا)، أو جامعات تركز فقط على مرحلة الدراسات العليا بما تتضمنه من رسائل علمية وبحوث أساسية ومشروعات بحثية تطبيقية (مثل مدارس الدراسات العليا بأمريكا وأوروبا وبعض الدول الآسيوية التى تكون على مستوى الجامعة أو أحد قطاعاتها الأكاديمية).

٢ - تبنى منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) لاستراتيجية تدويل التعليم العالى والبحث العلمى، واعتبار عملية التدويل أحد المعايير الأساسية لتقييم الأداء الجامعى، ومطالبة مؤسسات التعليم العالى بإعادة هيكلة أنشطتها للتوائم مع توجه التدويل، مما ساهم بشكل فعال فى تزايد المشروعات البحثية المشتركة بين الجامعات على الصعيد العالمى. كما نتج عن هذا التزاوج بين الثقافات البحثية - عبر الحدود وبين الدول - تعاظم للدور البحثى للجامعات، والارتقاء بالقدرات العلمية والتكنولوجية لأعضاء هيئة التدريس بها.

٣ - ارتباط الأطر المؤسسية الحديثة للبحث العلمى والتنمية التكنولوجية بالجامعات ومؤسسات التعليم العالى، حيث اتضح أن العديد من المنتجعات البحثية ومراكز الابتكار التكنولوجى ومعاهد التميز العلمى قد نشأت وتطورت فى رحاب الجامعات. وقد أدى ارتباط هذه المؤسسات العلمية الحديثة بالجامعات إلى الارتقاء بجهود البحث والتطوير على كافة المستويات.

وعلى الرغم من حدوث هذه التغيرات الدافعة لقوى البحث العلمى على صعيد المؤسسات الجامعية، فإن البنى الحالية لنظم التعليم العالى فى كثير من البلدان النامية قد غدت غير مناسبة لتلبية تحديات الألفية الثالثة، ومن ثم فإنها تتطلب إصلاحات واسعة النطاق حتى يمكن أن تحتل موقعاً مركزياً فى استراتيجية تنمية الموارد البشرية من أجل تعزيز قدرات العلم والتكنولوجيا.

ويرجع السبب فى عدم قدرة مؤسسات التعليم العالى بالدول النامية على تحقيق الارتقاء المرغوب فى القدرات البحثية والتكنولوجية إلى تنامى ظاهرة ديمقراطية نظم التعليم العالى، التى ساهمت فى الزيادة غير المسبوقة فى الطلب على خدمات التعليم العالى (أو زيادة الرغبة فى الالتحاق بالدراسة الجامعية)، وقد أدت هذه الظاهرة إلى اتجاه الحكومات - بالدول المتقدمة والنامية على حد سواء - نحو تبنى نظم سياسية أكثر تحرراً وديمقراطية وأكثر تحقيقاً للعدالة الاجتماعية، الأمر الذى نتج عنه تعاظم معدلات الطلب على خدمات التعليم العالى وحدوث توسع كمى غير مسبوق فى أعداد الطلاب الدارسين، وتزايد الضغوط على الجامعات الوطنية لتصبح أكثر تنوعاً فى هياكلها المؤسسية ونظمها الأكاديمية بما يسمح بقبول أعداد متزايدة من الطلاب.

هذا وقد غدت ضرورة إصلاح نظم التعليم العالى بالدول النامية موضوعاً للعديد من الدراسات والتقارير، وأشارت اللجان المضطلعة بإجراء هذه الدراسات والمُشكلة من قبل البنك الدولى ومنظمة التربية والعلوم والثقافة، أشارت بشكل خاص إلى محاور التركيز التالية:

• ضرورة استقلال الجامعات، وزيادة قدرتها على اتخاذ القرارات العلمية والتنظيمية، والسعى إلى توافق الاستقلال الذاتى للجامعات مع الأهداف الوطنية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية.

• ضمان وجود التعددية المؤسسية فى نظم التعليم والتدريب، وتعديل البنى الأكاديمية والإدارية التى تعوق إجراء البحوث البينية والدراسات متعددة التخصصات عبر القطاعات الأكاديمية للجامعات.

• تبنى السياسات الأكاديمية القائمة على أساس الجدارة والتى من شأنها دعم شباب الباحثين المتميزين وتحقيق استقلالهم الفكرى.

• التطوير المتصل لأقسام الجامعات والمعاهد العليا من خلال إعداد نظم شفافة لتقييم الجدارة وضمان الجودة فى مجال البحث العلمى.

• تطوير برامج بحثية خاصة على الصعيد العالمى بالجامعات بهدف تكامل الثقافات البحثية وتعزيز القدرات فى مجال العلم والتكنولوجيا.

خامساً: الهيكل المؤسسى لمنظومة البحث العلمى:

تشير المؤشرات العالمية فى مجال البحث العلمى إلى وجود تباين فى التوزيع النسبى لحجم النشاط بين المؤسسات الوطنية المنتجة للبحث العلمى

# كتاب الزاوية

## من أدب الفرس والترك

### يقظة الليل

هذه قصيدة من الشعر التركى العالى لجناب شهاب الدين بك المتوفى عام ١٩٣٤، وكان فى بدء أمره يتلو تلو الأقدمين من شعراء الترك، حتى رحل إلى فرنسا طلبًا للطب. فاطلع على الأدب الفرنسى وتأثر به تأثرًا يتجلى فى هذا المثال من شعره الرقراق.

تعالى يا جميلتى، بالله إلا ما قربت مجلسك منى هذه الأمسية، لتسترقى السمع معى بأذن مصغية. فإن هذا الليل من حولنا يموج بالأنغام.

المعزف بعيد بعيد : وله حنين ورنين، لأن رقاق الأنامل تداعبه بلمسها الرفيق، فكأن أرواح الخريف تخفق ثم تخفق.

فاملأى مسمعيك يا حبيبتى من حنينه فى أغوار الليل الساكنة وجوف الظلمة الخرساء.

إذا أدرك هذه الأنغام لين ورقة، أو غشيتها للأسى وحشة وانكسار، ذكرت بها بلبل البستان وهو يرجّع فى شدواته العذاب.

أما إذا ما عرتها هزة النشوة، فإن زفرة الوحدة تغمر كل ما فى هذا الكون النائم.

لمن تلك اليد المرتعشة التى ترسل لحنًا بعد لحن؟ ومن ذا الذى يرفع الصوت بذلك الغناء المحزون؟ وأين هذا المحبوب الهاجر الذى ينطق الأوتار باللحن الكسير على ذكراه؟ وأى مأتم يرتج بهذا النحيب؟

والتكنولوجى على مستوى الدول النامية والمتقدمة على حد سواء. إذ يمكن أن يتم النشاط البحثى والتطوير التكنولوجى على مستوى أكثر من قطاع وطنى. فهناك مجموعة من المراكز العلمية والمعاهد المهنية تتبع قطاع البحث العلمى (سواء أكان ذلك على مستوى وزارة أو مجلس أعلى أو مؤسسة حكومية أو معهد بحثى خاص)، فى حين أن النشاط البحثى قد يتركز بنسبة عالية - فى بعض الدول- فى الشركات والمؤسسات الإنتاجية والخدمية. حيث يلحق بكل مؤسسة إنتاجية وحدة للبحث والتطوير (Research & Development) يكون هدفها الأساسى القيام بالبحوث لتطوير المنتجات الخاصة بها وتحديثها، والارتقاء بحجم مبيعاتها فى الأسواق، وحل المشاكل الفنية والإدارية والمالية التى قد تؤثر فى معدلات أدائها على المستويات كافة. وبالطبع، فإن هذا المفهوم ينطبق على الشركات كبيرة الحجم أو المؤسسات الإنتاجية متعددة الجنسيات التى تسمح ميزانيتها بالإنفاق على وحدات البحث والتطوير. بينما تلجأ الشركات المتوسطة وصغيرة الحجم إلى الارتباط بجهات بحثية متخصصة لدعمها بحثياً. هذا وقد لوحظ أن الجامعات بالدول النامية تقوم بدور جوهرى فى بناء قدرات العلم والتكنولوجيا مما يؤدى إلى ارتفاع نصيبها من الناتج المحلى البحثى على المستوى الوطنى.

ويرجع التباين بين الدول- فيما يخص توزيع النشاط البحثى بين المؤسسات الوطنية- إلى طبيعة النظام السياسى أو الاقتصادى المطبق بالدولة من ناحية، وإلى التوجهات الاستراتيجية لقطاع التعليم والبحث العلمى من ناحية أخرى. فمن الطبيعى أن تسمح النظم الرأسمالية للقطاع الإنتاجى الخاص بالتوسع فى وحدات البحث والتطوير به، فى حين تتوجه الدول الاشتراكية إلى إنشاء مراكز بحثية تابعة للقطاع الحكومى فى شكل مراكز قومية للبحوث العلمية. وبصرف النظر عن طبيعة النظام السياسى أو الاقتصادى السائد بدولة ما، فإنه من المفروض أن قطاع البحث العلمى يتضمن توجهات عامة تحدد نصيب المؤسسات الوطنية من النشاط البحثى (هيكل منظومة البحث العلمى). ولدى معظم الدول الرأسمالية أكاديميات وطنية للبحث العلمى تابعة للدولة تختص بتنظيم البحث العلمى وتخطيطه، ووضع الاستراتيجيات الوطنية فى هذا الشأن. ويتعين الإشارة أيضاً إلى أن طبيعة المجال البحثى قد تُحدد - فى بعض الأحيان - الشكل المؤسسى للنشاط، فالبحوث فى مجالات الطاقة النووية وعلوم الفضاء تتم - فى غالب الأحيان- على مستوى مركزى يتبع الدولة.

ويبين شكل (١) مشاركة قطاعات الدولة فى النشاط البحثى على مستوى مصر والولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا (من خلال نسبة عدد العاملين فى مجال البحث والتطوير)، حيث يمكن استنتاج النقاط التحليلية التالية:

١. تتم معظم البحوث العلمية بالولايات المتحدة الأمريكية على مستوى الشركات والمؤسسات الإنتاجية والخدمية (بنسبة تصل إلى ٨٠٪)، على حين يتراجع نصيب كل من قطاع التعليم العالى والبحث العلمى إلى (١٣,٣٪)، (٢,٦) على التوالى. وتعكس هذه المؤشرات التوجه الراسمالى وما يتضمنه من تنام للقطاع الخاص وتحرير للأسواق من ناحية، واللامركزية فى اتخاذ القرار التى تميز النظام الأمريكى من ناحية أخرى. كما تؤكد هذه البيانات توجه السياسة الأمريكية نحو إنشاء شركات عملاقة عابرة للقارات تعتمد على اجتذاب العلماء من الجامعات والمؤسسات البحثية المستقلة، أو استيرادهم من العالم الخارجى.

٢. يمثل هيكل البحث العلمى بألمانيا نمطاً أكثر توازناً من حيث توزيع الأدوار البحثية على مؤسسات المجتمع. إذ تشير البيانات إلى أن عدد العاملين بالمجال البحثى من القطاعات الإنتاجية والخدمية يُقدر بنحو (٦٢٪) من جملة العاملين، فى حين يصل نصيب الجامعات ومؤسسات التعليم العالى إلى نحو (٣٠٪). وتعكس هذه المؤشرات النمط الأوروبى للبحث العلمى الذى يدعم تنامى القدرات العلمية والتكنولوجية بالجامعات، كما توضح والتوجه الألمانى نحو إنشاء جامعات بحثية بالدرجة الأولى (مثل جامعة أولم).

٣. توضح الهياكل العلمية بكل من الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا أن هنالك تعاظماً لدور الشركات الإنتاجية والخدمية الخاصة والعامة فى منظومة

### هناك تعاظم لدور الشركات الإنتاجية والخدمية الخاصة والعامة في منظومة البحث العلمي والتطوير التكنولوجي

البحث العلمي والتطوير التكنولوجي، حيث يتحقق ذلك إما من خلال إنشاء وحدات للبحث والتطوير على مستوى الشركات (R&D units)، أو من خلال تقوية سبل الارتباط مع الجامعات ومؤسسات البحث العلمي المستقلة.

وبرغم التباين الواضح في المؤشرات الدولية السابقة - فيما يخص التوزيع النسبي للنشاط البحثي على المؤسسات الوطنية- وضرورة إعادة هيكلة منظومة البحث العلمي بمصر تجاه تفعيل البحث العلمي بالقطاعات الإنتاجية والخدمية الخاصة والعامة، فإنه من المؤكد أن هناك دوراً مهماً للجامعات في مجال البحث العلمي يتعين دعمه بكافة السبل على المستوى القومي، كما يتعين على الجامعات - بما تتمتع به من استقلالية- أن تقوم بإعداد خطط بحثية تتفاعل مع معطيات الألفية الثالثة. ومما يؤكد هذا التوجه مؤشر حجم الإنفاق على البحث والتطوير بقطاع التعليم العالي كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي في العديد من الدول المتقدمة علمياً وتكنولوجياً وفق الشكل (٢)، إذ يصل حجم هذا الإنفاق إلى نحو (٠,٤١٪) من الناتج المحلي الإجمالي في فرنسا، مع ملاحظة أن ما تنفقه فرنسا على البحث العلمي بالجامعات يمثل نحو (١٩٪) من جملة ميزانية البحث العلمي على المستوى القومي.

#### التوجهات الحديثة للبحث العلمي والجامعات

لقد أسهم نجاح الدول المتقدمة لتطوير وحدات بحثية غير تقليدية، مثل: مراكز الامتياز المستقلة، والمنتجعات البحثية، ومراكز الابتكار التكنولوجي، وشبكات الامتياز البحثي الافتراضية في الارتقاء بالبحوث العلمية والتنمية التكنولوجية وتعظيم مشاركتها في تحقيق المتطلبات المجتمعية على المستوى العالمي، وبرغم توجه هذه الأطر المؤسسية العلمية إلى دعم قطاع البحث العلمي بشكل عام، إلا أن العديد منها قد ارتبط منذ إنشاءه وتطوره بإحدى الجامعات أو بواحدة من مؤسسات التعليم العالي.

فعلى سبيل المثال: توجهت حكومة كوريا الجنوبية إلى إنشاء مراكز امتياز بحثي بهدف النهوض بالدور البحثي والتكنولوجي للجامعات. حيث قامت بإنشاء مراكز للبحث العلمي تختص بتطوير النظريات الجديدة في مجال العلوم الأساسية، والبحث المعمق حول ظواهر الطبيعة. ومراكز للبحث الهندسي تسهم في تطوير تكنولوجيا صناعية متقدمة. ومراكز بحث إقليمية توجه لدعم التعاون البحثي بين الجامعات على الصعيد الإقليمي. على أن تكون هذه المراكز على مستوى الجامعة (أي تشارك بها أكثر من كلية) وتتمتع بتمويل حكومي لفترة ٩ سنوات لحين اعتمادها على مواردها الذاتية.

وتأسيساً على ما سبق، فإنه يتعين على الجامعات المصرية أن تعيد هيكلة أطرها المؤسسية وأنشطتها البحثية للتوائم مع متطلبات هذه الأشكال الحديثة للبحث العلمي والتنمية التكنولوجية.

ويمكن تعريف مراكز الامتياز بأنها كيان بحثي يتبع جامعة أو معهد بحوث أو يعمل بشكل مستقل، ويخضع لعملية مراجعة للجدارة والجودة على أعلى مستوى، من حيث كفاءة البنية الأساسية والكوادر البحثية والمخرجات العلمية، وتوجه جهوده كافة إلى تطوير القدرات المعرفية - ذات الأهمية الوطنية - في مجال العلم والتكنولوجيا.

وترتكز فعاليات شبكات الامتياز الافتراضية على جهود حشد من العلماء للتعاون في مجال بحثي (أو عدة مجالات بحثية) باستخدام التكنولوجيا المتطورة لشبكة الإنترنت العالمية، وهي تقوم بربط مجموعة من المعاهد البحثية الافتراضية القائمة بأكثر من إقليم أو دولة.

وتهدف المنتجعات البحثية ومراكز الابتكار التكنولوجي إلى دفع جهود الابتكار والتطوير من خلال دعم علاقة الجامعات بالصناعة، والمساهمة في الارتقاء بكفاءة نقل التكنولوجيا الحديثة، من المؤسسات المنتجة لها إلى القطاعات الإنتاجية، وتوطينها وفق متطلبات التنمية الوطنية، وزيادة مشاركة الشركات المتطورة تكنولوجياً لدعم جهود النمو الاقتصادي من خلال توفير فرص عمل مغرية للخريجين.*

## كتاب الزاوية

### من أدب الفرس والترك

### مصر في الشعر التركي

كان لبعض من شعراء الترك وقادات على مصر قبل الفتح التركي وبعده، فقدمها الأمير جم وهو شاعر أنيق الشعر رقيقه نزل ضيفًا على قايتباي أيام نازع العرش أخاه با يزيد وهاجت الحرب بينهما، وجاء مصر من الأمراء الشعراء، أخ للسلطان سليم يقال له الأمير قورقود، ومعه نديمه وشاعره الماجن محمد شلبي الذي كان شديد الاختصاص به لا يفارقه في سفر ولا حضر، ولما تجهز السلطان سليم الأول لفتح مصر، لم تفته دعوة الشعراء إلى صحبته، ليكونوا رفقة معه تؤنس وحشته، ويتسلى بها من كل هم عنم، وهو من يعز العلماء ويكرم الشعراء، لأنه كان شاعرًا ديوانه ريحانة أهل الأدب.

ومن ندمائه الشعراء في سفرته إلى مصر: إسحاق شلبي، وكان جهينة الأخبار حلو الأسمار كثير الأضاحيك راوية يستمد من بحر لا ينفد، ومعه شاعران مزاحان ضحاكان، لهما اتساع خبرة بأدب النديم، فكانوا ثلاثتهم يسامرون السلطان ويسرون عن نفسه ما قد يغشاها من هول خطب واقع أو متوقع.

وكان كمال باشا زادة من أتباع السلطان سليم، له عنده دالة وحظوة فاصطفاه رفيقًا له مقربًا، وكان شاعرًا عالمًا، فناط به أن يترجم كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، وامتثل الباشا أمر السلطان، وأطلعه كل يوم على القدر الذي ينجز ترجمته من الكتاب، فما دخل سليم مصر إلا وهو على علم بتاريخها، وأخبار ملوكها.

# «طـــــريق» نجــــيب محفــــوظ

اليس لون منظار الطائر في الحلم، أهم أحياناً من أحداث الحلم كلها كما يقول لنا فرويد في أحد نصوصه؟ بصمة اليد العابرة على جدار بارد اليست أهم من الجدار وبنيانه لمن أراد قراءة القصص واقتناص الأثر؟ إذا كان النص المبتدع حلماً من أحلام اليقظة، فلماذا نعرض عن الترابطات التي تصنع نسيج الحلم وتفتح أبواب التأويل، ونحن نفسر أحلام اليقظة التي خرجت من فضاءات الذات وأصبحت أحلاماً نهارية مشتركة نسميها «أدباً».

سئمنا التحاليل البنيوية والسيميائية المتعاظمة التي لا تخلي القص من زمنه فحسب، محولة إياه إلى مجموعة من الوظائف أو البنى المجردة، بل تجرده من تفاصيله الشاردة، ومن ثغرات صمته، ومن عمقه التراجيدي الضارب في أعماق الذات البشرية. إذ «تتسلح بالمنهج». تتخذ المنهج سلاحاً معبوداً نقدم له الكتابة والغرابة قرباناً، في قداس من الطلاسم التي لم يعد يفهمها إلا الراسخون في الشكلنة.

وسئمنا مع ذلك انعدام المنهج وانعدام المعرفة، والانغماس في التجريبية الصماء التي تختزل النص في مجموعة من القضايا والأطاريح الساذجة.

القصة نسيج من القصص الأقاصيص والآثار، وكلنا نسيج من الأقاصيص والآثار، والقصة اقتصاص للآثار ووقوف على أطلال، والآثار ملموسة من حيث هي آثار. ولا أحد يملك مفاتيح حضورها. القصة ليست صرحاً شامخاً نتأمل هندسته التي لا تعتريها الشروخ، بل صور ومقامات الفتح والتسلح والامتلاك، لنكتشف بنوع من «الدندنة» حولها، ولنتتبع خطوطها المتشابكة، ولنتخيل ما كان فوقها من بناء، ولنتخيل حركاتها السائرة في كل اتجاه، دون تعاظم موضوعي.

لا تقدم هالة فؤاد في هذا الكتيب تحليلاً ضافياً لرواية «الطريق»، بل تكتفي بهامش، تقول إنه صوفي، وهو بالأحرى أشمل من ذلك وأبعد أثراً: إنه تناص ميثولوجي تراجيدي. بدل القضايا والأطاريح، وبدل البنى المجردة والبهلوانات المنطقية والسيميائية، اتخذت الكتابة التناص الحر طريقاً إلى «الطريق». إنها المعرفة الحالمة المرحة.

مقدمة كتاب:
طريق نجيب محفوظ بين الأسطورة والتصوف
د. هالة فؤاد
القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٦

تستنطق الكاتبة اللغة، وتشتغل على الدوال في ترابطاتها العتيقة، فتدهشنا عندما نكتشف من جديد أن اللغة ليست مجرد أداة «نقول بها»، بل هي لسان كاهنة «تقول لنا»: تقول لنا إن «الصبر» من الحبس والأسر، وإن «البرد» النوم لأنه يبرد العين بأن يقرها، وإن «الحسرة» من التعري والانكشاف، وإن «الصرع» من القتل والغضب.. وما أسعد الكتاب الفلاسفة الذين استمعوا إلى هذه الكاهنة العجوز، فقالوا كالتوحيدي إن «الغريب من غربت شمس جماله»، أو قالوا كابن عربي إن العذاب من العذوبة.



وتتذكر الكاتبة التراجيديا اليونانية القابعة بعمقها الأوديبي في نسيج أقاصيص حياتنا وفي نسيج روايات نجيب محفوظ البديعة. ألا تقول لنا في التماعة تأويلية ثاقبة إن الصحفي الضرير الذي كشف عن حقيقة والد صابر لا يعدو أن يكون تيريزياس، لسان حال القدر، ذلك الأعمى الذي أفقدته الآلهة البصر لتمنحه البصيرة؟

سلاح الكاتبة في هذا الكتيب ليس سردية الوظائف والبنى المنطقية، بل سلاحها ترك السلاح على طريقة أهل التصوف ربما. ترك السلاح واتخاذ الذاكرة الأدبية والصوفية والميثولوجية معيناً ومدداداً، أو بالأحرى خيوطاً. لكنها غير خيوط العنكبوت التي تتربص بالفريسة، بل خيوط الطرازة التي تملأ الفراغات، وتسد البياض، تاركة للآخرين سبل الاستمرار في الملء والسد المتجددين، أو مواصلة تطريزها من حيث انتهت. فأترجم بعض ما كتبته إلى اللغة التي أصبحت حبيبة إليّ، منذ أن اقتنعت بأن الأدب لا يمكن أن يكون موضوعاً لعلم، بل مادة لمعرفة، واخترت التحليل النفسي، معرفة وطريقاً، مصيراً محتوماً، كالمصير التراجيدي تقريباً، لأسباب يضيق عنها هذا المجال طبعاً.

تقول الكاتبة: بسيمة أم صابر هي إيزيس، المرددة: «أنا ما كان، وما هو كائن وما سيكون.. وما إنسان بقادر على رفع برقعي».

بسيمة هي الأم العنيفة المتسلطة التي لا تترك للابن فضاء للشوق، ولا تترك للأب مجالاً، لكي يحد من سلطتها ويقوم بإخصاء رمزي للابن، بل وللأم أيضاً. ولذلك اشتق اسم صابر من الصبر «الأسر» كان صابر أسير أمه وأسير اسمه: «كان صابر حبيساً داخل فضاء بسيمة عمران الأسطوري...».

تقول الكاتبة: «إن بسيمة وكريمة من سلالة آلهات الموت والجنس، أمازونيات يقتلن الذكور بعد مضاجعتهن، بل ويقتلن مواليدهن من الذكور».

بسيمة لم تقتل ابنها واقعياً، بل قتلته يوم اتخذته قمراً معبوداً لا يحتاج ولا يفتقر. ألم يقل نجيب محفوظ إنها قالت لابنها: «أي أب في الدنيا كان يمكن أن يهيئ لك من أسباب السعادة بعض ما هيأت لك؟». وبسيمة قتلت أب ابنها بأن غيبته وغيبت اسمه: ألم يقل صابر في نفسه عن بسيمة: «ثم أحببت أباك لتحرمك نعمة اليأس». التي أحيت الأب قبل موتها هي التي قتلته عند ولادة الابن، بل قبلها.

تقول الكاتبة عن صابر: «إنه يوسف الجميل، صورة أبيه البهية، الساقط في ظلمة الجب والذي ربما يتحقق ميلاده الجديد عبر غوصه في عمق هذه الظلمة».

النبي يوسف تركه أبوه، فأخذه إخوته إلى الجب، ثم عاد إليه الأب والتقى به بعد رحلة سعي طويل. وصابر متروك، تركه أبوه، إلا أنه لم يعد إليه. أحلام الأنبياء كانت نبوءات متحققة، أما حلم صابر، في زمن نهاية النبوءات، فكان عين الواقع: ما كان ممكناً، أي تلاقيه بالأب لم يكن، وما كان بإمكانه أن يكون، لأن الأب أرادته الأم بسيمة أن يكون متنكراً لأبوته، وهذا ما تحقق في الحلم، دون أن يكون الحلم نبوءة، أو كان الحلم بالأحرى نبوءة تعكس الماضي السحيق لا المستقبل القريب، ماضي العلاقة الأوديبية الأولى.

فات الأوان يا بسيمة ويا صابر، وصورة الأب التي تسلمها الابن في آخر لحظات حياة الأم، تسلمها بعد أن سلك صابر طريقه، ولم تعد أن تكون وأن تبقى صورة شبحية. ألم يقل صابر في حلمه لأبيه المتخيل الذي مزق الصورة ووثيقة الزواج: «أنت تمحو وجودي محواً؟».

تقول الكاتبة: بسيمة: «أعادت إنتاج النموذج السلطوي الذكوري في أقسى صوره، مرتدة بهذه القيم إلى عصر ما قبل الدين، ما قبل التشريع والقانون».

بسيمة الأم المتسلطة، إمبراطورة الملاذ الليلية بالإسكندرية، لم تترك فضاء لصابر حتى يستبطن القانون الذي يحد من المتعة ويهيكل الذات، لا لأنها مومس وقوادة، فكم من المومسات والقوادات أنجبن أناساً عاديين لا يلجأون إلى القتل، بل لأنها جعلت ابنها يخلد إلى المتعة، ويطلب ما يشاء ويجد ما يطلب، ولذلك تتساءل الكاتبة: «أتراها (بسيمة) كانت تسعى لتأسيس استحالة عثور صابر على أبيه الرحيمي بعالمه وقيمه، قيم الحرية والكرامة والسلام؟».

تستنطق الكاتبة اللغة، وتشتغل على الدوال في ترابطاتها العتيقة، فتدهشنا عندما نكتشف من جديد أن اللغة ليست مجرد أداة «نقول بها»، بل هي لسان كاهنة «تقول لنا»

## رجـــــاء بن ســــلامــة

تقول الكاتبة: «ولعل صابر شأنه شأن كافة البشر فقد ميثاق التشابه القديم حين غاص في عمق هذا العالم مغتربا عن أصله، فأضحى مجرد قمر على الورق. وحينما رأى صابر الصورة، تذكر ميثاقه الدموى مبهما وشبحياً، لكنه وعى عبره مدى اغترابه عن الأصل».

الميثاق القديم الضرورى لكل البشر، هو ضرورة الاغتراب والابتعاد عن الأصل الرحمى الأموى، لمعانقة المصير والسير على خطى الشوق الفاتح لفضاء الممكن. غاص صابر في اغترابه لأنه عجز عن الاغتراب عن الأصل، وظل يسير على خطى المصير الذى صنعته له أمه، عندما اختارت أن يكون «ابن بسيمة»، وأن يكون له أب حاضر أو غائب أو مسمى.

ومن المفارقات التراجيدية العجيبة أن يكون اسم الأب الذى كشفته عند نهاية المطاف وبداية القصة، التى كانت قصة نهاية المطاف، هو «الرحيمى»، وكأن اسم الأب نفسه يرد إلى الرحم، ويحيل إلى استحالة الاغتراب المخلص.

حتى لو التقى صابر بأبيه، فليس من الثابت أن ينتشله من عالم الامتلاء بلا شوق، لا سيما أنه هو نفسه أسير المتع التى لا حد لها، وأن بعض ممارساته تدخل تحت طائلة القانون. تقول الكاتبة: «وهكذا لا يختلف فردوس بسيمة في هذا السياق كثيرا عن فردوس الرحيمى، من حيث إنه يقوم على مبادئ التملك والتسلط والاستئثار، وسطوة النفوذ والمال».

لم يكن لصابر أب ولا اسم، ولذلك حق للكاتبة تشبيهه بسمير داكوف، الابن غير الشرعى في أسرة كرامازوف، فقد كان بلا أب ولا اسم، وكان يصرع كصابر، والاثنان آل مصيرهما إلى القتل: كان كلاهما «هامشيا مستوحشا ممتلكًا بدرجة ما، وقرينا لليأس والعنف والقسوة التى تصل إلى حد القتل».

تتساءل الكاتبة: «هل كان صابر مولود اللعنة أم الاكتمال المخيف، وكلاهما وجهان لعملة واحدة؟ إن زواج بسيمة عمران، والسيد الرحيمى أنجب صابر الجميل المصروع».

نعم كلاهما وجهان لعملة واحدة، كلاهما «انعكاس صارخ لنرجسية مدمرة لا تعتد بحضور الآخر ولم تأتنس به أو تؤنسه أبداً». ألم يقل صابر قبيل قتله زوج عشيقته كريمة: «ولعلى أشارك الله في بعض علمه بالغيب منذ قبلت أن أكون قاتلاً».

كان صابر يصرع، أى يغيب عن العالم ويبتلع العالم، وفضاؤه الصرعى هذا «يصل به إلى حد الشعور بقدرته على الاستغناء عن أبيه، بل إنها اللحظة المناسبة تماماً لمعاينة الأبدية، معاينة الجمال في مجلاه الأكبر، مجلى العمى، أو لعله مقام الحق والفناء إذ تستوعب الذات في عمق الدفء، دفء الرحم البدئى».

تقول الكاتبة: «ولعلنا نقارب هنا تخوم الجنون الإلهى المقدس، الذى قد تنطوى عليه الطبيعة الصرعية لشخصية صابر، والتى كانت تورثه أفكار الفناء. ولعلنا لسنا في حاجة إلى التذكير بالارتباط الأسطورى القديم بين الجنون والأم القمرية الأنثوية الإلهية، ولنتذكر معا أسطورة سيبيل، الإلهة الأم التى ضربت ابنها وحبيبها أتيس بالجنون فخصى نفسه تحت شجرة التين وظل ينزف حتى الموت».

نعم لنتذكر معاً أسطورة الأم المحرمة سيبيل، عشيقة ابنها الذى أغرق في الجنون وخصى نفسه واقعيا لأنه لم يخص رمزيًا ولم يفصل بينه وبين الأم. بسيمة هى إيزيس، وهى سيبيل، ولكن الأسطورة تغالى وتبالغ، والغلو يفضح اتجاه الحركة «كما يقول جورج باطاى». لا لم تكن بسيمة عشيقة صابر الفعلية. ولكنها كانت على أية حال مملكته الوحيدة وكان أسيرها. «إنه لا ينتمى إلا إلى أمه بسيمة، كما يقول نجيب محفوظ، متكلماً بلسان حال القدر.

لكن هذا الجنون غير إلهى، لأنه ليس كجنون «عقلاء المجانين»، ولا يمر عبر تجربة الإعلاء والحب الإلهى، بل إنه جنون مغرق في ظلمة العدم وفى الاكتفاء النرجسى.

تقول الكاتبة إن بسيمة عاجزة عن الافتقار والإعلان عنه، تدافع عن نفسها «إزاء ذلك الحضور المغاير المهدد الذى يخترق حدود السيطرة الذاتية، ويعرى أوهام امتلاك المصير الزائفة».

ترى لماذا طردت بسيمة الصديق الذى جاءها ليلاً، ثم أخلدت إلى البكاء؟ ربما لأنها هى أيضا حبيسة امتلائها النرجسى وافتقارها إلى الافتقار، فلم تترك أى رجل يحتل محل الأب أو العشيق، ويقصم اللحمة بينها وبين ابنها. وربما بكت عجزها عن الافتقار، وربما بكت لأن كل مومس تبيع جسدها لابد أن تبكى في لحظة من لحظات الوحشية، تبكى جسدها الذى لم يعد غاية في حد ذاته، لم يعد أغلى من كل شىء، بل أصبح وسيلة للعيش والربح. إمبراطورة الليل لا سلطة لها على أدنى ما يمكن أن نكون لنا عليه سلطة. تقول لنا الكاهنة العجوز - اللغة: سر المرأة فرجها، والمومس لا سر لها ولا جسد، أو سرها مستباح وجسدها سلعة معروضة.

تقول الكاتبة: كريمة «بسيمة الشابة المولودة من نظرة صابر ومن عمق ذاكرته، وحلمه القديم في عطفه القرشى» وتقول عنها إنها «الامتداد الحى لأمه بسيمة فيما تهبه من متعة وجريمة، وما أعجب صيغ المبالغة بسيمة/ كريمة!».

نعم كريمة آتية من عمق الماضى، كالقراديفا، «صاحبة المشية الرشيقة»، بطلة رواية يانسن. تصور عالم الآثار أنه يحب امرأة غريبة هى تجسيد للنقيشة التى تحمل نفس الاسم. وتصور أن هذه المرأة انبعثت من خراب بومباى، المدينة التى أغرقها بركان الفيزوف. فيتبين له في آخر الرواية أن هذه المرأة بنت جيرانه التى عشقها ونسيها، ولكنه احتفظ في لا وعيه بصورتها، فهو يلتقى بالحبيبة القديمة، ظاناً نفسه أنه يلتقى بامرأة غريبة.

بسيمة، آتية من الإسكندرية، موطن صابر، وهى ملتهبة الوجه والجسد كبسيمة. إنها لا تعدو أن تكون صنواً لبسيمة، التى لم يبرح صابر مملكتها وهو يسير نحو المرأة الأخرى، أو الحبيبة.

وماذا عن إلهام؟ ألم يحبها صابر محرما إياها على نفسه، ألم ير ذلك في حلمه، عندما بدا له أنها أخته؟ إذن كريمة وإلهام صورتان للإيماجو الأمومى المنشطر إلى شطرين بفعل الازدواج: شطر سلبى يمثل الشبق والدمارة والقتل وشطر ملائكى طاهر يمثل الأم الأخرى التى تلتبس ببسيمة أو التى ود صابر لو كانت بسيمة هى الشطر السلبى هو كريمة والشطر الإيجابى هو إلهام.

تقول الكاتبة: «فقد كانت بسيمة حريصة على إحكام قبضتها حول أسيرها الجميل حتى إنها أوصته بأن يعشق من النساء من يشاء، ولكن لا يجعل لإحداهن سلطة عليه، أو لنقل لا يسلم صك ملكيته لامرأة أخرى تغدو نداً لها...».

ماتت بسيمة عند ابتداء الرواية. ولكنها ماتت مجدداً، عندما قتلها صابر بقتله كريمة.

تقول الكاتبة: «إن صابر هو المريد الذى لا شيخ له إلا الظلمة؟ ولعلنا نذكر زيارته اللافتة للعارف سيدى الشيخ زلدى بمنطقة الشراقوة قبيل مغادرته للإسكندرية ...».

إذاً لم يكن له من شيخ إلا الظلمة، فهو ليس مريداً أو هو المريد المستحيل. كما أنه ابن الأب المستحيل، والشيخ في الظلمة لم يبشره إلا بالصبر، أى بالأسر.

تقول الكاتبة: «وهكذا سقطت الذات في حبائل الطريق الفخ، في بئر كبريائها الذاتى الوهمى، وقد وأدت حضور الآخر، وربما التهمته، لا لتنفى وحشتها البائسة، بل لتقترف عبر نفى الغيرية وقتلها».

هذا شأن بسيمة وصابر ابن بسيمة، والمقام ليس مقام محاكمة أخلاقية، وما أبعد أدب نجيب محفوظ عن هذا المقام، ما أبعد قارئته أيضاً عن هذا المقام.

بسيمة المومس الباكية في الظلمة ليست بريئة وليست آثمة، وصابر الباحث عن أبيه المتخبط في أذيال مملكة أمه ليس بريئاً ولا آثماً. بسيمة قتلت ابنها صابر من فرط الحب، وصابر قتل كريمة وبسيمة التى تلتبس بها، من فرط الحب أيضاً، وانفتح أمامه باب القتل لأنه أراد أن يعاقب وأن يقدم نفسه قرباناً للقانون وللأب الذى حرم منه.

إنهما من سلالة سيبيل وأوديب الملك، ولنجيب محفوظ رسم طريق لعنتهما بحكمة عالية، وحس تراجيدى مرهف، فجعلنا أسرى لهذه الرواية بعد قراءتها، متحيرين متسائلين عن نسيج الأقاصيص التى صنع بها مصائر شخصياته وصنعت منها مصائرنا.

**مـــن المفـــارقات التراجيـــدية العجيبــة أن يكون اسم الأب الذى كشفته عند نهاية المطاف، هو «الرحيمى»، وكأن اسم الأب نفســه يــرد إلى الرحـــم، ويحيـــل إلى اســتحالة الاغتـــراب المخلص**

## بعد الصحافة والفضائيات

# سينما مستقلة

رنا حسايك ـ محمد خير



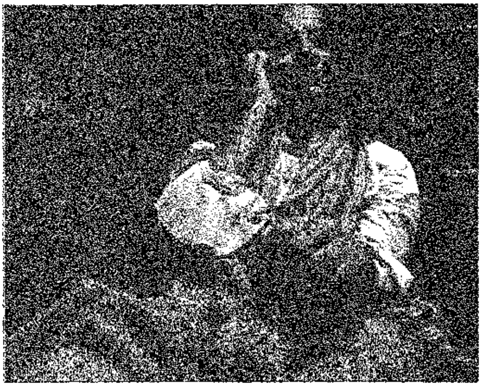
الجنيه الخامس

** من مشاركات المحطة المصرية الراسخة، أن ذلك البلد العريق في بيروقراطيته ومؤسساته العتيدة، المنقسم منذ دهور بين سلطة مركزية وبشر اعتادوا على الدوران في فلكها، أفاق فجأة على انتعاشة فائقة لكل ما هو مستقل عن المطرقين. صحافة مستقلة ازدهر توزيعها على حساب مؤسسات عتيقة، وفضائيات مستقلة ثقافية وترفيهية اختطفت الأضواء التي طالما احتكرها مبنى ماسبيرو، دعاة جدد احتلوا مكان ومكانة الأزهر، وأخيراً: سينما مستقلة شابة، قد يندهش القارئ عندما يعرف أن إنتاجها يتخطى الآن خمسين فيلماً سنوياً. في وقت يتفاخر فيه منتجو السينما التجارية بأنهم أنتجوا في موسم ٢٠٠٥ ما يقرب من ٣٠ فيلماً، معتبرين أنهم بذلك أقالوا السينما المصرية من عثرتها التي بدأت في أوائل التسعينيات، تحديداً في العام ٩٣ عندما اقتصر الإنتاج السينمائي المصري على ٧ أفلام لا غير.

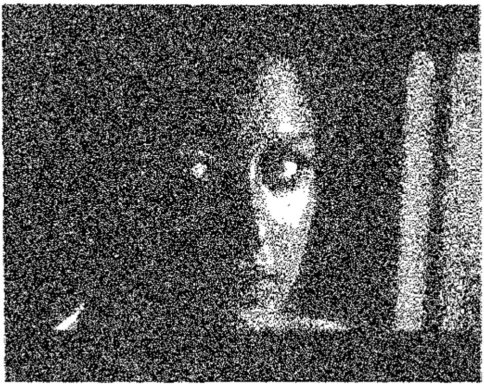
وبينما وقفت خلف الإعلام الصحفي والتليفزيوني - المستقل مؤسسات مالية ورجال أعمال يكفلونه بتمويل لا ينضب، فاستطاع كسب جماهير واسعة، ظلت السينما المستقلة الجديدة على الهامش فيما يختص بالتمويل والعرض العام، بل حتى على مستوى الاهتمام النقدي، ظلت مشاريع الأفلام المستقلة بأنواعها (التسجيلي والروائي القصير والطويل) مشاريع فردية بالأساس، ينتجها مخرجون شبان على نفقتهم الخاصة أو على نفقة جمعيات أهلية أو مراكز متخصصة لتمويل هذا النوع من الإبداع مثل مؤسسة «سمات» التي تصدر أيضا مجلة «نظرة» المتخصصة في السينما المستقلة، شبان استفادوا من تقنية كاميرا الديجيتال التي ظهرت منتصف التسعينيات، فصنعوا أفلاماً محدودة التكلفة سرعان ما فرضت نفسها على المهرجانات الدولية قبل المحلية، وانتشرت عروضها في الجمعيات والمراكز الثقافية والنقابات، وإن ظلت بعيدة عن الجمهور العريض الذي لن يتحمل ما تمارسه هذه السينما من تكسير للتابوهات، كما يرى الناقد الفني عصام زكريا، والذي يضيف أن المفارقة تتأتى من كون أن أغلب الاعتراضات على جرأة الأفلام المستقلة ورفضها للمسلمات، تأتي من قبل الجمهور المثقف نفسه.

في الواقع، ولولا هذه الجرأة، ربما لم يكن أغلب الناس ليسمعوا عن السينما المستقلة، في الفترة الأخيرة دأبت صحف ومواقع إلكترونية على إثارة القراء بعناوين من نوع (فيلم مصري يسخر من الحجاب، أو يهين المحجبات، أو يشوه سمعة مصر)، هكذا من دون تدقيق أو رؤية نقدية، بل غالباً دون أن يرى كاتب الخبر الفيلم الذي يكتب عنه، فيمتلئ الخبر بالمعلومات الخاطئة عن الفيلم وعن الممثلين، فيدعي مثلاً أن الممثلة التي (سخرت من الحجاب) ممثلة مسيحية، ثم يتضح أن الممثلة ليست مسيحية، وأنها لم تسخر من الحجاب أصلاً، وأن الفيلم (الأسانسير) للمخرجة هديل نظمي يناقش قضية لا علاقة لها بالحجاب أو الإسلام أو أي دين، ولكنها ضرورات الفرقعة الصحفية.

لماذا حاز الفيلم المصري المستقل هذه السمعة المشبوهة، وهل بالضرورة أن يرتبط كسر (التابو) بالسينما المستقلة كمفهوم وكمشروع؟ في الواقع، تتغير معطيات وأهداف السينما المستقلة من بلد لآخر، ومن فترة زمنية لغيرها، وإن كانت بشكل عام قد ظهرت لأول مرة في خمسينيات القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية، كنوع من الاحتجاج على احتكارات استديوهات هوليوود الكبرى



الأسانسير



انت شايف ليه

وأحياناً كان الفيلم المستقل يلعب دور ورقة تعريف يقدم المخرج من خلالها عمله لتشجيع المنتجين على التعاقد معه، كما يحكي الناقد السينمائي ضياء حسني.

أما في مصر، فقد ولدت السينما المستقلة في لحظة سياسية واجتماعية حرجة، كواحدة من تجسدات رغبة شباب المصريين المبدعين في التعبير عن أنفسهم وأحلامهم وأحزانهم، لا تختلف عن المدونات على شبكة الإنترنت، أو الفرق الموسيقية التي انتشرت تؤدي أغانيها في المحافل الفنية الثقافية، أو الروايات والدواوين التي ينشرها الشباب على نفقتهم الخاصة في وقت تنسحب فيه الدولة مسافة جديدة كل يوم. وإن كانت السينما المستقلة قد سبقت كل ما سبق، وقدمت أول فيلم من هذه النوعية عام ١٩٨٩ بعنوان (حبة سكر) للمخرج حاتم فريد، وكان فيلماً روائياً طويلاً على غير عادة الأفلام المستقلة، إذا ما استثنينا فيلم (كلفتي) عام ٢٠٠٤ للمخرج محمد خان الذي ينتمي لجيل مختلف سناً ووعياً عن معظم أبناء السينما المستقلة.

غالباً ما تتميز الأفلام المستقلة بالإيقاع السريع الذي يسابق الدقائق القليلة التي تشكل مدة الفيلم، أفلام تشبه عصرها، عصر السرعة الذي يختصر طموحات جيل شب فوجد نفسه محاصراً داخل الوطن. محدود الإمكانات ومهدد بسلطة متصاعدة تراقب أفكاره، وجمود سياسي خانق يجمد أحلامه فيجعله يتساءل عن معنى الوطن ومكانه وضروراته، كما فعل تامر عزت في فيلمه الوثائقي (مكان اسمه الوطن) الذي حصد الجائزة الأولى في كل من مهرجان الجزيرة للإنتاج التليفزيوني والوثائقي، ومهرجان روتردام للفيلم العربي، عمد تامر إلى انتقاء أربع شخصيات تنتمي إلى مختلف شرائح الطبقة الوسطى، وقد استطاع ببراعة أن يلتقط الفوارق الطفيفة بين الوضع الاجتماعي لكل شخصية عن الأخرى، وإن كان بدا مهتماً أكثر بالإجابة عن سؤاله الأساسي : ما هو الوطن؟

يبدأ المخرج بأسئلة حول معنى الوطن ينتقيها على عينات عشوائية من المارة ثم ينتقل سريعاً إلى شخصيات الفيلم الأساسية، شابين (السباعي) و(معتز)، وفتاتين (ميريام) و(همس). كل من الشابين يعول أسرته بشكل ما، الأول يساعد أباه في شركة صغيرة ولا يجد الوقت أو الفرصة لممارسة هوايته في التلحين والغناء، والثاني مخرج تليفزيوني يتحمل مسئولية أسرته بعد وفاة الوالد وينجح بإمكاناته المحدودة في الزواج من حبيبته، أما ميريام فهي فتاة مسيحية تعمل مترجمة في دار نشر وتحب شاباً مسلماً لا يمكنها الزواج منه بالطبع، و(همس) فتاة مصرية عاشت في أمريكا منذ طفولتها وأخيراً جاءت إلى القاهرة وتزوجت شاباً بولندياً بعد أن أشهر إسلامه، تقول للكاميرا أنها تشعر بالانتماء لمصر وتريد الاستقرار فيها بعد أن طافت العالم في رحلة استغرقت أحد عشر شهراً. (معتز) أيضاً لا يريد أن يسافر خارج مصر رغم أنه لم يطف العالم مثل همس، أما (السباعي) و(ميريام) فهما لا يجدان طريقاً لمستقبلهما إلا في الهجرة، الأول حتى يستطيع أن يحقق أحلامه في الموسيقى، والثانية حتى تجد حريتها الشخصية وحقها في اختيار الزوج الذي تريد، والاثنان لا يكفان عن محاولة الهجرة رغم ضغوط الأهل الذين استسلموا أخيراً، ومع انتقال الكاميرا بين الأبطال الأربعة يتحول الوطن تدريجياً ليصبح مفهوماً هشاً للغاية، مفهوماً (شخصياً جداً) كما يقول المخرج نفسه في نهاية الفيلم، كما نلاحظ، فإن شخصيات (مكان اسمه الوطن) تتمتع بحرية نسبية ومقدرة على اتخاذ قرارات جذرية ومكلفة مثل الهجرة والتخلي عن حياة مستقرة مادياً على الأقل، وهو ما يختلف تماماً عن الحالة التي وجد فيها بطلا فيلم (الجنيه الخامس) للمخرج أحمد خالد نفسيهما، هنا شاب وفتاة متحابان، مهربهما الوحيد للتنفيس عن حبهما هو الأوتوبيس المكيف وثمن المتعة التي يسرقانها في آخر مقعدين، بالإضافة إلى الجنيهات الأربعة ثمن التذكرتين، جنيه خامس لسائق الأوتوبيس المتواطئ الصامت، الفيلم كان هو الأكثر جذباً للاحتجاجات الجماهيرية والضجة الصحفية، والسبب لم يكن تناوله لحالة تواطؤ تحدث يومياً في الشارع (الأوتوبيس) المصري، وإنما ثارت الضجة لأن الفتاة في الفيلم كانت محجبة، هذا هو ما أزعج الجمهور ودفع بعدة مراكز ثقافية للاعتذار عن عدم عرضه، ومنها المركز الثقافي الفرنسي الذي مازال يتصرف بدافع مشكلة منع الحجاب في المدارس الفرنسية، وهكذا، يتوجه الاهتمام بغالبية الأفلام المستقلة إلى نواح لم يقصدها - أو يريدها - صناعها، فالحجاب أيضاً كان سبب الضجة والشائعات التي اندلعت حول فيلم (الأسانسير) الذي قدمت فيه المخرجة هديل نظمي شابة مصرية محجبة تحتجز حوالي ربع ساعة في أسانسير معطل، خلال هذه المدة تصرخ وتستغيث بالبواب لكن لا يسمعها أحد، ويرن هاتفها الخلوي ليأتيها على الطرف الآخر صوت شخص لا تعرفه، معاكسات التليفون الاعتيادية، ترصد المخرجة انفعالات الفتاة خلال هذه المدة وتفاعلها مع المتصل الذي لا يمل معاودة الاتصال، وتتدرج ردود أفعال البطلة من العنف والتذمر إلى التجاوب والاستمتاع بغزل المتصل الذي يوصلها في لحظة من اللحظات إلى خلع الحجاب والنظر في المرآة وقت مغازلتها لتعيش أنوثتها كاملة دونما إحساس بالخجل لأنها وحدها بين أربعة جدران ولأن المواجهة مع من يغازلها ليست فعلية فهو لا يعرف شكلها بل ولا حتى اسمها الحقيقي، ينتهي الفيلم بإصلاح الأسانسير فتلبس الفتاة حجابها مجدداً وتخفي ابتسامتها الرقيقة التي ارتسمت على وجهها خلال الخمس عشرة دقيقة الماضية وتعقد حاجبيها وتخرج من الأسانسير إلى حياتها الطبيعية التي تساوي الكبت وانعدام الخصوصية كما يليق بالأنثى الشرقية التي تحيا اغتراباً كاملاً عن مشاعرها بمجرد أن تغادر عتبة بيتها، ومع ذلك، فإن هذا الكبت لا

**الاغتراب هنا**
**هو العنوان الرئيسي**
**وهو الخيط الذي يجمع كل**
**ما تكلمنا عنه من**
**أفلام، بالطبع**

# كتاب الزاوية

## من أدب الغرس والترك

### سقاية عابر السبيل

احتساب الخير عند الله وتقديمه في سبيله، جعل لكلمة سبيل مدلولاً خاصاً، فاقترنت بكثير من الصدقات. كأن يقال عملت التوابيت لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة، وأن فلاناً كان يقيم في كل سنة سبيلاً للحاج، وسير معه جميع ما تدعو حاجة المسافرين إليه في الطريق. ومكتب السبيل هو المكتب الذي لا يلزم الصبيان في دخوله شيء، ومن أخص ما يسمى بالسبيل سبيل الماء. وهو بناء صغير أو كبير يشرب منه. وتجرى العادة بغرس شجرة أو شجرات تمد عليه وارف الظلال، ليكون مثابة ومأوى لعابر السبيل يلوذ به من لفحة الهاجرة ووقد شمسها، فيرتوي من حرقة الظمأ، ويجد برد الراحة بعد طول الأين والإعياء، فكأنه كان يضرب في الصحراء المشمسة العطشى، ثم عاج بواحة خضراء فيها ظل وماء.

ومما يشير إلى فرط اهتمام أهل الخير والبر بها، وأنها كانت عندهم أول ما يبتغون به مرضاة الله بعد تشييد المساجد، إنه بينما كانت والدة أحد السلاطين تبني مسجداً ذا مئذنتين، قل مالها ولم يف إلا بإقامة مئذنة واحدة، وعرف ولدها السلطان ذلك من أمرها، فأمدها بما يسد حاجتها ويقيم لها المئذنة الأخرى، بيد أنها قالت لما تحصل المال لها: «كلا إن في المئذنة الواحدة كفاية لدعوة المؤمنين إلى الصلاة، وما في الأخرى إلا مجدي ورفع ذكرى، إن المسكين إلى السبيل فقير!»، وأمرت بإنفاق المال على تشييد سبيل.

يميز أو يعبر عن ميادة سعد الطالبة بقسم الترجمة بجامعة ٦ أكتوبر، وبطلة فيلم (انت عارف ليه)، هي في السادسة عشرة من عمرها (رغم أن أمها تقول أن عمرها تسعة عشر عاماً)، استجابت لإعلان المخرجة سلمى الطرزي casting agency for modeling وتقدمت للاختبار كممثلة وعارضة وفتاة إعلانات. لم تقصد سلمى أن يكون ذلك فخاً، بل كان تجربة للتفتيش عشوائياً عن شخصية الفيلم الأساسية، وحين وجدت ميادة، كانت تلك حاضرة ومادة غنية صنعت فيلماً بتلقائية شديدة، فيلماً تكلم عن نفسه وعن المجتمع الذي انبثق منه على لسان مقابلات متتالية سجلت مع ميادة ومع أمها، تتخللها لقطات غالباً ما ناقضت كلام الاثنتين. وكانت كل منهما في عالم مختلف تتنازعهما منظومات قيم مختلفة، ومع ذلك فإن ما يجمعهما ببعضهما البعض وببطلة فيلم الأسانسير هو ذات حالة الاغتراب، اغتراب عن الذات وعن الآخر. ففي الوقت الذي تمثل فيه الفنانة روبي مثلها الأعلى، ترفض ميادة أداء أدوار الإغراء لكن لا مانع لديها عن التقبيل إذا تطلب الموقف الذي تؤديه ذلك، وفي نفس الوقت الذي ترى فيه صوراً لميادة ترتدي فيها الثياب الجلدية لامرأة سادية تمسك السوط في يدها كما طلب منها المخرج، نسمع صوت أمها أثناء مقابلة مع المخرجة تؤكد على معارضتها لأداءات روبي من ناحية أخلاقية وتقول أنها تصطحب ابنتها لكل المقابلات وتحرص على عدم أدائها أدوار الإغراء وأنه لو تطلب الدور المعروض عليها أداء مشهد إغراء، تصر على تأديتها له بعينيها فقط! وفي نفس الوقت الذي تقول فيه ميادة أن والدها فخور بها ولا اعتراض لديه على المهنة التي اختارتها لنفسها، ترجو الأم من المخرجة ألا تخبر الوالد لأنه لا يعرف شيئاً بعد عن الموضوع..

هكذا فإنه لا ميادة ولا أمها تعرفان ماذا تريدان بالضبط، المهم أن تصبح الفتاة «شيئاً» مهما كان هذا الشيء غير محدد: مذيعة، مغنية، مضيفة، أي شيء يؤهلها له رصيد ابنتها من الجمال - الذي أصبح الرصيد الوحيد المعترف به للنجاح لأن تصل إليه، وتتحمل في سبيله كماً لا نهائياً من الاستغلال والتحكم المادي والمعنوي.

يختار الفيلم المستقل الوثائقي شخصيات عادية من واقع الحياة، أما الروائي فإنه يرسم شخصيات تقترب بقدر الإمكان ممن يمكن أن تقابلهم في الشارع، ولهذا تجد معظم أبطال الأفلام المستقلة قد أصابهم ما أصاب المجتمع المصري في صورته العامة. غالبيتهم يحملون داخلهم تناقضات مرعبة وحيلاً نفسية دفاعية يتضخم دورها حتى تكاد تصنع عالماً وهمياً كاملاً يحيا داخله الناس بينما يتواجدون في الواقع بأجسادهم فقط، الاغتراب هنا هو العنوان الرئيسي وهو الخيط الذي يجمع كل ما تكلمنا عنه من أفلام. بالطبع، فإن هنالك أفلاماً أخرى أشبه بالقصص القصيرة التي تلتقط لحظة لتعبر عنها في دقائق محدودة، أيضاً ثمة أفلام كوميدية وتاريخية بل حتى بوليسية، هنالك أفلام تجمع هذا بذاك ويصعب تصنيفها في إطار معين مثل (يوم الاثنين) لتامر السعيد، (دردشة نسائية) لهالة جلال، أو (صور من الماء والتراب) لهالة لطفي، زخم سينمائي شاب بعيد كل البعد عن الانحطاط الذي أصاب السينما التجارية التي جربت أن تقتنص بعض المخرجين المستقلين فقدمت فيلم (الحاسة السابعة) للمخرج أحمد مكي الذي كان فيلماً قصيراً بنفس الاسم حصد الإعجاب والجوائز، ولكن بعد تحويله (ومطه) ليناسب العرض التجاري لم يحصد سوى الفشل الذريع، مما طرح أسئلة حول الفارق (النوعي) بين الفيلم القصير والطويل، أم أنه فارق في الأهداف والطموح بين شباب يصنعون فنهم على نفقتهم وبشروطهم، وبين منتجين أتى أغلبهم إلى السينما من عالم البيزنس ويلعبون وفق شروطه، هل من الأفضل أن يتم الفصل بين الفيلم المستقل القصير غالبا، والتجاري الطويل دائماً؟ أم أن ذلك سيحكم على المستقل بأن يظل على الهامش أبداً؟ خاصة في بلد تسيطر فيه بضع شركات معدودة على دور السينما وكل وسائل العرض، أم نكتفي من السينما المستقلة بالاطمئنان الذي يداخلنا على أن الموهوبين مازالوا موجودين وبكثرة كما تدل أعمالهم الممتعة فنيا والمشغولة بقضايا الوطن في ذات الوقت؟

أسئلة ربما لا يصح أن نلقي هم إجابتها على المستقبل وحده. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

## الخطاب الإسلامي.. قراءة في التجربة المصرية

عماد سيد أحمد
القاهرة: مركز الأندلس لدراسات التسامح، ٢٠٠٦، ١٣٦صفحة



يبدأ المؤلف من لحظة فارقة، حين أعلنت الجماعة الإسلامية في مارس ١٩٩٧ مبادرتها لنبذ العنف، وبعدها بخمس سنوات تم الإفراج عن أعضائها، بعد سنوات طويلة قضوها في السجون والمعتقلات وصلت إلى ربع قرن تقريبا، وقد أصدر قادة الجماعة أربعة كتب أسموها كتب المراجعات، وهي التي أكد تقرير مجمع البحوث الإسلامية خلوها تماماً من أي فكر متطرف، ولكن هل انتهى بذلك فكر التطرف والعنف الذي وجه سلوك الجماعة سنوات طوالاً؟

هذا هو السؤال الذي يستغرق المؤلف بحثا في الجذور الفكرية للخطاب المتطرف لدى الجماعات الإسلامية، وهو يبدأ من محنة الإخوان المسلمين مع ثورة يوليو، في عامي ١٩٥٤ ثم ١٩٦٥، وكان بين من ألقي القبض عليهم في الهجمة الأخيرة شكري مصطفى زعيم تنظيم التكفير والهجرة الذي أودع السجن وهو في الثالثة والعشرين بتهمة توزيع منشورات لجماعة الإخوان المسلمين، وحين حكم عليه بالإعدام في ١٩٧٧ كان الاتهام أشد، فقد قتلت جماعة التكفير والهجرة الشيخ الذهبي.

يتابع المؤلف مسيرة الجماعات الإسلامية في عهد السادات والشروط التي أدت إلى تعاظم الدور الذي لعبته هذه الجماعات وتنامي تأثيرها، مستفيدة من ظروف سياسية ودولية واقتصادية بدت مواتية، ويشير المؤلف كذلك إلى التحولات التي جرت في التيار الرئيسي لجماعة الإخوان المسلمين، وتأثير الحالة الأفغانية على قطاعات واسعة من شباب تيار الإسلام السياسي، سواء منهم من جاهد هناك أو من بقي، وكانت المفاجأة أن يبرز تيار الوسط برئاسة المهندس أبو العلا ماضي، والذي كان ناشطاً إسلامياً بالجامعة في أواسط السبعينيات.

وفي الفصل الثاني يركز المؤلف على دور الأزهر بوصفه المؤسسة الدينية الرسمية التي يقع عليها عبء الدعوة وتجديد الخطاب الديني، ويشير إلى حالات القصور الشديدة التي تؤثر في عمل هذه المؤسسة، كما يشير إلى حرب الفتاوى التي تشتمل على الفضائيات بين الدعاة الجدد الذين يحظى بعضهم بكاريزما عالية مع افتقاره للبضاعة العلمية الحقيقية من ناحية، أو رموز المؤسسة الدينية المعنيين بالفتوى بشكل رسمي، والذين ينظر إليهم في كثير من الأحيان بوصفهم موظفين لدى النظام، وهو ما يحد كثيراً من تأثيرهم بين الناس.

يتناول المؤلف بعد ذلك من يسميهم بالإسلاميين المستقلين ويناقش خطابهم، ويركز بالأخص على كتابات أحمد كمال أبو المجد والدكتور محمد عمارة، ويقدم قراءة نقدية تحليلية في الختام لكتابات جمال البنا ونصر حامد أبو زيد.

※

## أصداء عربية وإسلامية في الفكر الأوروبي الوسيط

الطاهر أحمد مكي
القاهرة: دار الهاني للطباعة والنشر، ٢٠٠٥، ٣٨٦ صفحة



منذ خمسة قرون كانت إبداعات العرب هي المنار الهادي للغرب في مجالات العلم والفلسفة والرياضيات والفلك والأدب، وكثير مما بنت عليه أوروبا نهضتها وأرست به دعائم تقدمها في العصر الحديث، جاء استناداً إلى ما قدمه العرب من إنجازات في ذلك الزمن، لكن العرب لم يحققوا ذلك إلا بتحقيق أمرين هما احترام العقل واحترام كرامة الإنسان، وهما شرطان غابا، فغاب الإبداع وتراجعت الأمة.

يحاول المؤلف أن يقدم الأصول الحقيقية للإبداعات الغربية في مجالات العلم والأدب والفلسفة، والتي مثلت الإبداعات العربية بذرتها الأساسية، وفي حالة اليونانيين مثلاً، فقد كانت مدرسة الإسكندرية هي أول لقاء بين المسلمين والفكر اليوناني، ثم يعرض لعمليات الترجمة التي تمت على نطاق واسع من العربية إلى غيرها من اللغات، وهو ما أفاد الغربيين الذين اطلعوا على كتابات رائدة في الطب والفلك والأدب والعلوم، كتبها المسلمون في عصور ازدهارهم، كما اهتم الغرب بترجمة الأساطير والحكايات الشعبية مثل ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة ومقطوعات كثيرة من الشعر الأندلسي، ثم كتب التراث وبعض المعلقات ودواوين الشعر ومقدمة ابن خلدون وغيرها.

بعد ذلك يقدم المؤلف شواهد على استفادة الأوروبيين مما قدمه العرب في كافة العلوم، فيعرض للأصول العربية لفلسفة رايموند ولوليو، الذي قرأ النصوص العربية بلغتها الأصلية دون ترجمة أو وساطة، ثم يعرض لعدد كبير من المفكرين والمستشرقين الإسبان الذين نقلوا علوم العرب إلى الغرب، ويلاحظ كذلك كيف أن كثيراً من الألفاظ الموسيقية التي استخدمها الغربيون هي ذات أصل عربي، ويشير إلى الأصول العربية للكوميديا الإلهية عند دانتي وخصوصا اقتباساته وتأثره بابن عربي، وكذلك تأثير قصة حي بن يقظان لابن طفيل على عشرات من الأدباء والفلاسفة الغربيين.

※

## الطريق إلى السوبر مان

ترجمة: أحمد مستجير
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٦، ٣٢٠ صفحة



يبدو الدافع إلى تغيير أنفسنا وتحسين ذواتنا جزءاً أساسياً وطبيعياً مرتبطاً بطبيعتنا البشرية، باحثين دوماً عن أن نصبح أقوى وأسرع وأذكى وأطول عمراً، هذا هو سعي الإنسان منذ خلق وحتى قيام الساعة، وقد كانت المخاطرة الحقيقية التي واجهها الإنسان هي وجود خلل أو ضعف في جهاز المناعة، ويصبح العالم الخارجي في هذه الحالة مصدر تهديد مستمراً للجسم، وبدأ التفكير في مسألة العلاج بالجينات بعدما ثبت عدم قدرة العقاقير على تحقيق تحسن مستمر، وقد بدأت الهندسة الوراثية عام ١٩٧٢ واستمرت الأبحاث تتطور طوال الثمانينيات، وبدأت مئات المعامل بدءاً من عام ١٩٩٠ في تجريب العلاج بالجينات، وفي تجارب أجريت عن علاج الأنيميا مثلاً بالعقاقير وعلاجها بالجينات، ثبت أن المرضى الذين عولجوا بالجينات استمرت كرات الدم الحمراء تتزايد في دمائهم باطراد، أما من عولجوا بالعقاقير فإن كرات الدم الحمراء تضاءلت بعد عدة أسابيع من العلاج، هذا مجرد وجه من أوجه العلاج بالجينات، يمكن أن يضاف إليها العلاجات التجميلية وتغيير لون الجلد ومقاومة السمنة، وبشكل عام، فإنه في ظرف عقود، تمكن العلماء من اكتشاف عشرات التقنيات التي تمكن من تحور الجينوم البشري بشكل منضبط، بما يمنح القدرة على علاج آلاف الأمراض، ويعزز قدرات الجسد ويغير بالتالي نوعية الحياة.

ما يعد به العلاج بالجينات واكتشاف خرائط الجين البشري يتجاوز هذا بكثير ويمكننا من اختيار عقولنا وتقوية قدرات التذكر ومقاومة الزهايمر أو تأخيره إلى أقصى مدى في أسوأ تقدير، كما يجري العلماء تجارب رائعة تستهدف إيقاف الشيخوخة، وهذا هو الطموح الأكبر، فإذا تمكنا من تأجيلها على المدى القريب، يكون العلماء قد حققوا نجاحاً باهراً، يضاف إلى هذا القدرة على تخليق الجينات المماثلة لاختيار صفات الأبناء على صورتها المثلى.

العلم يسعى كما يبين الكتاب إلى تعزيز قدرات الإنسان ومواجهة مخاطر المستقبل، ويثير ذلك بالضرورة كثيراً من المشاكل القانونية والسياسية والاجتماعية والدينية، هذا بعض ما يناقشه الكتاب.

※

## بلزوني في مصر

جيوفاني بلزوني
ترجمة: علاء الدين محمود عبدالرحمن
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ٥٤٩ صفحة



زار هنري صولت مصر عام ١٨٠٦ ورسم تخطيطات مبدئية لمدينة القاهرة، وبذل جهوداً كبيرة ليكون قنصلاً بمصر كي يتمكن من جمع أكبر كمية من الآثار لحساب أحد الأغنياء الإنجليز، ليحقق ثروة كبيرة، واستخدم في حيله تلك المغامر الإيطالي جيوفاني بلزوني الذي وصل إلى مصر عام ١٨١٥، بهدف بيع آلة رافعة لنقل المياه، لكن مشروعه أخفق فانتشله الرحالة السويسري لويس بوكهارت وأوصى به صولت، وفي غضون ثلاث سنوات فتح منفذاً إلى معبد أبي سمبل الذي اكتشف بوكهارت وجوده قبل ذلك بعدة سنين، وأزاح الرمال عند مدخل الهرم الأوسط، وكشف مقبرة ستي الأول في وادي الملوك بطيبة، وكانت أساليبه في الحفر متهورة، وفي مرات عديدة حين احتاج النار للتدفئة أو طهي الطعام كان يشعل النار في المومياوات.

وهذا الكتاب يتضمن سرداً لما رآه بلزوني

وعايشه في مصر خلال الفترة من ١٨١٥ وحتى ١٨١٩. وهو لا يقتصر على الاكتشافات الأثرية التي كانت ولعه الأشد وإنما كذلك الناس وعاداتهم وتقاليدهم. ويعتقد بلزوني أن ما ميزه عن آلاف الرحالة الذين زاروا مصر هو هذه النقطة بالذات، فهو يرى أن أياً من هؤلاء الرحالة لم تتح له دراسة تقاليد سكان البلاد كما أتيحت له، فقد تعامل مع الأتراك والعرب المصريين والنوبيين والبدو وقبائل العبابدة.

وكان دافعه لإصدار كتابه هذا، هو أنه حين عاد إلى أوروبا اكتشف كثيراً من الأخبار المغلوطة عن أعمال البحث والتنقيب التي قام بها في مصر، فكان عليه أن يصحح ذلك بنفسه.

وهو يسرد رحلته بتتابعها الزمني، كما جرت بادئاً برحلته إلى طيبة وزياراته لمعابد الكرنك وأبو سمبل ومقابر البر الغربي وفيلة وغيرها، ثم رحلته إلى الإسكندرية، ثم رحلته إلى البحر الأحمر ورحلته إلى سيوة، وهو في كل هذا لا يتوقف عن سرد دقائق مهمة وكاشفة عن طباع الناس وعاداتهم، وإن كانت صفته كمغامر باحث عن الشهرة والثراء لا تغيب عن السرد في كثير من الأحيان.

*

## هوامش حرة

فاروق جويدة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ١٧٩ صفحة



عرف فاروق جويدة بوصفه واحداً من كبار الشعراء المصريين والعرب المعاصرين، لكن قراء مقالاته في جريدة الأهرام عرفوا فيه جانباً يتجاوز طبيعته الرومانسية وطبيعة أشعاره بالغة الرقة والشفافية، فهو فيما يكتب مقالات من طراز فريد، لا يساوم ولا يمالئ، ويضرب فوراً وبكل قوة في الموضوع، سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو ثقافياً. وهذا الكتاب يجمع عشرات المقالات التي كتبها جويدة في مقاله الأسبوعي بالأهرام، بادئاً بذلك الهم الذي يشغل المصريين، ومازال، طوال السنوات الماضية، فيكتب تحت عنوان «شراكة باطلة» عن قضية التغيير في مصر، كاشفاً أن هذا التغيير لا يعني استبدال وجوه بأخرى، أو الإطاحة بأشخاص لحساب آخرين، وإنما هو وقبل كل شيء أسلوب جديد في العمل، وطريقة مدروسة في مواجهة المشاكل قائمة على الشفافية، وهو ما لا يراه موجوداً في أسلوب العمل في مصر، حيث تتغلب المصالح الخاصة على العامة، ويتصور كثيرون ممن هم في موقع القرار والسلطة، أنهم يديرون أملاكاً خاصة.. فتحكموا في رقاب العباد دون رحمة وضمير.

ويكشف جويدة في هذا المقال عن الفساد وشبكاته وعلاقاته، في الإعلام وإدارات الدولة والنفوذ الطاغي لرأس المال، ويؤكد على فساد هذه الشراكة الباطلة بين رأس المال والسلطة والإعلام... لأنها شراكة باطلة وزواج مرفوض حتى تبدأ صفحة جديدة أكثر شفافية وتقديراً للمسئولية وتحديداً للأدوار.

وتحت عنوان: ماذا تفعل لو كنت رئيساً للحكومة: يتخيل المؤلف نفسه في هذا الموقع ويحدد مسئولياته والقرارات التي سوف يتخذها بشكل عاجل وهي: وقف كل مظاهر الإسراف الترفي في الإنفاق الحكومي، واستبعاد أية قرارات تستهدف زيادة الرسوم والضرائب على محدودي الدخل والطبقات الشعبية، وتحويل الدعم العيني إلى دعم نقدي ضماناً لوصول هذا الدعم إلى مستحقيه، وبسط الدولة لرقابتها على السلع والأسواق، فلا تترك الحبل على الغارب بدعوى العرض والطلب، وأن تراجع موقف القطاع الخاص وما قدمته مؤسساته للاقتصاد المصري منذ أواسط السبعينيات حين تم الأخذ بسياسة الانفتاح الاقتصادي وحتى اليوم، وضرورة العودة للاهتمام بالزراعة خاصة ما يتعلق منها بالغذاء اليومي للمواطنين، وتفعيل أداء الأجهزة الرقابية والاهتمام بما تقدمه من تقارير وتوصيات للقضاء على بؤر الفساد في كل موقع.

وتحت عنوان «اللغة العربية والأمن القومي العربي» يشير إلى الأزمة التي تعيشها اللغة العربية والتي بدت غريبة عن أهلها ومتحدثيها، ويرى أن نقطة البداية هي في تحقيق مصالحة بين النص اللغوي والعقول الشابة، وأن نطبق الوسائل الحديثة لتدريس اللغة في مدارسنا كي نحبب الغلابة في لغتهم.

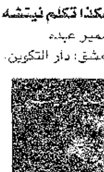
ويميز في مقال آخر بين حرية الإبداع والإسفاف، متسائلاً عن الإبداع الذي يمكن الدفاع عنه في أغنيات العري والفيديو كليب، والتي تخلو من أي قيم فنية أو إبداعية وتدخل بالإلحاح وسطوة رأس المال بيوت الناس.

*

## هكذا تكلم نيتشه

سمير عبده

دمشق: دار التكوين، ٢٠٠٦، ١٠٠ صفحة



لم يكن «الإنسان الأعلى» شيئاً من ابتكار الفيلسوف الألماني «نيتشه»، كانت الفكرة سابقة عليه، لكنه هو الذي منحها زخمها، خصوصاً حين أصر أنه لا يقصد النوع البشري وإنما «السوبر مان»، أي استنهاض الطاقات الكامنة في الإنسان العادي، وقدراته غير العادية. وربما كان اشتراكه في الحروب في سن الثالثة والعشرين دافعاً إلى تغيير نظرته على هذا النحو الذي كشف له عن التأثيرات الأقوى لإدارة الحرب والقتال على السلوك الإنساني. وبرغم ذلك فإنه حين زج به مباشرة في ميادين القتال، انكشفت روحه الرقيقة وطباعه الهشة، مما دفعهم إلى نقله لفصيل التمريض ومداواة الجرحى. وقد سعى نيتشه في وقت مبكر إلى تعميق رؤيته للعالم والاستفادة من كتابات فلاسفة ومفكرين آخرين: من أفلاطون إلى فولتير، وعلى الرغم من أن جده وأبويه كانوا قسيسين، وعلى الرغم من أنه هو نفسه عرف بين أقرانه حين كان صبياً مازال بالقسيس الصغير، فإنه كان يعتبر نفسه عدواً للمسيح، ورافضاً لتعاليم الدين المسيحي القائمة على التسامح المفرط والدعة، كانت دعوته مناقضة تماماً، فحواها أن ثمة حياة واحدة نحياها علينا أن نستثمرها ونعيشها بقوة وإرادة، كما عاب على المسيحية دعوتها إلى وأد العواطف لا تهذيبها، ورأى أن المسيحية نفسها تعبير عن إرادة القوة، لكنها القوة التي يضمرها الضعفاء والمخذولون، الذين يدفعهم حقدهم إلى عداوة متغلغلة لكل امتياز جسماني وعقلي.

وإذا كان «هكذا تكلم زرادشت» هو أشهر مؤلفات نيتشه وأقربها إلى نفسه، فإن له نحو خمسة عشر مؤلفاً آخر تركت آثاراً كبيرة على فلاسفة وعلماء نفس في العالم كله: قبل أن يصاب هو نفسه بالجنون في ١٨٨٩، وسيطرة ما يعرف بهذيان العظمة عليه، حتى أنه صار يبعث خطاباته ويوقعها بإمضاء نيتشه - قيصر.

المؤلف يقدم أهم ملامح فلسفة نيتشه التي قامت أساساً على السخرية من المرأة والعداء للدين، وبغض عامة الشعب ومدح الأرستقراطية، وإبراز إرادة القوة وقدرات الإنسان الأعلى.

*

## نصوص من مقدمة ابن خلدون

اختيار وتعليق: محسن بن جماعة

تونس: دار محمد علي للنشر، ٢٠٠٦، ١٨٢ صفحة



بدأ ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) المولود في تونس حياته المهنية بكتابة العلامة، وهي وضع الحمد لله والشكر لله بالقلم الغليظ ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم، وشغل مناصب عدة فيما بعد كان أهمها وأرفعها منصب «الحجابة» أي رئاسة الوزراء في عهد أبي العباس الذي لم يلبث أن جرده من مناصبه وسعى إلى القبض عليه.

إلا أن ابن خلدون رغم بعده عن المناصب السياسية لم ينزل لشأنه لما عرف عنه من حنكة سياسية ومن تقلب في الولاءات وتغيير الانتماءات، وقد كلفه هذا السلوك البرجماتي عامين في السجن، إثر اتهامه بالتآمر، وتعكرت علاقته بصديقه لسان الدين بن الخطيب بعد فترة سعيدة قضاها في الأندلس امتدت نحو عامين ونصف العام، وتوالت عليه النوائب طوال ربع قرن قضاها في غمار السياسة، قبل أن يعزف تماماً عنها ويتفرغ لكتابة «كتاب العبر» في قلعة ابن سلامة.

ومن المؤكد أن هذه الخبرة السياسية ساعدته كثيراً في فهم أسباب تقلب الحكم وقيام الدول واضمحلالها، وعلاقة ذلك بالعصبية التي عاين أهلها في مناطق العمران البدوي واحتك بهم.

وقد اشتغل بعد ذلك وأثناءه على التدريس مثل أبيه في فاس وجامع الزيتونة، ثم جاء إلى القاهرة ليدرس الحديث والفقه في الجامع الأزهر، ثم بدأ في إلقاء دروسه فيه. وقد لقيت دروسه اهتماماً كبيراً من طلبة العلم.

والمؤلف يقدم نحو ٤٤ مقطعاً مختاراً من مقدمة ابن خلدون موزعة على خمسة أقسام تغطي كافة المسائل التي تناولها: التاريخ، الإنسان، بما هو كائن طبيعي واجتماعي، العصبية والدولة، في الكسب والمعاش والصنائع، العلم والتعليم.

*

## مسيرة حياتي

محمد يوسف الجندي

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٦، ١٤٨ صفحة



هذا هو الجزء الثالث من مذكرات واحد من الشيوعيين المصريين، وقد تناول في الجزء الأول عن مسيرته نشأته وأصوله وأسرته والدور الذي لعبه أبوه في قيام ما عرف بـ «جمهورية زفتى» في ثورة ١٩١٩، والطريق الذي اختاره لنفسه وكلفه سنوات من السجن والاعتقال والنفي، وفي الجزء الثاني تناول الفترة من أواسط الستينيات وحتى التسعينيات، وفي هذا الجزء يواصل حديثه عن المسار الذي اختاره، مع تغير الظروف بسقوط الاتحاد السوفيتي والمحنة التي تواجهها الاشتراكية بشكل

عام، ويشير المؤلف إلى الأزمة التي يعيشها الشيوعيون المصريون، وإصرار كثيرين منهم على أن يبقوا جماعة سرية ظناً منهم أن السرية مرادف للثورية. ويطالب هو بأن يخرج الشيوعيون مطالبين بحزب علني شرعي، وفي هذا الإطار فإنه يوجه انتقادات حادة لليسار في عمومه. ويقول إن اليسار ينقصه الوضوح وتحديد الأهداف، كما تنقصه وحدة الحركة بين فصائله المختلفة ومع كل القوى الوطنية والديمقراطية المستنيرة، وقد لعب المؤلف أدوارا مهمة وقيادية داخل حزب التجمع لسنوات قبل أن يعلن استقالته من كل مناصبه في الحزب، وقد رأى أن الحزب لم ينجح في تعبئة كل قوى اليسار تحت مظلته، بل اتبع أسلوبا في العمل أدى إلى تحجيم اليسار وساعد على انقسامه. وهو لهذا يصر على أن يكون للشيوعيين وجود شرعي، ويرى أن هذه قضية ديمقراطية هامة يجب الكفاح لانتزاعها.

ثمة قضايا فكرية عديدة يتناولها المؤلف بالرأي والتحليل من الاشتراكية والتضامن ضد الإرهاب والرأسمالية الجديدة والعولمة والصراع العربي الإسرائيلي وكيفية التصدي للهيمنة الأمريكية، وهناك أيضاً محطات شخصية مثل وفاة شقيقه أحمد وسفر ابنته وزوجها للعمل كباحثين في أمريكا، لكنه دائما يحيل الشخصي إلى العام، حتى يبدوا وكأنهما شيء واحد.

※

## السوبر مستقبلية

حسن عجمي

بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ٢٦٤ صفحة



المستقبلية هي التي تدرس المستقبل من خلال الماضي والحاضر، أما السوبر مستقبلية فإنها تدرس الحاضر والماضي من خلال المستقبل. بالنسبة للسوبر مستقبلية إذن، فإن المستقبل يأتي أولاً، فالأشياء تتحدد ماهيتها بما ستصير إليه في المستقبل، وليس بما كانت عليه في الماضي أو بما هي عليه في الحاضر.

عشرة فصول يناقش فيها المؤلف هذه الفكرة رابطا المستقبل بالكون والعقل والميتافيزياء والمنطق والعلوم ونظرية القرار واللغة والأخلاق والإنسان.

يلاحظ المؤلف مثلاً أن من وجهة نظر السوبر المستقبلية فإن العلم هو الشيء الذي سيصبح أدبا في المستقبل، والأدب هو الشيء الذي سيصبح في المستقبل مصدرا لمعرفة المجتمع في الحاضر أو الماضي. ويبرهن المؤلف على هذا "السيناريو" في المفاهيم والمعايير بقوله أن الدين كان مصدراً للمعرفة في عصره الذهبي، أصبح الآن أدبا في عصرنا وخاصة بالنسبة إلى المجتمع العلمي، أي لم يعد مصدرا لمعرفة العالم، بل استبدل بالعلوم الطبيعية والرياضية، ومع ذلك فإن هذا العلم ذاته سيصبح أدبا في المستقبل. إذ من المتوقع أن تتغير النظريات العلمية ويتم استبدالها بأخرى. كما أن ما كنا نعتبره علمياً أو صادقا علميا سيمسي لا علميا أو غير صادق، وكذلك الحال بالنسبة للأدب الذي سيصير بعضه أساطير تدرس على أنها مصدر لمعرفة عصرها. وبما أن البشر أوجدوا آلات معقدة متطورة تشبه البشر في وظائفها، فإن هذه الآلات هي التي ستبقى ربما بعد وفاة البشر وانتهاء الحياة الطبيعية، وهو ما يعني أن الحياة ذاتها هي التي ستصبح آلة في المستقبل.

بهذه الرؤية التأملية والفلسفية يناقش المؤلف فكرة السوبر مستقبلية وتجلياتها في الدين والفن والفلسفة والعلوم والحياة إجمالاً.

※

## وقودها الناس والحجارة والأغاني

ديعان هشام عودة

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٦، ٩٥ صفحة



الشاعر من مواليد طولكرم على ساحل البحر بفلسطين (عام ١٩٨١)، تلقى تعليمه هناك حتى المرحلة الثانوية، ثم رحل إلى مصر لاستكمال دراسته الجامعية بكلية الهندسة، ولهذا فإن فلسطين هي بطلة معظم قصائده، المسكونة بألم الرحيل وأحلام العودة. من أجواء الديوان:

لا فائدة ترجى يا عدوي / لا جدوى / بطبيعة الحال سنبقى / حياتنا نزيف / نزيفنا حياة / رحيلنا بقاء / تجذر في عمق الحكاية ليس إلا / فإن أبيتم أو أبينا / بطبيعة الحال سنبقى / ندافع عما تبقى / عن الفكرة / عن الحلم كي لا يفنى / فمازال يرتدي القمباز / وفي الزقاق يتمشى / ويذهب مع الأطفال إلى المدارس / ويشاركهم النشيد / ومنقوشة الزعتر / واللعبة الدموية في الطرقات ويتأذى / ربما ينسى التاريخ ربما ينسى / لا لن نقول ما الذي تبقى لأن شيئاً لم يتبق سنبقى.

※

## إنقاذ اللغة.. إنقاذ الهوية

أحمد درويش

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٦، ٢٦٣ صفحة



من قبل، أصدر المؤلف كتابا عنوانه "إنقاذ اللغة من أيدي النحاة"، وقد أثار وقتها ١٩٩٩ ردود أفعال غاضبة خصوصا بين المجمعيين والنحاة وأساتذة اللغة العربية، على الرغم من أن المؤلف نفسه ينتمي إلى هذا الفصيل بوصفه أكاديميا يشغل منصب وكيل كلية دار العلوم في مصر، وهذا الكتاب هو استمرار للجهد الذي بدأه في هذا الإطار.

وهو يبدأ بالتأكيد على عراقة اللغة العربية الأقدم تراثاً والأعرق بين كل اللغات السامية، التي انزوى كثير منها في زوايا النسيان وبقيت اللغة العربية حية متطورة متجددة بين الناطقين بها بفضل جهود العلماء، ولأنها لغة القرآن الكريم والدعاء الذي حمل رسالة الإسلام. ويلاحظ المؤلف أن قوانين دورة الحضارات جعلت اللغة العربية تنكمش على نفسها ويبدو بعض الذبول على ملامحها، وهو ما يستلزم مزيداً من الجهد لكي تثبت العربية قدميها في عالم مليء بالصراعات، وتبدو الحرب ضد اللغة جزءاً من هذا الصراع الحالي، وينبه إلى خطورة الدعوة إلى القطيعة مع التراث، والتي يقصد منها في الأساس الدين واللغة، لأن ذلك يوقعنا في الفخ الذي يدعونا إليه أعداؤنا، دون أن يعني ذلك التوقف عن نقد التراث ومناقشة الماضي والمطالبة بتعديل مناهج دراسته. واللغة بهذا المعنى وتلك الأهمية هي مكون أساسي من مكونات الهوية، وهي التي تختزن المشاعر والذكريات والأفكار، ومن خلالها تتحدد المفاهيم التي يواجه بها الإنسان الحياة، وهي التي تشكل الذاكرة الطويلة الأمد التي تحتفظ بالمعلومات أو المفاهيم أو الخصائص الدائمة. يقول الفيلسوف الألماني هيدجر: إن لغتي هي مسكني، هي موطني ومستقري، هي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع.

المؤلف كما أشرنا يحذر من الوقوع في فخ القطيعة مع الماضي، ويحدد بعدها أبعاد المشكلة اللغوية، ويشير بشكل خاص إلى العلاقة بين الدين واللغة، ويؤكد أن للدين قداسته، أما اللغة فلا. فاللغة العربية تكلم بها المسلمون والكافرون أنصار الدين الجديد وأعداؤه. فاللغة تتشرف بأنها الوعاء الذي حمل تلك آيات الذكر الحكيم، لكنها في ذاتها كائن حي قابل للتطور والنمو والتجديد، وإلا وقفنا عند لغة قريش وبلاغة الجرجاني والأصمعي، ولماتت اللغة العربية وبادت كما بادت لغات سامية تعلق بها أناس في زمن غابر.

الكتاب يحتشد بالنماذج وبالأفكار حول هذا الموضوع المهم الذي يمس الهوية العربية والإسلامية ويشكل أحد مكوناتها الأساسية.

※

## مدينة الحجاج والأعيان والمهاجرين.. دراسات في تاريخ القدس الاجتماعي والثقافي

تحرير: سليم تماري وعصام نصار

القدس - فلسطين: مؤسسة الدراسات المقدسية ومركز دراسات القدس، ٢٠٠٥



تتضمن هذه المجموعة إحدى عشرة مساهمة لمؤرخين وعلماء اجتماع وأنثروبولوجيين حول قضايا تاريخية ترتبط بمدينة القدس. تمتاز المساهمات بتجاوزها للقوالب التقليدية التي سادت لدى الباحثين والكتاب العرب حول موضوع القدس، فهي ليست مساهمات تهدف بالأساس لدحض هذا الادعاء أو ذاك، ولو كان على حساب أصالة البحث والتجديد في نمط الدراسة التاريخية. المساهمات الواردة هنا تتجاوز الإشكالية المعهودة في دراسة تاريخ فلسطين الوسيط والحديث القائمة على ثنائية مصطلحات قد لا تخدم المواقف السياسية لصاحب الدراسة.

بذات الوقت لا تشكل مساهمات هذه في مجملها تاريخاً جديداً لفلسطين أو للقدس، أو منحى تعريفيا يتحدى المنهج التقليدي - أي القرباج السردي التدويني لا المنتقد التحليلي - فالمساهمون في هذا الكتاب لا ينتمون إلى مدرسة واحدة أو منهاج متجانس، وليس القصد من مساهماتهم تشكيل صورة شاملة عن تاريخ القدس، بل إن جل الجديد والمبتكر مما يقدمه كتابنا هذا هو أنه يطرح أسئلة جديدة وإشكاليات جديدة متعددة الجوانب لأكاديميين لايزال معظمهم في بداية إنتاجهم الفكري.

ولعل ما يجمع هذه الدراسات هو قضيتان: الأولى هي الرؤية الجديدة للحقبة العثمانية في فلسطين، بعيداً عن التاريخ القومي المعادي للأتراك، ومحاولة لموضعة هذه الحقبة ضمن منظار أكثر بعداً شمل مكانة بلاد الشام

بين الحرب فى النظام العالمى الجديد. والثانية هى استخدام آليات تحليلية معاصرة فى العلوم الاجتماعية (من تيارات التفكيك، والمجتمعات المتخيلة وغيرها) لفهم ما عبرت فى فلسطين ضمن سياق الأطر التحليلية التى أصبحت سائدة فى مناطق أخرى من العالم.

*

## أطلس الفتوحات الإسلامية

أحمد عادل كمال

القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٤



فى ثلاثة وعشرين عاماً ومن قبائل شتى أقام النبى صلى الله عليه وسلم دولة وأنشأ أمة. وقام على تربية جيل حمل الأمانة من بعده لتبليغ الرسالة إلى البشر بين عملاق فى الشرق وآخر فى الشمال والغرب. هما فارس والروم اللذان رفض كبراؤهما السماح بذلك البلاغ أن يصل إلى الناس.

وفى سنوات محدودة امتدت دولة الإسلام ما بين المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى. وأقبل الناس على دين الله أفواجاً، فوجدوا فيه ضالتهم، وخرجوا به من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق. وقامت به دولتهم. فكانت الفتوح الإسلامية حدثاً فرداً مفرداً متفرداً فى تاريخ العالم، غير متكرر، لا سابقاً ولا لاحقاً: من حيث اتساع رقعته ودوام أثره وقدرته على هزيمة جيوش أكبر.

هذا الحدث المعجز لم يحدث بأسلوب المعجزات، ولكنه ناتج بعد مقدمات جاءت فى الفتوح على أسس حربية صحيحة من ناحيتها الاستراتيجية والتكتيكية قام عليها قادة لم يدرسوا فى كليات حربية ولكنهم كانوا أساتذة. تعلم عنهم اللاحقون فأقاموا أكاديمياتهم، وقد استغرقت هذه الدراسة من المؤلف نحواً من ثلاثين عاماً أنبتت هذا الأطلس الذى يقع فى ٣١٢ صفحة والذى تناول تاريخ الفتوحات الإسلامية منذ أن بدأت حتى الفتوحات فى عهد الدولة العثمانية، متضمناً العشرات من الخرائط والرسومات والصور النادرة والتى يحكى بها ذلك التاريخ المتفرد بأقل قدر من العبارة.

ويشير الأطلس فى البداية إلى طبيعة حركة الفتوح ويوضح أن الإسلام لم يطلب من المسلمين أن يفرضوا دينهم على غيرهم بقوة السلاح ولكنه فرض عليهم إبلاغه للناس، ووضح الأطلس أن الفتوحات الإسلامية الأولى سارت فى خطين متزامنين إلى الشرق لتشمل العراق والجزيرة والأهواز وفارس، وإلى الشمال وتشمل الشام ومنه غرباً إلى مصر ثم الشمال الأفريقى ثم يتناول الأطلس فى مرحلته الثانية للفتوح فتوح برقة والمغرب مروراً بطرابلس وتونس ثم فتح الأندلس وبداية بحملة موسى بن نصير وطارق بن زياد، ثم يتحدث عن غزوات البحر المتوسط حيث وضح الأطلس الاستراتيجية العسكرية الإسلامية فى تحصين السواحل وإقامة الحصون.

وفى النهاية يتناول الأطلس المرحلة الثالثة من الفتوح والخاصة بفتوحات الدولة العثمانية والتى بلغت معظم العالم من نهر الدانوب غرباً حتى الخليج العربى شرقاً، ومن بحر آزوف شمالاً حتى الحبشة جنوباً، كل ذلك من خلال الكلمة والخريطة (غير المسبوقة) واللوحة الفنية.

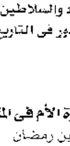
وفى النهاية يقدم الأطلس يوميات وحوليات عن التاريخ الإسلامى منذ قيام الدولة الإسلامية حتى نهاية فترة الفتوحات مع تقديم سير ذاتية لأهم القواد والسلاطين وقادة الأعداء ممن كان لهم دور فى التاريخ.

*

## صورة الأم فى المتخيل العربى

فرج بن رمضان

صفاقس: دار محمد على للنشر، ٢٠٠٦، ١١٩ صفحة



حكاية جودر بن التاجر عمر مع أخويه، الأكبر سالم والأوسط سليم، من الحكايات المطولة نسبياً فى ألف ليلة وليلة، وتزيد عن العشرين صفحة، ترويها شهرزاد على شهريار على امتداد حوالى ثمانى عشرة ليلة، وتحفل بالجن والعفاريت والأحداث الخارقة. وتتعلق أهم وقائع هذه الحكاية بإحدى الإشكاليات الأزلية فى بنية النفس والمجتمع البشريين، وهى إشكالية تنازع الأخوة على الحظوة لدى الأبوين أو أحدهما، كما يقول المؤلف فى عرضه التحليلى للحكاية، وهى تختلف مثلاً عن قصة النبى يوسف من جهتين: الأولى أن تنازع الإخوة، وإن لاحت بوادره فى النفوس فى ظل وجود الأب، فإنه لا يندلع فعلياً ولا يتفاقم إلا بعد موته. وكذلك هناك اختلاف فيما يتعلق بالنهاية، إذ بينما تفضى قصة سيدنا يوسف إلى التمكين فى الأرض بما أوتى من الملك والعلم والتئام الشمل بأبويه وإخوته، فإن حكاية جودر وإن تحقق فيها مثل هذا التوازن السعيد فإنها لا تلبث أن تنقلب لتفضى إلى قتل الإخوة الثلاثة: ويصبح هنا أقرب إلى نموذج قابيل وهابيل.

إن جودر يبدو شخصاً بسيطاً كأنما هو وجه واحد يلازمه على امتداد الحكاية وفى تعامله مع الآخرين: الأم، الأخوين، الخباز، المغاربة، السلطان، ومهما تغير هذا الوجه فإنه يظل داخلاً فى سجل واحد هو الخير، الطيبة، الحب، الشفقة.. إلخ. أما سالم وسليم فهما وجهان متقابلان لا يحملان شيئاً من هذه الصفات. والأم التى لا تحمل اسماً فى الرواية وإنما تظهر دوماً بصفتها، هى محور يتلاقى عنده الشخوص والصفات: والمؤلف يحيل إلى الدلالات الرمزية للأم وليس فقط صورتها الظاهرة فى الحكاية، فهى من ناحية رمز التضحية والإيثار والصبر. ثم هى من ناحية ثانية تضفى حناناً وحباً أكبر للابن الأصغر «جودر»، فهى لا تفارقه وهو لا يفارقها، وتضفى دوماً عليه من محبتها ورعايتها، وهو ما أغاظ شقيقيه.

المؤلف يحلل صورة الأب فى هذا المتخيل الأدبى، كاشفاً عن مدى نمطيتها أو شذوذها فى مسيرة السرد الأدبى برؤية علمية عميقة وشاملة.

*

## خطى اجتزناها

حامد عمار

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٦، ٢٢٦ صفحة



مع بلوغه الخامسة والثمانين، يسجل شيخ التربويين الدكتور حامد عمار سيرته الذاتية، وهى سيرة عامرة بالكفاح والجدية والمثابرة، والانتماء للقيم العلمية والإنسانية الأصيلة، وهى السمة التى يمكن استنتاجها بسهولة فى أعماله وكتاباته.

والسيرة تتبع الترتيب الزمنى. فتبدأ من قرية سلوا فى أسوان، وهى قرية فقيرة مثل مئات القرى فى مصر فى ذلك الزمن، بدايات عشرينيات القرن الماضى، وامتازت عن هذه القرى أيضاً بأنها كانت منعزلة فى أقصى الجنوب، وفى الطفولة يحكى كثيراً مما واجهه من أمراض ومخاطر، وكيف كان يتم التداوى منها والتعامل معها بطرق بدائية تخلو بطبيعة الحال من استدعاء طبيب أو سؤال ذى اختصاص، ولا يفوته بطبيعة الحال أن يحكى عن عادة الختان التى شملت الأولاد والبنات على السواء، وتأصلها فى الريف. ولا يخلو حديثه عن مرحلة النشأة والصبا من تناول لطبيعة قريته وأحوال العائشين فيها وتعاملات أهلها ومشاكلهم وثقافتهم. ثم دروسه فى كتّاب القرية الذى كان بداية معرفته بالقلم وما يسطرون، ثم كان دخوله المدرسة الابتدائية فى مدينة إدفو أملاً فى الحصول على لقب أفندى مصادفة غير متوقعة. وقد كان هذا الطفل الوحيد الذى التحق بالتعليم الحكومى الحديث من قرية سلوا ونجوعها فى ذلك الوقت، إذا كان التعليم الإلزامى ينتهى عند السنة الرابعة الابتدائية.

وحين ظهرت النتيجة كان ترتيبه الأول بين طلاب المدرسة، ورقم ١٧٠ على القطر المصرى كله من بين سبعة آلاف ناجح، وأصبح حينذاك أفندى. وكان عليه بعد ذلك أن ينتظم فى الدراسة الثانوية بمدرسة سوهاج الثانوية.

وفى القسم الداخلى كانت تتنازعه مشاعر الغربة والإحساس بالظلم الاجتماعى خصوصاً بين الطلاب الموسرين القادرين على دفع النفقات وتوفير الحياة الآمنة دون مكابدة. كما هو حال أسرته المتواضعة التى لم تكن تمتلك سوى ثلاثة فدادين وعدة قراريط.

وكان قسط المدرسة الذى لا يتجاوز عشرين جنيهاً يمثل له عبئاً كبيراً، وهماً مؤرقاً مع بداية كل عام دراسى إلى أن دخل الجامعة.

وفى هذه المرحلة بدأ يتفتح وعى الصبى السياسى على الأحزاب والجماعات السياسية التى كانت موجودة فى تلك الفترة، وكانت البداية مع جماعة الإخوان المسلمين. ثم حزب مصر الفتاة بزعامة أحمد حسين، ويشير المؤلف هنا إلى طبيعة الحياة الجامعية والسياسية فى ذلك الزمان، ويشير بوجه خاص إلى استقالة أحمد لطفى السيد مدير الجامعة احتجاجاً على فصل إسماعيل صدقى لطه حسين ونقله إلى دار المعارف دون الرجوع إليه، ويشير كذلك إلى تأثره بأفكار سلامة موسى والعقاد وسيد قطب عن العدالة الاجتماعية وعلى وجه الخصوص كتاب طه حسين «المعذبون فى الأرض»، ولا تغيب أبداً الحياة السياسية النشطة المليئة بالتقلبات والصراعات والمواجهات.

وتتواصل خطى شيخ التربويين من الجامعة إلى البعثة للحصول على الماجستير والدكتوراة وما لاقاه فيها ثم تدريسه بالجامعة ومشاركاته فى عشرات المؤتمرات وعمله بالأمم المتحدة.

وذكرياته عن كلية التربية وأبنائها والعلاقات التى جمعت التربويين قديماً وطبيعة هذه العلاقات الآن، وغيرها من الذكريات والمحطات المهمة فى مسيرته الطويلة.

*

## القضاء المصرى بين الاستقلال والاحتواء

طارق البشرى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦،

٩٦ صفحة



تحقق الاستقلال للقضاء المصرى فى أربعينيات القرن العشرين، حين صدر قانون استقلال القضاء (١٩٤٣) فى وزارة النحاس.

وحين قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ أحكمت قبضتها على أجهزة التنفيذ والتشريع، وأصدرت عددا من التشريعات استهدفت تقييد مجال التقاضى، وجرت مواجهات عنيفة بين الثورة ومجلس الدولة طوال عامى ١٩٥٤ - ١٩٥٥، أثمرت قوانين لإعادة تشكيله وسقوط حصانة أعضائه، وقد استمر هذا الوضع حتى يوليو ١٩٦٢، وبدأ القضاء يوسع ولايته المتقلصة، ويمد نشاطه إلى خارج النطاق الذى كان مضروبا عليه مما أشعر الثورة بالقلق، فظهرت الدعوة لإدخال القضاء فى التنظيم السياسى الوحيد الذى كان قائما آنذاك وهو الاتحاد الاشتراكى.

كما ظهرت فكرة القضاء الشعبى، أى أن يكون مع القضاة فى نظر الدعاوى أناس يمثلون الشعب، كما جرى بعد ذلك فى لجان فض المنازعات والمحكمة التى تنظر فى قضايا الأحزاب ومحكمة القيم.

وقامت المواجهة بين نظام الحكم والقضاء، وأصدر نادى القضاء بيانا فى مارس ١٩٦٨ أعلنوا فيه رفضهم الانضمام للاتحاد الاشتراكى والقضاء الشعبى، وانتهت المواجهة بما بات يعرف بمذبحة القضاة فى ١٩٦٩، إذ صدرت ثلاثة قوانين حلت بموجبها الهيئات القضائية وأعيد تشكيلها من جديد بعد إسقاط نحو ٢٠٠ من أعضاء هذه الهيئات.

ثم بدأت حيل لاستمالة بعض القضاة بعيدا عن التيار الرئيسى الرافض لهذه الممارسات، عن طريق الانتداب فى هيئات التحكيم وتكليف القضاة بأعمال إضافية يحصلون بموجبها على مكافآت كبيرة، مما يعطيهم ميزة كبيرة لا تتوفر لآخرين، ويقضى على فكرة المساواة بين القضاة.

ويلاحظ المؤلف أن سلطة وزارة العدل على القضاء زادت بدرجة كبيرة فى العقود الأخيرة، وهذه السلطة هى ما يمثل تسلطا من السلطة التنفيذية على القضاء، حيث يشكل وزير العدل المكتب الفنى لمحكمة النقض، وينتدب رئيس كل محكمة من المحاكم الابتدائية من بين مستشارى محكمة الاستئناف، كما أنه يفتش المحاكم الجزئية وتتبعه النيابة العامة وإدارتا التفتيش القضائى للمحاكم والنيابة.

ويعطى المؤلف مساحة مهمة للحديث عن حكم المحكمة الدستورية الذى صدر عام ٢٠٠٠، والذى أكد بطلان جميع المجالس النيابية السابقة وإلغاء القوانين الصادرة عنها، ووجوب الإشراف القضائى الكامل على العملية الانتخابية، ويشير المؤلف فى هذه النقطة بالذات إلى أن الانتقادات الموجهة للنظام الحزبى والانتخابى فى هذه الحالة تمس بالضرورة هيبة القضاء وقدسيته، فالتقاضى فى مثل هذه الانتخابات - سيئة السمعة - لا يواجه مؤسسات أو أفرادا، لكنه يواجه الحكومة وحزبها.

ومشروع التعديل الذى يقدمه القضاة اليوم من خلال ناديهم يتجه نحو تدعيم سلطة القضاء وتحقيق استقلاليته، ومن بين ما يطرحونه من تعديلات أن تتبع إدارة التفتيش القضائى مجلس القضاء الأعلى، وأن تستقل النيابة العامة عن وزارة العدل، وأن يتم اختيار رؤساء المحاكم الابتدائية من خلال مجلس القضاء الأعلى، وأن تختار الجمعية العمومية لمحكمة النقض من بين أقدم نواب بها ممن رأسوا دوائرها فى السنوات الثلاث الأخيرة.

إن استقلال القضاء، كما أكدت الأزمة الأخيرة، جزء من استقلال الوطن، وربما هذا الإحساس هو ما دفع إلى تفاعل عامة الناس مع حركة نادى القضاة.

❁

## ديوان طقوس الرؤية

محمد رفيق زاهر

تحقيق وشرح وتعقيب: جمال المرزوقى

جدة: مؤسسة فارس للرعاية الثقافية والفنون والثقافة، ٢٠٠٦، ٨٨ صفحة



قصائد فى الشعر الصوفى علق عليها وشرحها الدكتور جمال المرزوقى أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف فى جامعة عين شمس. والقصائد شأن أشعار الصوفية تتميز بالغموض والتجريد، خصوصا أن الشاعر كما يقول المرزوقى يلجأ أحيانا إلى أسلوب التخيل القصصى فى بعض القصائد، فتبدو القصائد وكأنها تخاطب الإنسان على إطلاقه. كما أنه يلجأ إلى الرمز الدينى المستقى من القرآن الكريم ويستعير نتفا من سير بعض الرسل والأنبياء، دون أن يوظف هذه الرموز كأقنعة تتوارى خلفها مضامين أو رؤى أو أفكار، بل يوظفها بشكل مباشر وكأنها حقيقة ماثلة للعيان، راغبا فى توصيل المعنى المطلوب دون مواربة أو افتعال للغموض.

والرمز فى قصائده شامل وعميق وكأنه يرسم لوحة للطبيعة والإنسان لا يغيب عنها الابتهال والنجوى كما هى طبيعة المحبين من الصوفية. وتتداخل الأزمنة بين الماضى والحاضر والمستقبل بقصدية هدفها كشف المتناقضات فى الشخصية الإنسانية ودلالات وقيمة مجاهدة النفس فى حياة البشر.

يقول فى قصيدة طقوس الرؤية:

هل تعرفون آية الله فى الأرض؟ هل تعرفون الطاووس؟

أبصرته.. فأبصرته.. فأضحى كل غيب ملموس

القديم.. ذات مرة سكارى المحبة، ندامى الكؤوس؟

نعم الحب مسكر، ونشوة موحشة قد تودى بالرؤوس.

والديوان يحتوى على رسوم فنية تبدو هى أيضا ذات طبيعة صوفية حيث يتداخل الحرف واللون والخط والظل فى تناغم بديع بما هو بين الغيب والحاضر.

❁

## الإصلاح السياسى فى محراب الأزهر والإخوان المسلمين

عمار على حسن

القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٦، ٢٤١ صفحة



تشغل قضية الإصلاح مساحة هائلة فى تفكير النخبة المصرية بل وعموم المصريين، الذين سينعكس ما تثمره المساجلات على حياتهم الآن وفى المستقبل.

والكتاب الذى يدور فى خمسة فصول هى: حركة الإصلاح مساراتها وخصوصها، الإسلاميون والإصلاح السياسى، إصلاح رؤية الإسلاميين: إصلاح الأزهر، الإصلاح الثقافى للإسلاميين. يتضمن أيضا البرنامج الانتخابى لجماعة الإخوان المسلمين الذى خاضت به الانتخابات البرلمانية الأخيرة.

والأهم أنه يتضمن ثلاث مقدمات تشكل ثلاث رؤى متميزة ومتمايزة فى موضوع الإصلاح: أولها للمثقف الليبرالى الدكتور عبدالمنعم سعيد، وثانيها للرمز الإخوانى المستنير الدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح، وثالثها للمؤلف نفسه، حيث يفند الدكتور سعيد الخطاب الإخوانى فى مجال السياسة، ويشير إلى أوجه قصور عديدة فى مجالات تستحق الاجتهاد بمنطق العقل والعصر لا بمنطق النقل والاحتكام إلى اجتهادات السابقين.

وهو فى هذا الإطار يشير إلى اجتهادات الشيخ الأزهرى على عبدالرازق صاحب كتاب "الإسلام وأصول الحكم" (١٩٢٥)، ثم ما جاءت به جماعة الإخوان المسلمين على يد الشيخ الإمام حسن البنا (١٩٢٨)، وتأكيدها على أن الإسلام دين ودولة، مصحف وسيف.. إلخ.

ولا ينفى سعيد عن الجماعة التطور الذى جرى فى تفكيرها على مدى عقود وحتى وصلنا إلى اللحظة الراهنة، لكن بقيت الإشكالية فى احتجاز هذه الجماعة للدين واعتبار نفسها هى الجماعة الناجية من النار دون غيرها.

ويناقش سعيد بعد ذلك شعار الجماعة "الإسلام هو الحل" من الناحية العملية والدستورية، وهو لا يرى أن الجماعة لم تسع إلى دراسة التجارب التى مارست وطبقت هذا الشعار فى غير بلد إسلامى، وما إذا كان هذا الشعار متصادما مع الدعوة إلى الدولة المدنية الحديثة. وما إذا كانت الجماعة تطالب بحزب مدنى أم حزب دينى باعتبار أن الدستور المصرى يحرم إنشاء الأحزاب على أسس دينية، ويشير سعيد إلى أن خطاب الجماعة يكتفى بعناوين عريضة وإشارات غامضة عند الحديث مثلا عن قضايا المرأة والأقباط والديمقراطية، وتصورات الجماعة عموما عن فكرة المساواة.

تقديم عبدالمنعم أبو الفتوح بطبيعة الحال يرمى فى اتجاه مناقض، ويرفض المنطق التفكيكى الذى يفصل قسرا بين الدين والدولة، فهما متمازجان ومتفاعلان.

وفى هذا الإطار فإن الخطاب لعموم الناس يبدو أكثر سلامة وصوابا، لأنه لا يمارس هذا الفصل التعسفى ويفهم أن الإسلام ما جاء إلا ليصبغ الحياة ويصوغها ويمنحها بعدا خالدا، ويثنى أبو الفتوح على حيادية المؤلف وتناوله للقضية بصورة استثنائية.

أما المؤلف، فقد عمد إلى فضح ثقافة الاستبداد، ودعا إلى مزيد من التفهم على الجانبين لطبيعة المسألة وتداخلاتها المتشابكة، مؤكدا على أن الإصلاح فى الأساس عملية تربوية تقوم على حزمة من القيم التى تتم على أساسها تنشئة الفرد بدءا من الأسرة وحتى الحزب السياسى مرورا بعشرات المؤسسات.

الكتاب يعد بحق اجتهادا علميا رصينا فى واحد من أوجه الإصلاح المهمة فى الأزهر وجماعة الإخوان المسلمين.

❁

## Memories of a Meltdown
**(ذكريات الانهيار)**

MOHAMED MAKHZANGI
Translated by Samah Selim
AUC Press, 112PP, $17.95, 2006



ربيع عام ١٩٨٦، كان «محمد المخزنجي» يعيش في مدينة (كييف) الأوكرانية. وفجأة وجد نفسه، كآلاف آخرين، يعيش كابوسا نوويا، ناتجا عن انفجار مفاعل تشرنوبيل الروسي، «المخزنجي» في كتابه يروي بصورة نثرية مدى هول الكارثة النووية من منظوره، كضحية لها أولا، وكغريب على أرض لا ينتمي إليها ثانيا.

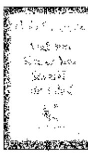
أجاد الكاتب في وصف انطباعاته المركبة ومشاعره، كما أجاد في وصف ما حوله بأسلوب صحفي واقعي يمتزج بالجانب العاطفي لديه: أرقام البيانات الرسمية، إحساس الناس بعدم الأمان، الإحساس بأن الأمور لن تعود أبدا كما كانت عليه. كحكايته عن صديقه الأصلع الذي كان كل ما يقلقه أن يفقد ما تبقى لديه من شعر، أو حكايته عن الجد الذي يقدم المياه لحفيده ساخنة معتقدا أنها أقل تلوثا من المياه الفاترة.

تجربة شخصية تصور مأساة عظيمة، وضعها «محمد المخزنجي» بأسلوب بارع ومعبر.

*

## And You Know You Should Be Glad : A True Story of Lifelong Friendship
**(أنت تعلم أنك يجب أن تكون مسرورا: قصة صداقة حقيقية)**

Bob Greene
William Morrow, 336PP, $24.95, 2006



أمضى «بوب جرين» طفولته وشبابه بمدينة «بيكسلي» بولاية «أوهايو». بتلك المدينة الصغيرة تعرف بوب على أصدقاء عمره الأربعة «ألين وتشوك ودان وجاك». اجتمعوا من اللحظة الأولى برياض الأطفال وأمضوا كل طفولتهم معا. كبروا سويا، قابلوا المشاكل سويا، وفرحوا سويا، أسموا أنفسهم نسبة إلى حروفهم الأولى. تشاركوا في الذكريات، الأماكن التي اعتادوا زيارتها، نفس الصف بالمدرسة، أغانيهم كانت واحدة، آمالهم وآلامهم.

فرقتهم الأيام، ولكنهم ظلوا على اتصال دائم، ويتقابلون من حين لآخر، حتى حل المرض بجاك، عاد تلازمهم من جديد، عادوا ليقفوا بجوار صديق لهم، ويتشاركوا الآمال والآلام من جديد.

*

## Kingdom Coming: The Rise of Christian Nationalism
**(المملكة في الطريق: بزوغ القومية المسيحية)**

Michelle Goldberg
W. W. Norton, 224PP, $23.95
2006



«ميشيل جولدبيرغ» المراسلة السياسية، تتناول التداخل بين عالم السياسة والايديولوجيات الدينية، فمنذ ما قبل انتخابات ٢٠٠٤ والأشهر التالية لها، تساءل الأمريكان كثيرا حول تجاهل الإدارة للموازنة الوطنية وكيف بدأت المصالح الشخصية وتفضيل المقربين بالظهور مرة أخرى.

«جولدبيرغ» سافرت عبر البلاد، لتنقل لنا صورة أمريكا الحالية، أمريكا الواقعة في قبضة الراديكاليين الدينيين على حد تعبيرها، تنقل «جولدبيرغ» قلقها حول المذهب الذي يقول أن للمسيحي الحق في الحكم على غير المؤمنين، مما يهدد الديمقراطية في البلاد.

الكتاب يأخذنا في جولة عبر الثقافة الإنجيلية اليمينية المتمتعة بتأييد الجمهوريين، ويتعقب الروابط المالية والأيديولوجية التي تربط المسيحيين الأصوليين بالحزب الجمهوري، وكيفية تأثير ذلك على الإدارة الأمريكية وقراراتها المختلفة، حيث ترى الكاتبة أن لحرب العراق وبعض مبادرات الخدمات الاجتماعية للحكومة والعديد من القرارات والقوانين الأخرى الصادرة عن الجمهوريين لها أصول دينية.

*

## American Theocracy : The Peril and Politics of Radical Religion, Oil, and Borrowed Money in the 21stCentury
**(الحكومة الدينية الأمريكية)**

Kevin Phillips
Viking Adult, 480PP, $26.95, 2006



اعتمد العديد من الخبراء الاستراتيجيين السياسيين على التاريخ لفهم النظام السياسي للحكومة الأمريكية، منهم «كيفين فيليبس» في كتابه الحكومة الدينية يتعرض «فيليبس» إلى ثلاثة محاور مختلفة لتاريخ السياسة الأمريكية، وهي محاور يراها «فيليبس» إنها تشكل خطرا كبيرا على السياسة الأمريكية في القرن الواحد والعشرين.

المحور الأول الذي يقلق «فيليبس» هو النفط، فموارد الطاقة عموما هي مفتاح كل قوة اقتصادية وعالمية على مر التاريخ، فالإمبراطورية البريطانية مثلا كانت تعتمد على الفحم كمصدر وقود رئيسي، والنفط طبقا للجيولوجيين قد قاربت مصادره على النفاد، لذا يرى «فيليبس» أن الخطر قادم إذا ما انتهى مخزون النفط في العالم، كما يرى أن الاعتماد الأمريكي على النفط كان سببا رئيسيا في بداية عصر الإمبريالية الأمريكية، والتي تتمثل في حرب العراق على سبيل المثال.

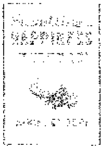
الائتمان والدين هما المحور الثاني الذي يقلق «فيليبس»، حيث يعتبر أن هيمنة الخدمات المالية على الاقتصاد هو مؤشر وهن للاقتصاد، فالدين زاد بإفراط، واتسع الفارق بين الأغنياء والفقراء، مما ينبئ بكارثة اقتصادية وشيكة.

أما بالنسبة للمحور الثالث فيظهر من عنوان الكتاب، وهو الأصولية الدينية، حيث يرى «فيليبس» أن الحزب الجمهوري تحول إلى الحزب الديني الأول بتاريخ الولايات المتحدة، وهو قلق من تطبيق البيت الأبيض لجداول أعماله السياسية المحلية والدولية بقيادة حوافز دينية ونظرة عالمية توراتية. كما يرى أنه من المقلق استغلال إيمان الناخبين الديني في تمرير العديد من القرارات السياسية الهامة.

*

## Stumbling on Happiness
**(العثور على السعادة)**

Daniel Gilbert
Knopf, 304PP, $24.95, 2006



يسألك «دانيال جلبرت» هل تعرف ماذا يجعلك سعيدا؟ ويراهن بأنك تملك إجابة ما ويراهن أيضا على خطأ تلك الفرضية التي وضعتها لنفسك. في كتابه يكشف لنا «جلبرت» كيف تعمل عقولنا، وكيف يفيدنا خيالنا من الوصول إلى السعادة الحقيقية.

الكتاب لا يعرض دليلا للمساعدة، وإنما يوضح الأمر بطريقة علمية حول كيف يقيدنا الخيال. «جلبرت» الأستاذ في علم النفس وعلم الأعصاب الإدراكي، يقول أن السبب الرئيسي لعدم الوصول إلى السعادة الكبرى هو أخطاؤنا في تذكر الماضي، الذي يؤدي بالضرورة إلى أخطاء في تخيل المستقبل. يقول «جلبرت» رغبتنا في السيطرة قوية جدا، والشعور بأنك تسيطر على الأشياء لشعور جيد، لذا الناس يتصرفون في أغلب الأحيان كمن يستطيع السيطرة على الأشياء التي لا يمكن التحكم بها، ولهذا السبب لا تستطيع رؤية المستقبل، فما بال التحكم به.

يرى «جلبرت» أن الخبرات الشخصية والحكمة لا تعوض أبدا غياب الخيال، ويناقش الموروثات المتنقلة عن السعادة من عقول الأشخاص لبعضها، كالحصول على المال أو الأطفال.

*

## The Great Formula : for Creating Maximum Profit with Minimal Effort
**(المعادلة العظيمة: تحقيق أقصى ربح بأقل مجهود)**

Mark Joyner
Wiley, 243PP, $21.95, 2006



الطريقة المثالية لزيادة مبيعاتك في هذا الكتاب، حيث يريك «مارك جوينور» كيف تزيد من حجم مبيعاتك، المعادلة

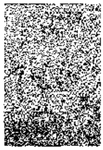
العظيمة تبدأ من تقديمك لعروض محق جيدة، ثم كيفية تقديم هذا العرض إلى العميل، ثم البيع، فمفتاح عملية البيع يتلخص في ثلاث نقاط صغيرة، خلق عرض وتقديمه للعميل الصحيح، ثم بيعه وتقديم خدمات ما بعد البيع.

يحلل الكاتب بعضا من الأعمال التجارية الناجحة ويوضح كيف استخدموا تلك الطرق لزيادة مبيعاتهم، أيضا يتناول الكاتب الثلاث خطوات بالتفصيل الدقيق مضمنا نصائح متعددة وخدعا مختلفة لتنفيذها، أيضا يركز الكاتب على كيفية تحويل العميل الراضي الى إعلان مجاني متحرك، وكيفية إيجاد مشترين محتملين لسلعتك.

## Bad Twin

(التوأم السيئ)

Gary Troup
Hyperion, 272PP, $24.95, 2006



بول ارتيسان، المحقق الخاص، يعيش حياة مملة بين العديد من القضايا المملة المليئة بالتصرفات السيئة والاحتيالات، يأتي له أخ ليشكو له من اختفاء أخيه التوأم، ويطلب منه البحث عنه.

الأخ المفقود ذو الشخصية غير المسئولة سليل العائلة الغنية، أمضى حياته متحديا للناس ليكرهوه، ومعاقبا لنفسه على الأخطاء التي ارتكبها، الأخ الآخر يسيطر عليه إحساسه بالمسئولية والواجب ولكنه ممتحض بنفس القدر، الأخ مرتبك من اختفاء أخيه ويشعر بذنب تجاه هذا، ويريد ان يجده قبل ان يدمر حياته وتصبح غير قابلة للإصلاح، ولكن هذا ليس السبب الوحيد، فأبوه أيضا قرر عدم تقسيم ثروة العائلة إلا في وجود الأخوين.

لم تكن الثروة التحدي الوحيد لأرتيسان، فالتحدي الحقيقي هو ما لم يكن يعرفه حول الطبيعة البشرية، فبينما يجوب ارتيسان الكرة الأرضية بحثا عن الأخ التوأم، جاب ارتيسان عوالم بشرية أخرى، وسافر داخل مفهوم الهوية، ورأى عالما يبدو فيه الأصدقاء كالأعداء، وأحس أن هذه القضية هي فرصته المنتظرة لوضع قدراته قيد الاختبار، متحديا كل الظروف والتحديات التي من الممكن أن تكلفه حياته في أي وقت.

التوأم المفقود هي اخر روايات الكاتب جاري تروب، التي سلمها إلى دار النشر قبل أيام من فقدانه على متن طائرة فقدت في رحلتها من سيدني إلى لوس انجيلوس.

## Wisdom of Our Fathers : Lessons and Letters from Daughters and Sons

(حكمة آبائنا)

Tim Russert
Random House, 304PP, $22.95, 2006



بعد كتابه الاكثر رواجا «روس الكبير وأنا» الذي تحدث فيه عن أبيه، وصل «تيم روسيرت» الآلاف من الرسائل من أبناء وبنات أرادوا التعبير بدورهم عن امتنانهم لآبائهم، آباؤهم كانوا بدورهم أناسا عاديين، ولكنهم بطريقة أو بأخرى أثروا في وجدان أبنائهم وجعلوهم يحسون بالامتنان الحقيقي لهم.

هذا الكتاب بالمقام الأول لكل الآباء، ليتعلموا كيفية إحداث تأثير ايجابي داخل أطفالهم من خلال مبادرات صغيرة ولكنها تحمل للأبناء معاني كبرى، أيضا الكتاب يحمل العديد من المشاعر الإنسانية العميقة التي تظهر في أوجها في علاقة الأب والأبناء.

## Superman Returns

(عودة الرجل الخارق)

Marv Wolfman
Warner Books, 344PP, $6.99, 2006



شخصية الرجل الخارق، أشهر الشخصيات الخيالية في العالم، طالما رأيناها في روايات وقصص مصورة، وانتقلت إلى عالم السينما لتكون البطل الرئيسي لسلسلة من الأفلام التي لاقت نجاحا مبهرا.

بعد غيابه الغامض لعدة سنوات، يعود الرجل الفولاذي إلى الأرض في الملحمة الجديدة (عودة الرجل الخارق)، وفصل جديد في حياة أكثر أبطال الأرض الخياليين شهرة.

بينما يحاول احد عمالقة القضاء على قوته نهائيا، يعود الرجل الخارق ليجد محبوبته ليست بعد في انتظاره، أحداث مثيرة ومحاولات لتدمير الكون، ومحاولات الرجل الخارق في الدفاع عن نفسه وعن الأرض.

القصة تأتي في نفس الوقت الذي ينتظر فيه عرض فيلم جديد يحمل نفس الاسم.

## Knowledge and the Wealth Of Nations: A Story of Economic Discovery

(المعرفة وثروة الأمم)

David Warsh
W. W. Norton, 320PP, $27.95, 2006



تلعب الأفكار الاقتصادية دورا كبيرا في تشكيل العالم، وتقوى الدول نتيجة لقوة اقتصادها، وفي الثلاثين سنة الأخيرة شهد علم الاقتصاد تطورا كبيرا نتيجة لتطور المعرفة الإنسانية.

يواجه «وارش» في هذا الكتاب، آثار نمو المعرفة الإنسانية في الاقتصاد، وكيفية تأثير المتغيرات التكنولوجية في علم الاقتصاد. فهو يعيد تعريف العوامل الاقتصادية الرئيسية للإنتاج من وجهة نظره ومضيفا للمتغيرات المعرفية والتكنولوجية الحديثة، فبدلا من أرض وعمال ورأسمال كما قال «رومير» يرى إنها أصبحت أشخاصا وأفكارا وأشياء.

«وارش» يحاول توضيح فكره من خلال أمثلة توضيحية على ذلك، ويربط أفكاره بأفكار العديد من رواد الاقتصاد، كرومير وآدم سميث، مقدما تاريخا لعلم الاقتصاد خلال الـ ٢٠٠ سنة الأخيرة.

## Books You Must Read1001 Before You Die

(ألف كتاب وكتاب يجب أن تقرأها قبل وفاتك)

Peter Dr Boxall
Universe, 960PP, $34.95, 2006



«بيتر بوكسال» المحاضر في الأدب الإنجليزي، يقترح ألف كتاب وكتاب يجب أن تقرأها قبل وفاتك. الكتب المقترحة لم تكن من «بوكسال» فقط، وإنما أيضا من العديد من النقاد العالميين ونجوم الأدب.

الكتاب يحتوي على عرض للكتب الألف وواحد، يصف أهمية الكتاب الادبية وتأثيره وتفاصيل عن تاريخ مؤلف الكتاب بالإضافة إلى صورة طبق الأصل من غلاف الكتاب، ومعلومات عن الناشر.

## The Book of the Dead

(كتاب الموتى)

Douglas Preston, Lincoln Child
Warner Books, 464PP, $16.35, 2006



الكتاب الثالث من الثلاثية (حجر الكبريت، ورقصة الموت، وكتاب الموتى)، في هذا الجزء يستعيد متحف التاريخ الطبيعي بنيويورك جواهره المسروقة من الجزء الماضي، «ديوجينيس» القاتل والسارق، يتحدى أخاه والمدينة بأكملها، وأخوه المحقق الفيدرالي يمضي عقوبته في السجن عن جرائم القتل التي ارتكبها أخوه، ويحاول أصدقاؤه ترتيب هروبه ليكشف براءته.

المتحف يقرر فتح تابوت مصري قديم، يوجد بالمتحف منذ زمن ولكنه لم يفتح بعد، بفتح التابوت تفتح أبواب الجحيم، فلعنة التابوت تطارد كل من حوله.

# وجهات نظر

ﷺ ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها، مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة تحريرها ﷺ

## لا فائدة من الحوار

أستاذنا الفاضل سلامة أحمد سلامة رئيس تحرير «وجهات نظر» تحياتي واحترامي وبعد.. مقالكم عن «الحوار.. منهجاً للالتفاف والهروب».. يحمل عنواناً هاماً جداً.. فالحوار هنا الآن هو أسلوب أفلاطوني يبحث عن الجنة المفقودة. ولن يؤدي الآن لشيء.. لأن نفاد صبر القوة الغاشمة أمام العقل ينتهي بوأد الفكر وإزهاق روحه والتخلص منه كما حدث مع سقراط وقضاة مصر الشرفاء ومفكريها الشهداء الأحياء الذين يمارسون رذيلة حب الوطن.. المناداة بإطلاق الحوار مع الأسف هي رفاهية ليس هذا وقتها.. فحين يصبح الوطن في خطر الإلغاء والتقسيم والتوزيع على الأقارب والمحاسيب بعد أن جرى تجريفه ونهبه.. وحين يمسي المواطن ذاهلاً من الجوع والقهر والخوف والضياع.. لا يكون هناك أولوية لحوار.. ولكن تكون الأولوية للحركة الوطنية الفاعلة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من بقايا حطام الوطن والمواطن.. وليس الحوار.. ليس الحوار.. مضى مع الأسف وضاع وقت الحوار يا أستاذ سلامة.

**د / سمير عنتر**

استشاري الحميات - الطالبية - الهرم

*

## يبين «القضاء ... والقدر»

أبى الأستاذ أيمن الصياد إلا أن يتناول بقلمه أهم جانب في مصر الحديثة والذي لو استقل وتحرر لانصلح حال مصر وتبدل، إنه القضاء وقضيته الحية والتي يأبى البعض إلا أن يبعث برسالة للعموم أن ما مصر فيه إن هو إلا من قبيل القضاء والقدر وأنه المكتوب على الجبين حتى ولو وصل الأمر إلى هذا الوضع المشين بسبب ما يحيكه في الظلام أعوان الشياطين ليشغلوا كل من تسول له نفسه ساعياً أو معترضاً على الظلم المبين.

فأرادوا أن يشغلوا القضاة بمعارك جانبية وقضايا ثانوية وفتن داخلية لتتوه معالم القضية والتي هي ضائعة منذ أن ضرب الفقيه الدستوري السنهوري بالحذاء فوق أم رأسه، واليوم تنفر فئة رائعة من القضاة يشعر المرء عند الحديث عنها بأنها الفئة التي آمنت بربها والتي تود الرفعة لوطنها وزكريا عبدالعزيز على رأسها والمستشار الخضيري والمكي والبسطويسي بعض فروعها ونهى الزيني هي الفن من زهراتها ومقيمة الحق في ربوعها والفصاحة بعض حروفها وأثبتت أنها بألف أو يزيد من الفرسان ورجالها وإذا تحقق ما يطالب به الأستاذ أيمن الصياد فإن الوضع سينقلب رأساً على عقب حيث سيذهب جفاء المزورون ويقدم للمقصلة المعاونون وستمور أرض مصر موراً إذ أضحى كل شيء فيها مزوراً قولاً وفعلاً وإنتاجاً وإخراجاً صغيراً وكبيراً والعدالة منذ نصف قرن أو يزيد مازال البعض يبحث عنها بإبرة وسط كومة القش وبالشمعة وسط الظلمة.

ويعجبني أن نادي القضاة في بعض فروعه في المحافظات نفض الغبار عن كاهله وفصل من كان عوناً للظلم ومن دل على إخوانه والأشد إعجاباً ما نادى به المستشار الخضيري من تطهير لبعض الواقع القضائية وإصلاح يبدأ بالنفس حتى لا يشارك القضاة في قوانين جائرة ولا حسب التعليمات ولأنهم ضمير مصر في كل الأوقات ويجب ألا يعبأوا بأي تهديدات ولا تغريهم المغريات ولا تعيين البنين والبنات.

**الحسين محمد حميد**

*

## أزمة ثقة

قرأت أكثر من دراسة ومقالة - بداية من مقالة الأستاذ سلامة رئيس التحرير وانتهاء بالصفحة الأخيرة للأستاذ أيمن الصياد بعدد المجلة لشهر يونيه ٢٠٠٦ - القضاء والقضاة والقضية - ولي عتاب بسيط كقارئ على كلمة - مواطن - فلو سألت الملايين غيري في بلدنا الحبيب (مصر) ما هو تعريفك للمواطن؟ وما هي المواطنة؟ وما هي حقوق الإنسان ومنظماته المتعددة؟ ولماذا أنشئت؟.. إلخ لسمعت عجباً.

فبالله عليك يا أستاذ أيمن لقد قلت في الصفحة الأخيرة - قراءة - فيما معناه - لو أن مواطناً عادياً وليس (قاضياً) لكسرت عظامه وسحل بالشارع. فنحن نتفق بأن غالبيتنا العظمى في هذه الرقعة الجغرافية ليس لهم حول ولا قوة - لا سلطة أو نفوذ أو مال يحميهم من غلواء القهر والظلم - (قل لي ماذا تعمل؟ أو ماذا تملك.. أو مدى قربك من أصحاب النفوذ - أقل لك من أنت) إذن فالغالبية العظمى هم - أشخاص - أفراد - هُمْ - إنما مواطنون. فما شاء الله! يا سيدي هذه رفاهية لا تغني ولا تسمن من جوع ولا تقدر عليها لو استدعاني (رجل أمن عادي) وركل وصفع وأهان وأهدر.. هل أستطيع أو بمقدوري أن أقول له «القانون والدستور وحقوق الإنسان والمواطنة وما شابه ذلك» هذه هي الثقافة الجمعية التي تربينا عليها منذ قرون خلت: السلبية والخنوع والاعتدال إلى حد الإفراط والتفريط.

وفي الصفحة ما قبل الأخيرة «نص وتعليق وكالة رويترز» ولأول وهلة اعتقدت أن الصورة بالعراق الشقيق لكثرة ما رأينا أحذية المارينز الأمريكان فوق رقاب إخواننا في العراق لولا رأيت الزي الأمني المصري لما صدقت أن هذه اللقطة بقاهرة المعز. فكل الشكر لثورة المعلومات التي جعلتنا نرى النملة السوداء في الليلة الظلماء.. ألا تستحي الأنظمة العربية في أن يراها الآخر وهي تهين شعوبها إلى هذا الحد، أم أنها تخاف ولا تستحي. ولقد أصابتني حالة من الغثيان والقرف وحالة من الغبط والغضب في نفس الوقت ونسأل إلى متى يتم احتكار الحقيقة من قبل السلطة بمفهوم العقلية الأمنية وتذكرت شاعرنا الكبير فاروق جويدة في أبيات له تقول:

اغضب.. فإن الله لم يخلق شعوباً تستكين

اغضب.. فإن الأرض تحني رأسها للغاضبين

اغضب.. فإن الناس حولك

نائمون.. مكذبون

اغضب إذا لاحت أمامك أمة مقهورة

خرجت من التاريخ.. باعت كل شيء

كل أرض.. كل عرض.. كل دين

وأقولها متى يا رب نغضب؟؟ مع شاعرنا الكبير.



ومتى يكون بين الأنظمة وشعوبها حوار بمعناه الإيجابي، وليس الحوار كمنهج للالتفاف والهروب. كما أشار الأستاذ سلامة بمقاله الرائع، حيث أكد أن عالمنا العربي لا تنقصه لغة الحوار ولكن تنقصه (روح الحوار بمعناه الإيجابي) الذي يتخلى عن المزايدة والمكابرة والسفسطة. تذكرت ذلك وأنا أرى وأسمع بالفضائيات عن حادثة بين عضوي مجلس الشعب وهل بالفعل خلع ظلعت السادات الحذاء أم لا؟ هل هي هذه القضايا التي يجب مناقشتها والتي تهم الناس والمجتمع، ما هذا يا ربي؟؟ إلى هذا الحد الاستخفاف بالعقول من قبل الإعلام. ونعود ونكرر وإذا تم النقاش أو الحوار فكيف تكون لغته: هل نتخلى عن السفسطة والجدال البيزنطي والشخصية وإلغاء الآخر، أم أن الثقافة العربية الراهنة بعيدة عن الأخذ بثقافة الحوار التي تعتمد على التسليم باختلاف وجهات النظر والاعتراف بأن أحدا لا يملك الحقيقة المطلقة. وكما أشار إليه أ. سلامة بمقاله وطالما أننا نتكلم عن الحوار ولغته. هل من الممكن الإشارة إلى ما كتبه د. عبدالوهاب المسيري في دراسته الضيقة العميقة - نحو حداثة إنسانية - ونسأل بدورنا، هل من الممكن أن يكون بيننا وبين الغرب حوار بمعناه الإيجابي؟ أم أن الغرب ينظر إلى العالم - وخاصة العربي والإسلامي - على أنه مادة استغلالية يوظفها لصالحه باعتباره الأكثر تطوراً وتقدماً وطالما أن الشرق ما هو إلا مادة استعمالية للغرب المتقدم وفق مفهومه لفلسفة القوة. إذن هل من الممكن القول بأن روح الحوار بمعناه الإيجابي مفقودة بيننا وبين الغرب؟ وإذا كان ذلك كذلك، فمتى تؤسس حضارة إنسانية لا تؤدي بالضرورة إلى تقويض الإنسان بداخلنا. كما أشار د. المسيري.. متى يا رب؟؟

**سعيد الرفاعي**
العمار الكبرى - قليوبية

## توضيح وتعليق

لقد قرأت ترجمة لزعيم الإصلاح الديني جمال الدين الأفغاني في مجلتكم «وجهات نظر» عدد أبريل ٢٠٠٦ ولي بعض الإضافة والتوضيح حيث نرى أن الشعوب الإسلامية تقدر جمال الدين وتعتز به وتعده من مفاخرها وملكا لها جميعا فتعنى بدراسته وكشف جوانب شخصيته وتسعى إلى تسجيل أفكاره وآرائه وتعمل على تمجيد ذكراه وترى في هذا كله دليلاً على يقظتها وبرهاناً على حيويتها واستعدادها للسير في طريق الرقي والازدهار.

ولد الأفغاني في قرية أسد أباد بالقرب من همدان أي أنه إيراني الأصل شيعي المذهب.

وبعد مطالعة ثبت لي ما يغاير ما اشتهر به الأفغاني فهو معروف بانتسابه إلى بلاد الأفغان وبأنه سني المذهب وهذا غير صحيح وبيان حقيقة جمال الدين الأفغاني لا يحط من قدره ولا يؤثر في مكانته شيئاً ولذا لزم التنويه.

.........

ومن ناحية أخرى أحيي الأستاذ سلامة أحمد سلامة على مقاله في عدد مايو عن أنفلونزا الطيور والذي شرح لنا فيه كيف اجتاح التخبط وكيف تباطأت الإدارة المصرية عند حلول هذا الفيروس أرضنا وكيف أنها لم تطبق الإجراءات الضرورية ومن أهمها استخدام اللقاحات المعتمدة عالمياً ولم تطبق إجراء استئصال وإبادة البؤر المصابة وكم كان كاتبنا متابعاً للأزمة فأحسن القول عندما قال لم يهتم أحد بفرض حصار أو طوق أمني صحي حول المزارع.. إلخ. وهكذا أوضح لنا الأسباب الكامنة في انتشار الفيروس وكيفية الاستعداد لمواجهته ولكن لا ينسى أن ينبه بأن الأزمة اجتاحت الكثير من دول العالم، ولكن هذه الدول تعاملت معها بما يستحق أن تعامل به الدول الكوارث وضرب مثلاً بتسونامي ولكن كانت عندنا الأزمة ليست في الكارثة نفسها أكثر مما كانت في الإدارة المصرية تخبطت وافتقرت إلى الانضباط والالتزام وتحديد الاختصاص والمسئوليات وقد أدى كل ذلك إلى نفوق وذبح ملايين من الدواجن وكبد الاقتصاد المصري خسائر فادحة دون ضرورة ملحة وهذا يذكرنا بقول القائل: لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم.. ولا سراة إذا جهالهم سادوا.

**صابر محمد عبدالواحد**
عضو اتحاد الكتاب الأفريقيين الأسيويين
اخميم - سوهاج

## رسالة مفتوحة إلى مؤتمر الحوار الوطني الفلسطيني في رام الله وغزة

نتمنى لمؤتمركم كل النجاح لإزالة الغمة التي خلقتها بعض الخلافات الداخلية والحصار الظالم مما يهدد مستقبل الشعب الفلسطيني. وفيما يتعلق بحق العودة وسائر حقوق اللاجئين غير القابلة للتصرف، نود إيضاح الآتي منعاً للالتباس والغموض الذي نراه في بعض التصريحات والمبادرات.

إن حق العودة هو حق غير قابل للتصرف وهو حق شخصي في أصله وحق جماعي بموجب حق تقرير المصير، وهو لا يخضع لمساومة أو اتفاق أو معاهدة ولا تجوز النيابة عنه، وقد كفله القانون الدولي أكثر من ١٠٠ مرة. وقد تم تطبيقه بعودة اللاجئين إلى ديارهم في معظم بلاد العالم، ولم يقف في طريق تطبيقه في فلسطين سوى إسرائيل وأمريكا.

ولذلك فالقول بضرورة «إيجاد حل عادل لقضية اللاجئين» يتجاهل هذا الرصيد الكبير من قرارات القانون الدولي وتطبيقاته. ويدعو إلى البحث عن «حل عادل» جديد، وهذا مخالف لما قرره القانون الدولي في شأن الحقوق غير القابلة للتصرف وحدده بكل وضوح بشأن اللاجئين الفلسطينيين. والمطلوب هو التطبيق وليس البحث عن «حل عادل».

وأما إضافة عبارة «كما يتفق عليه» إلى عبارة «حسب القرار ١٩٤» فإنها تفرغ هذا القرار التاريخي من معناه، ويصبح النص عبارة دعائية لإرضاء الجماهير، لأن المقصود بهذه الإضافة: «كما يتفق عليه» مع إسرائيل. وهي التي رفضت عودة اللاجئين منذ عام ١٩٤٨، وسلبت أراضيهم وأملاكهم ولا يمكن لعاقل الاعتماد عليها في الموافقة. وحتى محادثات طابا التي يروجون لها لم تسمح بعودة اللاجئين إلا بشكل مجازي وضئيل تحت عنوان لم الشمل الذي ألغته القوانين الإسرائيلية الآن، بينما خططت محادثات طابا لنفي الفلسطينيين إلى أي مكان في العالم عدا ديارهم.

أما التعويض فهو حق فردي وجماعي ملازم لحق العودة وليس بديلاً عنه، وهو يشمل التعويض عن الخسائر الفردية والجماعية، المعنوية والمادية، وعن جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية. ويستحقه كل فرد تضرر حسب مقدار ضرره، وهو تابع لحق العودة وليس ثمناً لإسقاطه.

ومما لا يقبل الجدل أنه لا يجوز الاستفتاء قطعاً على الحقوق غير القابلة للتصرف، فهذا مخالف لأبسط قواعد العدالة والقانون الدولي.

نسوق إليكم هذه الإيضاحات البديهية والقانونية، والتي يدركها شعبنا تمام الإدراك، لأن بعض التصريحات والمبادرات تستعمل بعض التعبيرات الضارة بالحقوق الوطنية الثابتة.

كما نذكركم بأن سبعين في المائة من الشعب الفلسطيني، و٨٧٪ من اللاجئين، يعيشون الآن خارج فلسطين المحتلة عام ١٩٦٧ (الضفة وغزة)، وليس لهم دور تمثيلي في الحوار الوطني الدائر الآن. ومكانهم الطبيعي في المجلس الوطني الفلسطيني الذي يجب العمل على عقده في أول فرصة ممكنة، بعد انتخابات نزيهة تمثل كافة الفلسطينيين في العالم بنسبة أعدادهم. فالمجلس الوطني هو مصدر السيادة الوحيد الذي يقرر مصير الشعب الفلسطيني، وواجبه العمل على استرجاع حقوقه الوطنية الثابتة.

وفقكم الله لما فيه خير فلسطين شعباً وأرضاً وحقاً.

**د. سلمان أبو ستة**
المنسق العام لمؤتمر حق العودة
info@rorcongress.com

أيمـــــن الصيـــــاد

# المـــوتى .. لا يلبـــون النـــداء



❋ الحل موجود. وقد جرب بنجاح مع مصر ومع الأردن، وحتى مع لبنان. عندما انسحبت إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧ توقف الأطفال عن الموت.. عندنا وعندهم ❋

ب. ميخائيل

(يديعوت أحرونوت)

لا ـ ليس مهما أن تكون قضيتك عادلة.. المهم أن تعرف كيف تقنع الآخرين بها.

لا أذكر بالضبط من صاحب العبارة.. ولكنها قفزت مؤرقة إلى ذاكرتي يوم تابعت ـ على أكثر من فضائية ـ خطاب إيهود أولمرت رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد أمام الكونجرس الأمريكي في زيارته البروتوكولية الأولى لعاصمة العالم الجديد.

يومها.. قاطعه النواب الأمريكيون بالتصفيق (٤٠ مرة) ووقفوا تحية له يقول (١٨ مرة) ويومها اتجهت الكاميرات إلى أولئك الذين انهمرت دموعهم تعاطفاً مع الرجل الطيب الواقف على المنصة ومع شعبه المسكين صاحب الخبرة الطويلة في البكاء على الحائط.

بعد أيام فقط أمام الشاطئ كانت الصغيرة هدى الفلسطينية ذات الثلاثة عشر عاما مع عائلتها على شاطئ غزة. يحاولون في هذا اليوم الحار سرقة لحظات من البهجة تساعدهم على تحمل أيام لم يترك لهم فيها الحصار الإسرائيلي والتواطؤ الدولي والذل العربي غير الصبر والدموع. وبقية القصة معروفة. بعد أن خرجت الطفلة من المياه التي كانت قد نزلتها بملابسها، لتجد عائلتها (كل العائلة) قد أطاحت بهم وبأي فرحة في أيامها القادمة قذيفة إسرائيلية ألقى بها طيار من طائرته الحديثة جيدة التصويب.

وشاهدت، ربما، جميعا بعد أن جسدتها كاميرا مصور وكالة «رامتان»:

على غير هدى.. كانت هدى.. وهذا اسم الصغيرة الملكومة لا تتميز بالزمان أو المكان.. تركض على الرمال. تدور هنا وهناك. تبحث عن إخوة وأخوات وأم وأب.. كانوا هنا قبل لحظات ولم يعد منهم غير دماء وأشلاء.. وذكريات. وربما صورة تجترها شاشات التلفاز لبعض الوقت من سبق صحفي أو لقطة مميزة. ثم ينساها العالم المتحضر الذي يجيد متابعة سيره على الطرف من المعاهدات الدولية التي تنظم حقوق المدنيين. ولا يتذكرون جرائم الحرب أو الفصل السابع من ميثاق منظمتهم الدولية، إلا إذا أراد لهم أصحاب القوة ذلك.

❋ ❋ ❋

لا جديد فيما جرى على الشاطئ.. غير الصورة ربما. فكم من عائلة فلسطينية أبادتها صواريخ الأباتشي الإسرائيلية؟ وكم رضيع قتلته المطاردة أو انتزعته الانفجارات من حضن أمه. راجعوا أرقام الضحايا على موقع B'tselem وهي منظمة إسرائيلية لحقوق الإنسان.

هل تذكرون الهدنة التي أعلنتها الفصائل الفلسطينية من جانب واحد صيف ٢٠٠٣ والتي تمنحتها يومها إنصاعات الحلال من مؤثر التليفزيونية ومانشيتات الصحف العربية التي تبحث عن التهدئة لأسباب داخلية بحتة.

يومها كان للفلسطينيين شرط واحد للالتزام بالهدنة يتمثل في الوقف الفوري لجميع أشكال العدوان الصهيوني بما في ذلك الاغتيالات والمصادرات والاعتداء على المقدسات.

هل تذكرون ماذا فعلت إسرائيل، أو حسب التعريف القانوني «جيش الاحتلال الإسرائيلي» في الشهر الأول من الالتزام الفلسطيني بالهدنة؟

حسب «بتسيلم» الإسرائيلية: بلغ عدد القتلى الفلسطينيين ١٦٣ منهم ٥٣ طفلا ورضيعا (وصل الرقم الآن إلى ٣٤٤١ منذ اندلاع الانتفاضة في سبتمبر ٢٠٠٠). وبلغ عدد المنازل التي هدمت خلال شهر الهدنة الأول ١٣١ منزلا (لم يضبط في واحد منها سلاح أو ذخيرة). كما وصل عدد أشجار الزيتون والموالح التي اقتلعت في الفترة ذاتها إلى ٦٢٩٧ شجرة مثمرة. كما صادرت السلطات الإسرائيلية في الشهر ذاته ما يزيد على ٢١٠٠ فدان.

غير الصورة، لا جديد إذن فيما جرى على شاطئ غزة.. ولا فيما ستشهده شوارعها وأزقتها الفقيرة في الأيام القادمة.

❋ ❋ ❋

لكل أولئك المتحضرين الذين تدفقوا أمام الميكروفونات طوال الأيام الماضية بمصطلحات من قبيل «التنديد بالإرهاب».. و«العمليات المنفلتة» أو الذين ارتدوا «مسوح الحكمة» أو لوحوا بـ«سيف القوة» مناشدين أو طالبين من الفلسطينيين الإفراج فورا عن جندي (جيش الاحتلال) الذي لم يطلب «أسره» غير مبادلته بالأسرى من النساء والأطفال في السجون الإسرائيلية. نسألكم: هل تعرفون أن حادثة الأسر تلك، وهي مشروعة في القانون الدولي، جاءت بعد يومين فقط من مقتل ثلاثة أطفال فلسطينيين بصواريخ الطائرات الإسرائيلية؟ وأن قائمة ضحايا هذا الشهر شملت «جنينا» في الشهر التاسع، بعد أن طالته الشظايا في بطن أمه فمات هو.. وراحت هي إلى المستشفى؟

وهل تعلمون أن حصيلة جرائم القتل التي يرتكبها طيارون آمنون في طائراتهم الحربية والتي لا يملك الفلسطينيون حيالها ردا غير «التشبث بالحياة استشهادا» بلغت هذا الشهر فقط (يونيو/ حزيران) وحتى لحظة أسر الجندي الإسرائيلي، ثمانية وعشرين من المدنيين (بينهم عشرة أطفال).

لا جديد إذن.. غير «الصورة».

❋ ❋ ❋

عندما سمعت «هدى» الفلسطينية الصغيرة على شاشة «الجزيرة» تناشدنا جميعا (عربا وعالما متحضرا) أن «لا تتركوني وحدي..» تذكرت صورتها وقد ألقى بها اليأس، وربما الأمل على الرمال تصرخ في الموتى.. تناشدهم.

يسمعونها.. ربما. ولكن هيهات أن يلبوا النداء.

هل تذكرون نزار قباني؟! ❋



خبر الموسم من موبينيل
هتتحاسب بالثانية
MobiNil
ملخص المكالمة
المدة :
00:00:05
الـو بالثانية
نظام جديد من موبينيل
موبينيل